فكرية شحـرة

شمس أوام

(صاحب الابتسامة)

روايــة

شمس أوام

(صاحب الابتسامة)

فكرية شحرة

الشواهين للنشر والتوزيع

الطبعة الثانية

رواية : شمس أوام

التصنيف : رواية

تأليف : فكرية شحرة

رقم الإيداع: ٢٣٥٧٩ / ٢٠٢٢

الترقيم الدولى: 4 ـ 1 ـ 86394 ـ 977 ـ 978

تصميم الغلاف : قلب الدين البحري

التصميم والإخراج: حسن عبد الحليم

الشواهين للنشر والتوزيع

العنوان: ٤٥٣ شارع الهرم ـ الجيزة ـ جمهورية مصر العربية

ashawahin7@gmail.com

حقوق الطبع محفوظة لدى المؤلف

هذه الرواية..

الرواية وثيقة لمرحلة من حياة وتاريخ اليمنيين؛

وليست من نسج الخيال إلا فيما يحاكي الواقع تماماً..

أرواح أبطالها حقيقية عاشت الأحداث جنبًا إلى

جنب مـــع شخوصهـــا..

إهـــداء..

إلى وطني..

من خلّقني حبّه ليسري

في عروقي مع دمائي

للأبد ويوم الدين.

لا تكتـب وأنـت تنـزف وجعًـا،

ستلطخ الحروف البريئة بالألم.

(وحيد)

كنت طفلًا قرويًّا يمنيًّا خالصًا وهذا وحده ليس بداية جميلة على الإطلاق، وكنت الخامس في ترتيب المواليد، تقريبًا في المنتصف وهذا ليس جميلًا أيضًا. فالازدحام البشري ظل يلاحقني فترة طويلة من الزمن في البيت مع إخوتي ونسائهم وأطفالهم، وفي المدرسة مع تسعين طالبًا في الصف؛ وفي الطامحين إلى الأفضل مع الكثير من الانتهازيين والأغبياء، الحقيقة لم يخف الزحام إلا حين أصبحت أكثر تفردًا بما أفكر فيه، حين أصبحت لي أحلام بعيدة أسعى إلى تحقيقها، وأفكار كثيرة لا تعجب الآخرين، كنت في طريقي لأن أكون وحيدًا اسمًا على مسمى.. لا أدري أحيانًا كيف أشعر بالوحدة ولدي عائلة بل عائلات كحلقات مترابطة حولي.

لدي أم أهاتفها كل يوم كي تبارك خطواتي التي أخطوها بعيدًا عن عينيها الدامعة بسبب تفرقنا في مدينتين مختلفتين.

لديّ زوجة تتقن صنع الانشغال والمهام من لا شيء ربما لأنها معلمة تسرف في وضع الواجبات المنزلية؛ إنها قريبتي فلا عجب أنها

تعرف كل قصص طفولتي وشبابي المبكر وتظل طوال حياتنا تذكرني بها كشواهد إدانة على نزقي وتمردي الأصيل؛ لذا أنصح بالزواج من أماكن بعيدة أو من فتيات لم يسبق بينكم وبينهن أية معرفة أو علاقة أسرية، حتى يمكنكم صنع شخصيات جيدة ومبهرة لحياة جديدة تقبلون عليها.

تزوجت «سميرة»؛ لأنها أعجبت أمي كثيرًا، وكنت بدوري بحاجة إلى امرأة.. أية امرأة! كنت في ذلك العمر الذي يتركز العقل فيه في منطقة لا علاقة لها بالرأس.

زوجتي العزيزة استطاعت إنجاب أربعة أطفال مني دون أن أنوي ذلك، أقصد الإنجاب، ومع ذلك أصبحت أبًا لأربعة أطفال رائعين جدًا. وهذا ليس السر في كونها رائعة. الروعة تكمن في قدرتها العقلية على تحليل الأمور والتصديق والتطبيق، كان هذا جزءًا كبيرًا من ذلك التيار المعاكس الذي روضته خلال عمري القصير.

كما أن لديّ أيضًا عملًا يجب أن أذهب إليه كل يوم وكل من فيه عائلتي أيضًا. حقًا هذا العمل قلقي الدائم ومسببًا للبواسير وقرحة القولون. لكنه أيضًا محور سعادتي، أنا ذلك الشخص الذي ينظر إليه مجتمعنا البدائي كشخص بلا عمل، أنا المتسول المقنع وبائع الكلام في نظرهم، وناقل الأخبار الكاذبة بمقابل تافه وأحيانًا برأسه حين يطير برصاصة إذا تكلم فيما لا ينبغي أو عارض سلطة جائرة..

نعم أنا كاتب صحفي وأدير شركة توزيع لكثير من الصحف والمجلات والكتب في وطن يستخدم الورق لمسح زجاج السيارات،

وأحيانًا تُلف به سندوتشات الفول لطلبة المدارس، الصحيفة المحظوظة تلك التي تستخدمها ربة البيت كسفرة للأكل فقد ينظر إليها أحدهم صدفة أثناء تناول الأكل.

بداياتنا الصحفية مخزية ومحزنة فعلًا، ويبدو أنها ستمر في أحرج أوقاتها مع هذا الاجتياح الغاشم والغبي لصنعاء من قبل جماعة مسلحة كما يظهر في بداياتها الآن. ومع هذا فقد حاولت أن أكون صحفيًّا شريفًا يهتم بإنسان هذا الوطن رغم أنه عدو نفسه.

لأنني من مدينة «إب» التي لم يكن بها سوى كلية التربية لم أتخرج من كلية الإعلام أو الصحافة لكن العمل الصحفي يسري في دمي كالحبر في القلم.

معظم خريجي مدينتي آنذاك أصبحوا معلمين رغمًا عن أنوفهم، كل شاب كان له طموح ما فحاصرتنا كلية واحدة، إلا من استطاع السفر إلى العاصمة صنعاء وهذا ما فعلته بعد تخرجي كمدرس لم يحمل الطباشير يومًا. كان هذا فيما مضى على أية حال. الآن أصبح هناك خيارات ممكنة وإن كانت قليلة، إلا أنها ما زالت صعبة على الكثير من الشباب المحبط بسبب وضع البلد السيئ الذي يزداد سوءًا.

هذه هي نظرة العامة إلى الصحفي! لكنه حلمي منذ كنت يافعًا. أن أصبح إعلاميًّا صاحب رأي وكاتب يهدّ بكلماته عروش الظلم ويقيم عروش الحق، هكذا كانت فكرتي الأفلاطونية حول مهنتي!!

ثم أصبحت أراها وسيلة الدخل التي لا أريد ولا أحسن سواها،

ولعل الفرق بيني وبين أخي الأكبر سنًا أنه يأكل من تعرق جبينه في أشغال بدنية شاقة كعامل بناء للمنازل؛ وكنت آكل من تعرق ذهني وأعصابي كعامل بناء لهذا المجتمع هكذا أرى الصورة. كلانا له أعمال شاقة قد تسبب تصلب شرايين القلب أو انفجار أخرى في الرأس وأخيرًا ربما القتل في ضل هكذا وضع للبلاد.

كنت أسير نحو ما أريد على عجلة مني كأن الوقت سيدركني ولم أنته مما أحلم به، شعور ما كان يخالجني أنني لن أكمل ما بدأته وإن كنت وصلت في نظر آخرين لشيء لم يتمكنوا من تحقيقه في فترة عمر وجيزة.

إنشاء شركة تحتكر توزيع أكثر المطبوعات المؤثرة في الساحة شيء عظيم لفتى قادم من بيئة منسحقة وريفية، وصنع اسم صحفي محترم في الأوساط الثقافية والشعبية هدف أجمل لكنها لم تكن كل أحلامي.. لا.. لا سقف لأحلامي أبدًا، أنا فقط من كنت أعرف حجم أحلامي، وأنا فقط من أعرف أنني لن أكملها، رغم هذا الشعور الذي يجعلني أتخبط أحيانًا في حيرتي إلا أنني كنت أسير برفقة عناية إلهية عجيبة.

*****

ها هو الصباح أتى..

صديقي الأفضل فكل شيء جميل يحدث في الصباح، في الصباح يكون يومًا جديدًا وأنا أعشق الجدة في كل شيء؛ لهذا أحرص أن أكون شخصًا جديدًا ليوم جديد مهما عكر صفوي الأمس، في الصباح أغادر بيتي دون سؤال زوجتي الملتصق بفمها منذ أول يوم تقدمت لخطبتها:

أين ستذهب؟

ذلك لأنها تعرف أني ذاهب إلى العمل الذي هو مصدر المال سر سعادتها، وسعادتها تخفف عني كثيرًا من تعاستي، مؤخرًا أصبح كلامها لي كل صباح: انتبه لنفسك أصبحت صنعاء غير آمنة.

الصباح لا تدركه سوى العصافير لذا تكون أول من يستقبله على رفوف الشجر، وقلبي عصفور أخضر يعشق التحليق إلى الشمس.

كان عليّ المرور على منزل الراحل «بكر» كي أتفقد عائلته كما عودتها كل شهر منذ رحيله المفاجئ والصادم عقب سقوطه من سطح أحد المباني أثناء عمله. «بكر » عامل بسيط تعاملت معه كثيرًا في أعمال صيانة أحتاجها منه؛ ترك بعد موته عائلة كبيرة تفتقد من يعيلها أو يهتم بها.

طرقت باب الحوش المصنوع من الزنك الرنان فأسرعت فتاة صغيرة تلوح قامتها من شقوق الزنك، أمسكت بمصراع الباب جيدًا كي لا تقذفه الريح إلى الوراء وأرسلت صوتها إلى الداخل: جدتي.. الرجل صاحب الابتسامة هنا.. يطلبك.

راق لي اللقب كثيرًا؛ صاحب الابتسامة كما تراني طفلة أحاول زرع ابتسامة في قلبها، من الجيد أنها لا تلمح الألم في خلف هذه الابتسامة.

تهادت والدة بكر في مشيتها سيدة سبعينية غارت عيناها بكاء لكثرة الراحلين قبلها ممن تحبهم، قالت لي مرة في زيارة لها: أتدري ما الموت يا ولدي يا وحيد؟ إنه الفقد؛ أن تفقد كل مرة حبيبًا وتدفنه ثم تعود دونه ولا حيلة لك بإعادته أو نسيانه.

سبق أن فقدت زوجها وهي شابة بعد أن تركها تعتني بستة أطفال

قصر، ذهب إلى غربة بعيدة ليموت هناك، ثم توالى الفقد عليها تباعًا، تركها الموت حتى تلك السن المتأخرة كي تكون شاهدًا على قسوته وجبروته في قنص كل من تحب وآخرهم ولدها البكر تحدثت مع والدة «بكر» قليلًا كعادتي قبل أن أعطيها ما تتفضل هي بقبوله لإسعادي، كنت أشتري سعادتي منهم مدين لهم بها.

وأنا في طريقي تمنيت ألا يصادفني طفل من أولئك الذين ملأوا صنعاء فجأة، يحملون أسلحة تفوق قاماتهم طولًا، سيعكر جمال الصباح بحاله المحزن وهو يفتش عن شيء لن تراه نظرته القاصرة. هؤلاء الأطفال البؤساء ما ذنبهم كي تُحشى عقولهم بكل تلك الأباطيل ويدفعون إلى الموت دفعًا باسم الجهاد المقدس ضد الجرعة السعرية للوقود. لقد نكبت البلاد بزعيم هؤلاء الأطفال، لكن نكبة اليمن الحقيقية كانت في رئيس الدولة الضعيف الذي أصبح تحت إقامة جبرية كدمية تحركها أكثر من جهة.

تمنيت السير على قدمي، لكن المسافة إلى مقر عملي هائلة لشخص يرغب أن يصل مكتبه في كامل هندامه ومازالت رائحة العطر تملأ أعطافه.

مع هذا لا أنكر متعتي في قيادة السيارة، إنها تكمل شخصية الرجل المسيطر في رأيي، كانت ضمن أحلامي المجدولة في قائمة طويلة، وما زلت مستمتعًا بوجودها رغم ترديد الأصدقاء مقولتهم أنني أملك أسطولًا من السيارات من أجل تسيير العمل، ورغم أن وقودها يستنزف ما تصرفه عائلة كاملة من غذاء طوال شهر كامل في موجة غلاء متصاعدة؛ أن تملك أسطولًا من السيارات فأنت مغامر

بمالك ليس إلا فمن سيقودها لست أنت في كل حال، بل أشخاص قد لا يبالون بسلامتها رغم أنهم في داخلها.

أعترف أني أجد متعة في العطاء لا تضاهيها متعة سوى الحصول على الشيء واقتنائه،

أجد سعادة في إسعاد من لا يتوقعون هذه السعادة بالذات، سعادة الحصول على سيارة تحسب في خانة الرفاهية قبل أن يجتاحنا طوفان المليشيا. الآن أصبح الحصول على الضرورات رفاهية وتوفير الغذاء من أكبر السعادات.

ألم أقل لكم إن الأمور تزداد سوءًا وكأننا قبل أربع سنوات فقط لم نخرج في ثورة نلتحف السماء ونفترش الطرقات نحلم بشيء أفضل، ومستقبل أجمل، فكيف تسارعت أحداثنا إلى الأسواء بطريقة تراجيدية كأنه فيلم من تلك التي لا أحب مشاهدتها؟

هنيئًا لشهداء ١١ فبراير فقد تحرروا من أغلال هذا الوضع ومن إدانة الثورة التي فتحت أبواب الجحيم والانتقام.

أحاول في كثير من الأحيان تذكر من أين بدأ الخطأ فيعجز ذهني عن معرفة كيف حدث؟ لقد كنا نسير وفق مشيئة أقوى منا.

إعصار الربيع العربي أتى في غير موعده؛ ربما لم نكن تلك الشعوب التي تستحق التغيير أو تتقبله كلها كجسد واحد. لقد كان البعض منا يقوم بثورة مضادة ضد البعض الآخر بنفس الحماسة في التضحية ومع الكثير من الشعارات الزائفة.

ورغم أن أي كارثة حلت بكل بلد عربي تختلف عن البلد الآخر،

إلا أن الأيدي الخفية هي نفسها والمحرك هو ذاته.

كل شيء ينهار هنا؛ حتى علاقات الناس ببعضهم البعض حملت الشقاق كله والكراهية المتبادلة. الأحداث الأخيرة أظهرت الوجه القبيح لمجتمع تماسكه هش ومفتعل. أصبحت القيمة الحقيقية لكونك إنسانًا لا معنى لها في المجتمعات العربية، أنت فقط تمثل عرقك أو حزبك أو طائفتك؛ كل هذا العفن كان مختبئًا خلف الوقت فقط.

هكذا هي الشعوب التي لا تُربى على احترام إنسانيتها تندفع كالحيوانات لافتراس بعضها. نحن الآن في أوائل «٢٠١٥» لكن يبدو لي وكأننا نعود إلى الوراء بسرعة أكبر من تقدمنا السابق إلى الأمام؛ هذا ما أشعر به ويشعر به كل يمني تحصل على الوعي من تجارب الشعوب.

في الطريق إلى مقر شركة التوزيع والإعلام التي أنشأتها بكفاح مرير وإحباطات أمرّ والتي صارت عرضة للانتهاك بعد وصول جحافلهم إلى العاصمة صنعاء ومصادرتهم لحقوق الناس بحرية التعبير، ما يحدث من إغلاق القنوات التليفزيونية وبعض الصحف الرافضة لوجودهم وحجب المواقع جعلنا ننتظر الدور فقط كشركة إعلامية تقوم بتوزيع الصحف والمجلات. وأنا في طريقي أحاول أن أقنع نفسي أنها زوبعة وسترحل..

لكني أظن أنها ستعصف بكل شيء وستمتد إلى البعيد.

****

وصلت مبنى الشركة.

هذا اليوم هو أكثر أيام الأسبوع ازدحامًا بالعمل، أصبح توثيق الأخبار التي يتناقلها الناس عن آخر الاعتقالات أو تفجيرات منازل الخصوم أو نهب بيوتهم، والبحث عن تصريحات من مصادر موثوقة أو خبر من وراء الكواليس، إشارة لشيء ما يلوح في الأفق، تسريب من إحدى الشخصيات أو تحليل شخص يفهم بواطن الأمور..

هذه الملاحقات الصحفية بالإضافة لإدارة شركة التوزيع هي ما أفعله طوال يومي.

لكنني كنت أحلم بصنع شيء آخر لهذا الإنسان الذي تنهكه توالي الأخبار والأحداث..

كنت أجهد كي تصل أصوات الناس المخنوقة لمن يرفض سماعها، كنت أتمنى طوال عمري الصحفي خلال عشر سنوات أن يقف المظلوم في وجه الظالم ليطالب بحقه جهرًا ويدعمه الرأي العام في طلبه. كنت أحلم أن يظهر هذا الصوت الذي يضيع بين أصوات الباطل والظلم والسرقة والنفوذ.. كنت...!

أما الآن أصبحنا نلهث خلف حقيقة تطمئن إنسان هذا الوطن المنكوب، أو تحذره مما ينتظره من دمار لو أنه انجر خلف شعارات زائفة تطلق لنصرته وهي تسوقه إلى الموت.

حين وصلت مقر الشركة كان الحارس أول شخص صادفته، «رائد» من « ريمة » المدينة المنسية ومع ذلك وجدته يتغنى بها بصوت ملؤه الحنين، لعله يحن لمن هم هناك أكثر من أي شيء آخر، زوجة

حديث الزواج بها فالوطن يمثل لنا من نحب دائمًا:

ـ صباح الخير يا رائد.. هل حضر أحد؟

نهض من مكانه على عجل وهو يفتح الأبواب أمامي:

ـ لا يا أستاذ وحيد.. أنت أول الواصلين.

ـ لا بأس.. اشتري ما يكفي لإفطار الجميع ولا تنسى براد الشاي الخاص بي.

ـ أمرك أستاذ.. لحظات حتى يصل أحدهم ليفتح البوابة للآخرين ثم أذهب.

أحب البقاء كثيرًا في المجلس العربي الذي حرصت على وجوده كركن مهم في مؤسستي، فيه نعقد جلسات القات والنقاشات والصفقات، لكنني ذلك الصباح دخلت حجرة مكتبي بشوق عجيب!، أتأمل كل قطعة أثاث انتقيتها بنفسي بعناية كأني أنتقي صديقًا للعمر، يحفظ أسراري وزلاتي الصغيرة، لعلي من ذلك النوع الغريب الذي يرتبط بأشيائه بعلاقة حميمية فيفرح لنظافتها ورونقها ويحزن كثيرًا لقدمها واهترائها أو فقدها. كل قطعة أثاث هنا لها ذكرى جميلة مع حَدَثٍ صاحبها أو رفيق اشتريتها بصحبته، مجلس القات العربي اشتريته بصحبة «فخري».. قبل أن يفطر قلبي برحيله المفاجئ، ذلك الرجل كان له أقوى تأثير عليّ في كل حياتي، لقد كان رفيق الشاب القروي الذي كنته وكان مرشدي الذي لم يخذلني أبدًا.

توأم الروح الذي ذهب بذهابه شيء من هذه الروح، كان تعارفنا

عاديًا في مقيل قات كثير ما يلتقي فيه الغرباء، «فخري» اليساري الشريف في زمن التوجهات المختلطة بالمصالح، كان حديثه في ذلك المقيل آسرًا لشاب في مقتبل العمر جلبته روح المغامرة إلى مدينة كبيرة يضيع فيها من يحملون وجهًا واحدًا ويعتقدون أنهم على صواب حين يحلمون. يومها تشربت حديثه عن الحقوق والحريات، وناقشته أكثر في كل ما قال وأظنني تركت في نفسه ذلك الأثر الذي تركه فيّ لذا لم يكن عجيبًا أن نخرج معًا لشرب الشاي بالحليب في أحد أزقة صنعاء القديمة بعد جلسة مقيل طويلة النقاش والحديث، ولم نفترق بعدها في رأي أو مكان حتى سافر تلك السفرة التي افترقنا بسببها بين شخص مات في حادث سير وشخص يسير في حادث حياة.

وأنا أتذكر غيرة زوجتي من أشيائي ومن اهتمامي بأثاث مكتبي ينتابني الضحك لتفكيري أنني قد أتزوج عفراء يومًا ما. زوجتي العزيزة تغار من كل شيء يحصل على أهم حقوقها: اهتمامي ومالي. لم تكن لتدرك ذلك الرباط الروحي بيني وبين جهاز اللابتوب مثلًا، فكيف ستفهم ماذا يعني لي هذا المكان بكل ما فيه؟

من هذا المكان أرتب أحلامي وأحققها ومن هنا أنظم شئون كوني الخاص، وهنا أتلقى أيضًا إحباطات كثيرة وصدمات عديدة، وهنا كونت صداقات خالدة، وهنا أيضًا التقيت عفراء ذات صباح أشرق بها مكتبي حين أتت من أجل توزيع رواية لها بواسطة شركة التوزيع خاصتي. عفراء.. امرأة ليست ككل النساء التي يلتقي بهن المرء..

أحيانًا نقابل شخصًا ما لغرض عابر ونظن أننا سنلتقيه وتنتهي

القصة لكني في لقائي بها بدأت القصة التي لم تنته. قصتي الخاصة والتي عايشتها بكامل حقي في الوهم.

عفراء.. مثل كل شيء أسعى إليه لمتعة الكفاح، وأخشى ألا أحققه.

امرأة حالمة من جنوب الوطن، مطلقة وأنا لا أعاني مشكلة نحو النساء المطلقات فربما كن ضحية لتجربة فاشلة لسن السبب في فشلها. امرأة عدنية مشمسة ودافئة حين تأتي هنا لزيارة صنعاء يغادر صنعاء الصقيع وتعود هي محملة بحكايات الشمال البارد لتطرزها بكلماتها العذبة. في نقاشي معها ذلك اليوم اكتشفت نوعًا مختلفًا من النساء، تجمع كل فصول العام، فيها برودة الكبرياء وحرارة الصدق وعصف الكلمات والطباع النارية، امرأة يشدك تناقضها البريء كطفلة تتعلم المكر بذكاء متعثر.

ربما.. وربما هي سهام الحب التي فقأت عيني وأفسدت الرؤية، لكنها رحلت ذلك اليوم وأنا أرجوها تكرار الزيارة وأن تشرّف مكتبي وشركتي بأعمالها.

أصبح للقاءتنا الثقافية بعدها ألق لا يشبهه إلا زيارة الجنة ورؤية جزاء الصابرين فيها، كانت تدنو كأجمل وصف لروح أنثى وتنأى فتسلب روحي بابتعادها، صارت الآن بعيدة فزادتني ببعدها خواء ووحدة، عادت إلى مدينتها بعد اجتياح المليشيا للعاصمة صنعاء قالت لي مودعة: صنعاء لم تعد تُحتمل أصبحت أكثر صقيعًا ووحشة.

أتواصل معها عبر الرسائل كل يوم، ربما نلتقي يومًا ما في وطن أفضل ليس فيه شطران أو قضيتان، بل وطن واحد وقضية مقدسة واحدة.

علا الضجيج في أروقة المكاتب عندما اجتمع الشباب وبدأوا في تناول الإفطار في حماسة وهم يتبادلون آخر النكات السياسية.

نحن شعب عظيم في النكتة السياسية، بل شعب خارق في هذا المجال يمكن لهذا الشعب أن يطلق عشرات النكات حول مسألة مصيرية تواجهه حتى ينسى تمامًا خطورة هذه المسألة على أمنه واستقراره.

لتاريخ النكتة السياسية مذاقه الخاص في اليمن، إنها طازجة أكثر مما يتصوره العقل، تتكاثر النكات وتظهر بظهور الحدث وكأنها أعدت قبل حدوثه أو تسابقه في الظهور.

****

صنعاء الحافلة بالضجيج أصبحت تخشى الظلام الذي يزحف على قلبها، لم يعد ليل صنعاء ممتعًا ومختلفًا عن ليالي مدينتي الصغيرة إب، عشقت صنعاء لرؤية الحياة فيها ليلًا ونهارًا، لكنها الآن تدعي النوم باكرًا كي لا ترى الظلام في مساءاتها المقمرة.

تعود الناس على اختفاء الكهرباء من حياتهم باستسلام العاجز عن فهم لماذا يحدث هذا؟ أصبحت معاناة الشعب أسطورية كصموده، يتكيف مع مستجدات الحال بشكل يحسد عليه، فمن السخف أن

تشكو انعدام أساسيات الحياة كالكهرباء والوقود في بلد يتم فيه فصل الأرواح عن الأجساد ببساطة إطفائك زر كهربائي.

عادت النساء إلى الحطب كوقود لإعداد الطعام، وعاد الجميع لسيقانهم كأفضل شيء للسير إلى أماكن أعمالهم ومدارسهم وممارسة حياتهم التي اختلت كثيرًا.

لا شيء يوحي لك بأن هناك شيئًا تغير في شوارعنا سوى نقاط التفتيش المتناثرة في كل زقاق وركن. نقاط أمن تشعرك بالقلق وعدم الأمان بحجة الحفاظ على سلامتك، كانت النساء أكثر خوفًا من نقاط التفتيش التي انتشرت لتتصيد الرجال، يتندر الناس أنها جعلت لهم وليست عليهم، ولكنها قد تنتهك حريتهم أو تقتل بعضهم صدفة، أو تهين أعراضهم للتأكد والحماية ليس إلا.

لكن المؤلم أن من يقف فيها هم أطفال شعث يعتنقون أسلحة رشاشة في مقاسات أطوالهم ويعتقدون فعلًا بأنهم يحفظون الأمن ومصرون على تفتيش الجميع باحترام أحيانًا وبغلظة أحيانًا كثيرة. هم أيضًا أكثر الضحايا ومن يسقطون كالزهور من أجل العجائز خلف الكواليس.

لا يوجد في اليمن ما يسمى بالطفولة منذ زمن طويل، كثيرًا ما انتهكت الطفولة في أعمال شاقة أو معاملة قاسية أو زواج مبكر للطرفين أحيانًا، لكنهم في زمن المليشيات اقتيدوا إلى الموت في أبشع صورة، أصبحوا وقودًا لما يحدث كأغصان صغيرة يابسة من الجوع والفقر والجهل تم إحراقهم من أجل دخول الجنة أو الحصول على

مبالغ تافهة واعتمادهم كجنود في جيش الأطماع الكثيرة.

تسارع الأحداث يجعلني عاجزًا عن التقاط أنفاسي، يبدو أنها مسرحية سريعة الإيقاع عنيفة الحركة لا تشبه الأفلام القديمة البطيئة الصامتة. ضجيجها يحرمك أن تفكر مع نفسك ماذا جرى قبل أيام.

المظاهرات الشعبية الرافضة للانقلاب تجوب شوارع المدن الكبرى وسقوط قتلى هنا وهناك، ومداهمات ليلة يفضحها النهار وعمليات تفجير انتحارية وعبوات ناسفة لم نتخيل حدوثها في مساجدنا أو جامعاتنا يذهب فيها الأبرياء دائمًا ويبقى المخططون للتباكي وحصد المكاسب الدموية.

هروب رئيس الدولة المثير الذي تناقله الناس كأحد أفلام الخيال وصعود مجلس ثوري انقلابي للحكم. ربما لا يختلف أحدهما عن الآخر إلا بشرعية الوصول، سيل الاحتجاج الساخر في الصحف والمواقع والذي أغلق الكثير منها بسبب مواقفها الرافضة للانقلاب على رئيس منتخب، كل هذا يدفعني للاستمرار في الكتابة والتأكيد على أن القادم أسوأ، فيما أنتظر دوري في التعسف الظالم.

أصبحت الانتهاكات تفيض من صحفنا شكوى ونواح لتحترق بعد ذلك بما فيها من أقلام وشواهد. تراكم الألم في قلبي لاعتقال الكثير من زملاء المهنة، وتعذيب العديد منهم حتى الموت. انتهاكات هذه المليشيات الانقلابية ضد الصحافة والصحفيين لم يسبق لها مثيل في تاريخ العرب المنتهكون أساسًا، هؤلاء يكرهون القلم وكاميرا التصوير وكأنه سلاح مصوب إلى قبضاتهم وعقولهم.

أصبح التنقل أمرًا عسيرًا وأنت تفكر أنك ستصبح هدفًا لهمجية لا تفرق بين الصواب والخطأ.. هل وصلنا عمق النفق أم أننا في البداية حتى الآن كل شيء مختلط!

****

مدن البلاد تتساقط أمام زحف المليشيا كأغصان يابسة لا يربطها بشجرة الحكم سوى وهم الالتصاق، لا شك أن سقوطها أمر معد له بدقة لتتوالى كثمار ناضجة في حجر الكهنوت القديم الذي ارتدى حلة جديدة من الشعارات الزائفة.

حين وصل الطوفان مدينتي إب أدركتُ أن هذه المدينة الخاملة التي تعيش خارج الزمن ستكون ثمرة فاسدة بمن فيها من مشائح البيع والشراء. لقد سقطت بزفة شهيرة جعلتها مثار تندر أهالي المدن كلها، كان سقوطها حفلًا راقصًا على أشلاء حلم الكرامة.

خرج أعيان المدينة من رجالات النظام السابق لاستقبال الطغاة القدامى الجُدد بضرب الطبول ورقصة «البرع «على مشارف المدينة بعد أن اصطدم بهم الأحرار في مواجهة رصاص دامية خارج المدينة لتخمد تلك الانتفاضة تحت أنياب السلام.

لا عجب إن غادرها الشرفاء من أبنائها يناضلون لاستعادة الكرامة المفقودة في جبهات قتال خارج المدينة التي أصبحت مدينة الاستسلام! كانوا هناك في مأرب وفي تعز وفي مريس» ينشدون الحرية. أصبح الخوف من سقوط الأبرياء دافعًا شريفًا للهروب من موقف

مشرف. هذا الموقف المشرف هو الذي أدمى تعز كثيرًا حتى كرهنا الشرف المخضب بالدماء.

تعز تلك المدينة الحالمة التي تعانق جبل صبر والتي أطُلق عليها في غابر الأيام لقب عاصمة الثقافة، كانت مضرب المثل في تمدن أهاليها وتركهم حمل السلاح. صارت مسرحًا للموت من أجل قرار مشرف بالمقاومة؛ ورفض اقتحام المليشيا للمدينة وفرض سلطتها من خلال مندوبيها في كل مرافق الدولة. كان قرار المقاومة في حال لا يعني سوى الموت تحت إشراف دولي ليس إلا. قصص الموت التي تتناقلها مواقع التواصل الاجتماعي تجعلك تقف مشدوهًا أمام حيوانية الإنسان حين يعلن الحرب على الحياة. يمكنني أن أتحمل قصصًا موجعة عن الموت قتلًا في ميادين المعارك، لكنني لا أحتمل قصص القتل جوعًا وحاجة؛ قصص العجز وذل السؤال.

في مدينة محاصرة لن يكون هناك سوى الموت جوعًا وعطشًا أو الموت قتلًا.

استمر القصف والقنص على المدينة المقاومة من قلعة القاهرة التاريخية وسقط الضحايا من الأبرياء الآمنين وهم في بيوتهم وشوارعهم وارتقت أرواحهم ربما غير مصدقة أن هذا يحدث فعلًا.

مازال مشهد تلك الفتاة التي أخذت القذيفة نصفها الأسفل كله تتراءى في مخيلتي، أولئك الأطفال الصغار الذين تمزقهم القذائف يذهل قلبي لرحيلهم المؤلم وحزن أهاليهم وعجزهم عن الهروب بهم إلى حياة بلا حرب أو أحقاد.

النزوح المهول الذي حدث في هذه المدينة الوادعة أربك المدينة الأقرب لها، لقد تدفقت عشرات العائلات من تعز هروبًا من حقد يتدفق بقوة أكبر من شمال الشمال.

ماذا سيحدث بعد هذا الخراب لشعب اكتشف متأخرًا أن لا جيش له أو أن جيشه مملوك لأسرة حكمته عقودًا ولن تترك الشعب بسهولة بعد أن تنكر لفسادها.

ولاح طوق النجاة في ذلك القرار الذي جمع العرب لأول مرة كلهم على كلمة واحدة، قرار اتخذته دول الجوار بعد هروب الرئيس مرة ثانية إنما إلى الرياض بعد قصف قصره الرئاسي في عدن بمنطقة «المعاشيق «حين لجأ إلى الخارج كي ينقذ البلد التي لم يحافظ عليها وهو في الداخل. كان قرارًا مفاجئًا أربك المشهد كله.

أكثر من عشر دول وعتاد حربي وغطاء جوي هدفه إعادة الشرعية إلى الرئيس الهارب وإنهاء هذا الانقلاب الغاشم، وإيصال رسالة باذخة القوة لمن يقف خلف هذا الانقلاب من دول تسعى لتمديد نفوذها للعمق العربي.

ذلك الصباح المدوي استيقظ من كان نائمًا خارج العاصمة على خبر قصف قوات التحالف على مواقع المليشيا في صنعاء، لم أكن نائمًا حينها حتى أستيقظ أو أنتظر صوتًا لم أعرفه من قبل كي يوقظني لقد كانت أصواتًا مروعة ومباغتة جعلت أهالي صنعاء ينسون جميل أيامهم لفترة زمنية طويلة.

لأول مرة تشهد هذه المدينة ولاحقًا كل اليمن قصفًا جويًّا؛ كان الرعب المسيطر على الناس مروعًا وإن خالجته فرحة قلقة أن كابوس المليشيا تحصّل على صفعة مدويّة هزت صلفه وجبروته.

خلال ستة حروب خاضها النظام السابق ضد هذه الجماعة في مدينة صعدة التي احتضنت المليشيا كان هناك تعتيم للأخبار فلم يعرف حجم خطر هذه الجماعة أو غاياتها سوى القليل ولعل من المضحك المبكي أن من هيأ لهذه المليشيا الانتصارات والاجتياح هو ذلك النظام السابق الذي رباها ثم حاربها. نظام الرئيس السابق!!

وحين أقيم الحوار الوطني قبل الاجتياح كانت المحاولة الباهتة لرتق الشرج الذي انتثرت منه هذه الجماعة بكل قبحها. طالبت الجماعة كمكون رسمي باسم أبناء مدينة صعدة بتقديم اعتذار من الدولة كممثلة لمظلومية صعدة خلال الحروب الستة.

يومها هطلت دموع الناشطات والناشطين الحقوقيين تأثرًا من هذا الموقف العاطفي وتسارعت نبضات قلوب الشعب اليمني لشعورهم بقسوة الدولة خلال ستة حروب كان فيها الزعيم يلعب بالبيضة والحجر ليوازن بين قوتين كلتاهما تخيفه..

للأسف كان هذا هو التفكير الغالب أو المسيطر على غالبية الشعب اليمني؛ أن جماعة الحوثيين هم صعدة وأن صعدة هي جماعة الحوثيين!

كثيرون لم يكونوا يعرفون ما هي الحوثية وماذا فعلت خلال اثنتي عشر ة سنة في صعدة.

«تنظيم الشباب المؤمن» والجرائم الفكرية لخطب «حسين الحوثي» الأب الروحي لهذه الجماعة لا تقل بشاعة وانتهاكًا للعقول عن جرائم اغتصاب المزارع والأراضي وقتل كل من يفكر أو حتى يصل بقرابة لمن فكر بمعارضة هذه الجماعة الفاشية.

عزل مدينة صعدة كمستوطنة لنمو سرطان هذه المليشيا لم يكن بمباركة أبنائها كما يخيل إلينا نحن الذين لا نعرف تضاريس قرى ولدنا فيها، أبناء صعدة عانوا كثيرًا فيما نحن بانتظار دورنا.

لقد عاثت هذه الجماعة فسادًا لا يصدق داخل مدينة مطوقة بجهلنا بما يحدث هناك، مطوقة بستة حروب صبت كالحمم على رؤوس الأبرياء والمجرمين على حد سواء. وما حدث بعد تهجير أهالي منطقة «دماج» وتشريدهم وقتلهم ونحن سكوت ما هو إلا بداية العقاب.

الاعتذار المؤثر الذي حدث في الحوار الوطني هو اعتراف بشرعية جماعة مسلحة؛ لا يثير السخرية فقط بل ويستجلب اللعنات على الدولة التي اعتذرت.

الآن على الشعب اليمني كله أن يقدم اعتذارًا لأهالي صعدة وليس لهذه الجماعة.

_ نحن آسفون لأننا تركناكم وحيدين مع هؤلاء القتلة العنصريين! هكذا ينبغي أن يكون الاعتذار» ونحن الآن نقدمه كل يوم ولكنه اعتذار معمد بالدم والخزي كون صعدة تركت كابن تنكر له أهله.

****

ذلك الأسبوع كتبت مقالًا حماسيًّا عن تفاؤلنا الكبير بالأخوة الأشقاء في التحالف الذين يحاولون إنقاذ ما يمكن إنقاذه من هيبة الدولة المسروقة.

بعد توزيع الصحيفة التي كتبت فيها مقالي، حدث ما توقعته تم اقتحام مبنى الشركة خاصتي ومصادرة كل ما تحتويه من مطبوعات معدة للتوزيع وكل ما احتوته من أثاث ومكاتب حتى سلال المهملات بما فيها، كل تلك الأجهزة والأثاث الذي عنى لي الكثير تم نهبه وهو صامت مستسلم. أسطول السيارات الثلاثة الخاصة بالتوزيع تم نهبها.

تم اعتقال موظفيَّن كانا يقومان بالتحصيل في إحدى المكتبات، بعد مماطلتهما وإجراء اتصال هاتفي جاء على أثرة «طقم » تناولهما صفعًا وركلًا واقتيدا إلى قسم شرطة المنطقة. اتصلت بكل من وجدته قادرًا على مساعدتهما، كان إخراجهما بعد أيام من التحقيقات حول تمويل شركة التوزيع وعن مديرها صاحب المقال الخائن العميل وأرقام هواتف من يعملون بها، وكتابة تعهدات خطية بعدم الاقتراب من توزيع الصحف والمطبوعات بكافة أنواعها.

عائلتي أيضًا حصلت على زيارة كانت الأسوأ في نفوسهم، كنتُ حينها مختفيًا عند صديقي» أحمد النويرة « ومعي «شائف» الذي تشرد قبلي فهو من قيادات حزب الإصلاح؛ أصرا ألا أتواجد في منزلي لمعرفتنا أن الزيارة ضرورية للبحث عني، تم نهب كل ما استطاعوا نهبه من منزلي مع سيارتي الخاصة.

أصبح إحضار عائلتي حيث أختبئ بعد وإخلاء سكني وتسليمه

للمستأجر هو أكثر ما يقلقني ويشغل بالي؛ وكعادة أحمد النويرة يقوم بتدبر الأمر بمهل كي لا يلفت أنظار الوشاة وما أكثرهم. نسيت فكرة انهيار عالمي ومصادرة كل ما أملكه مع خوفي على أولادي وزوجتي التي حرصت على تهريب أكبر أولادنا خارج البيت حتى لا يأخذوه لم تخب أملي في تدبيرها الأمر؛ لم يكونوا ليفرقوا بين طفل في الخامسة عشرة بالكاد يترك ألعاب الفيديو من بين يديه وبين مقاتل في الخامسة عشرة من مقاتليهم بالكاد يحمل السلاح بثبات.

كانت أيام ترقب وقلق لكن الندم لم يتخللها، شعرت أني قمت بواجبي كإنسان قال رأيه على الملأ بصراحة وإن أجبرته الأيام أن يدرك أن ما حك جلدك غير ظفرك، وأن الطائرات التي تلهو في السماء بقذف الصواريخ لا يعنيها كثيرًا ما يحدث على الأرض.

****

الرفاق يتسربون من الوطن كما تسرب أسلافهم حين عبث الفأر بسد مأرب العظيم.

يتركونه ليتحدثوا باسمه دون أن يعايشوا ألمه؛ لتنجوا أوطانهم الصغيرة هربوا بعيدًا عن قوة غاشمة تدك في طريقها شعورنا بالوطن وبكل ما حاولنا صنعه، إن بقوا سيكونون كمن قذف نفسه في حمم الهلاك، لقد تفرق شمل الكثيرين.

هناك من بقي منهم في مأرب المعقل الأقوى لشرعية الدولة وهناك من غادر البلاد إلى أكثر من دولة. أصبحتُ أعدد الراحلين

منهم وكأننا لن نلتقي يومًا، آلمني رحيل رفيقي» شائف» إلى المملكة مع أفواج المغادرين، لا أدري كيف ستطيب لي الحياة دون رفقته وقد كان يجمعنا النقاش في كل مقيل قات، مكانه في مجلس أحمد النويرة يبدو متسع الفراغ بعد أن كان يملؤه بأحاديث الصبر على الابتلاءات واحتساب الأجر عند الله، كلماته عن تدافع الأمم لحكمة من خالقها، وعن فرعون الذي يتكرر في كل عصر وزمان وكيف أن مصيره البائس ينتظره مهما تجبر وأفسد في الأرض.

لا أنسى صراخه في وجهي بأن أترك السجائر فالهموم كفيلة بتدمير هذا الصدر.

«صدقت يا شائف الهموم تكفلت بملء صدري بسحائب الحرائق والهموم والفقد»

حاول شائف كثيرًا إقناعي بالسفر مع عائلتي كما فعل هو، لكني لا أستطيع أن أترك خلفي هذا الوطن الذي يتشبث بي كأني قطعة خشب وهو يغرق، ولأني قطعة خشب لا أستطيع أن أحمل سلاحًا لأقاتل حتى سلاح كلماتي لم يعد يعني في وطني سوى مزيد من الضجيج.

في المنزل المؤقت الذي ضم عائلتي وجهاز اللابتوب الخاص بي، أقضي كل وقتي في التأمل والتفكير وكتابة مقالات قد لا تفيد الوطن في شيء..

رسائل عفراء تزيد جراحي التهابًا وهي تصف لي ما يحدث في مدينتها الموجوعة من جرائم الحرب، عفراء التي تركت صنعاء هروبًا

من وحشتها بعد دخولهم ليدركها المتوحشون هناك، ينالون من وجه الوطن المشرق خرابًا وتدميرًا وقتلًا وتشريدًا.

منطقة «كريتر» التي تسكن فيها عفراء تعرضت لأبشع عملية تدمير ممنهجة بحقد عجيب ضد كل ما يمت لحضارة الإنسان، تلك المدينة التي عاش فيها اليهود والنصارى يومًا وعمروها دمرها برابرة الشمال، وكأن اليهود مازالوا يقطنونها.

أحرقت مكاتبها ونهب متحفها الكبير ثم أحرق مبناه واعتلى القناصون جبالها لقتل كل حياة تفكر في الاستمرار في العيش، فتحت هاتفي لتطالعني رسالتها العابقة بالحزن:

(عزيزي وحيد سأضطر إلى النزوح عبر البحر فلم يعد يسكن مدينتي سوى الموت والدمار، إنهم يقتلون الحياة هنا ويحاصرونها حتى تتمنى الموت، لقد نزح الكثير من سكان عدن والضالع إلى إب وهرب الكثير عبر البحر، ومن تبقى سيحاصر حتى الموت، سأرحل وحين تعود مدينتي سأعود، أرجوك أن تحاول اللحاق بي يا وحيد؛ حاول أن تخرج بعائلتك كلها؛ إنهم تتار هذا العصر ولن يتركوا مكانًا آمنًا)

فجأة أصبح قلبي عجوزًا طاعنًا في الألم؛ يائسًا من كل شيء. يعشق التأمل والصمت بعد عمر قصير من الجنون والنزق، لقد عركته الصدمات وقذفته في أغوار سحيقة من الشعور؛ يمتن لمن صنعوا الجمال في حياته ثم رحلوا.. ويشعر بالقرف الكبير نحو من أفسدوا الحياة بوجودهم دائما خارج أسواره وخارج أسوار الإنسانية.

كنت أقاوم بطريقتي الوحيدة التي أجيدها؛ فأنا شاهد عاش مرارة الأحداث وهي تزداد سواء من حولنا، شاهد بروحه وقلبه وقلمه، عاش أحداث غيره ونسي نفسه مرات كثيرة كي يعيش. هذه هي الحقبة الزمنية التي لم يعد فيها البشر من يسيطرون، لقد انفجر الورم الذي كنا نحلم بإزالته، وأصبح يلطخنا بحممه شمالًا وجنوبًا، وفي طوفان القذارة ذهبت عقول كثيرة كنا نعتقد رجاحتها.

يجب أن تصل أصواتنا المخنوقة إلى العالم الخارجي، يجب أن يعلموا بوجود الكائن اليمني المعذب بما اقترف جلادوه بحقه طوال سنوات من الجهل والتجهيل والتعتيم.

****

عفراء.. ما زالت تسألني في رسائلها: كيف حالك؟

فبماذا أجيبها كي تعلم أن حالي يشبه حال وطني كثيرًا. أنا مغتصب وقتيل ومشرد..

أنا من يجب أن يكتب عن الحرب أكثر من الحب، ويصف الجوع أكثر من الشبع، ويبكي حمرة الدم بدلًا من التغني بحمرة الورد، أنا من يدفن الرفاق أو يودعهم إلى الشتات، ليبقى محاصرًا بالموت كشاهد قبر لمقبرة الوطن.. ماذا أخبرها عني أنا عاشق حرمته الحرب رائحة الحب؟

هل أخبرها أني أجد العزاء في اختلاس خيالها كلما عانقت زوجتي أو قبلتها؛ وأني أهديت زوجتي عطرها الخاص في خيانة قلبية

كي أتذكرها. هل أخبر عفراء أنها أصبحت أكبر أوهامي الجميلة وأحلاها.. أخبرها أني أشتاق سماع صوتها، وأعجز عن الاتصال بها وهي لن تفعل أبدًا، لقد كانت تقول إنها لن تلاحق رجلًا متزوجًا لتسرقه من زوجته وأطفاله. هل أخبرها أني لطول ما تمنيت صوتها أتاني في حلم!

رن هاتفي وأنا أسير في شارع يحجبه الضباب، كان صوتها دافئًا بلكنة أهالي عدن الدافئة فبدد كل البرد في طريقه وهي تقول ضاحكة:

_ أعتذر منك لقد نسيتك في غمرة انشغالي، كيف حالك؟

قلت ضاحكًا بألم مكبوت:

_ بخير والخير أنك تذكرتني. كيف تأتى لك ذلك؟

همست: اشتقت لك.. متى تأتي كما قلت؟

قلت للحلم في المنام:

_ أتمنى أنك تشتاقين لي فعلًا يا عفراء، أترين هذه النجمات التي تظهر لك في السماء، هي زفرات اشتياقي لك، تضيء السماء وتنطفئ روحي، لقد صار فقدي لك مجرة تتسع كل يوم. وأردفت واهمًا: ربما أسافر في غضون أسبوع _ قلت ذلك في الحلم_ رغم يقيني أني لن أبرح مكاني هذا أبدًا. هتفت مودعًا ووجهها يبهت: «عفراء، أرجوك، اشتاقيني حقيقة ولو مرة واحدة.

عندما استيقظت كنت نشيطًا كأنما تلقيت جرعة منشطات محرمة

واقعيًّا. يكفيني في هذا البعد ووسط الحرب أن أحظى بحلم يكون فيه صوتها.

لم أعد أدري أيهما أفضل: وجود الزوجة والأطفال إلى جوارك أم وجود الحبيبة البعيدة التي تجعلك تحلق أحيانًا فوق السحاب وأحيانًا تجعلك تنوء تحت ثقل جبال الشوق.

كلاهما جميل والأجمل أن تكون الحبيبة زوجة أيضًا.

تذكرت صديقًا لي يعمل في إحدى القنوات التليفزيونية، يعشق زوجته أم أطفاله عشقًا نادرًا، يظل سحابة يومه يغازلها عبر الهاتف فيزداد شوقه لها.

نعم.. قبل هذا الحال الخراب كان من الجميل أن يكون لك زوجة وأطفال وحتى حبيبة ترغب بالزواج بها، أما الآن وكل شيء إلى الهاوية فأنت تتمنى لو أنك غير متزوج أو أنك لم تنجب أطفالًا كي تخشى عليهم كوارث الأيام القادمة؛ لم تعد ترغب بحبيبة تنسى وجودك هي الأخرى لانشغالها، في حين أنك في عمق حربٍ مستعرة لا تنساها، بل تجدها تلك الصومعة من السلام تلجأ إليها عند هيجان الحرب الكافرة بالحب.

صديقي «عمار» كان محقًا يوم أن قال إن الحياة بلا ارتباط عاطفي أكثر راحة وامتلاكًا للنفس. قال لي هازئًا من تعلقي بعفراء:

_ أتعرف سر حبك هذا لها؟ لأنها كالنسيم لا تثقل على قلبك سوى بدلال امتناعها منك، فأنت تسعي إليها بلهفة الشوق وهي

بعيدة عنك، لو عرفت حبيبة كالتي أوقعني حظي العاثر بها لعلمت أن العزوف عن النساء راحة للبال من كل شاغل، إنها تطوقني باهتمامها ولهفتها وأشواقها كالحبال، حبها أصبح بحرًا هادرًا سيغرقني لا محالة، إن لم أقسو عليها بهجري وتجاهلي. النساء لا تفهم متى يملّ الرجل من الحبّ ومتى يشتهيه، كلما أشفقت عليها من صراحتي أني مللّت ظنّته حبًا وتمسكًا بها، كلما ابتعدت عنها زاد تمسكها بي، قل لي بربك هل هذا حب أم اعتقال صريح؟

مسكينة «سماح» هي المهووسة بإثبات الحقوق عجزت أن تثبت لها حقًا في قلب الرجل الذي تحب، ظننت صديقي «عمار» يتفاخر بهكذا امرأة تعشقه حتى التماهي، وما كنت أظن أن حبًا موجودًا هكذا ، فامرأة تحبك بهذه الصورة كيف تقابلها بشفقة فقط؟ كيف لم يجد في حبها ما يستحق أن يحب؟ أحيانًا نكمل حيواتنا القصيرة برائحة الحب فقط، فإذا ذقناه أسكرتنا نشوته وصرنا على درب مجنون ليلى وما أكثر المجانين بليلى.

عمار عاشق الكاميرا ربما لا تؤثر فيه النساء كما يؤثر فيه منظر مميز يجعله يخاطر كي يلتقطه، إنه فنان في كل شيء إلا تعامله مع أنثى عاشقة، دائمًا أخبره أن الحب مشهد جميل أيضًا يجب أن يلتقطه القلب في لمحة إلا أنه أصر أن يعشق حريته أكثر فالحب نوع من العبودية المقنعة. اختار عمار أن يحمل كاميرته ويلتحق بالمقاومة في مأرب والجوف، كي يوثق للحرب بدلًا من الحب، قال لي يومها:

ـ لن نستطيع أن نحب ونحن عبيد؛ الحب للأحرار فقط؛ تركت ميادين الحب والهوى وسألتحق بميادين القتال والحرية.

حين ودعته كنت على ثقة أنه لن يحتمل أجواء الحرب ومناظر القتل فقد كان له روح فنان تعشق الجمال والطبيعة، كنت على ثقة أنني لن أخسر رفيقًا بغيابه بعد شائف وأنه سيعود إلى صنعاء قريبًا. ربما يكتشف أن الحب حرية أيضًا. لكن الحرب لم تعد تأذن لنا بالحب حقًا!

ففي صباحات القلق والبحث عن لقمة العيش التي صارت هاجسًا مرهقًا، أو ملاحقة أخبار القتال وحصر القتلى من الطرفين، كيف يتأتى لك أن تفكر في الحب؟

في اشتعال فتيل الكراهية والعداء بين الناس وتشظي بيئتك من حولك؛ في مساءات القصف المروع كيف لك أن تفكر في رغبات الحب.

كيف يمكنك أن تمارس الحب على أزيز الطائرات حتى لو التصقت بك كل نساء الأرض الفاتنات في قلق ورهبة؟ حتى أعضائك الخاصة تتلقى إشارة الخوف من هذا الكائن الذي يمخر السماء فوق سقفك المرتعد، الطائرات تبحث عن أهدافها المرسومة بدقة مجازية وأنت لا تعرف تمامًا هل حظك العاثر جعلك تسكن قرب أحد هذه المواقع.

وهل هذا الصاروخ المدمر ذكي بما فيه الكفاية كي لا يخطئ في حق حياتك ويهديك للموت ملفوفًا في أنقاض منزلك؟ لقد أصبح الاحتشام في لباس النوم واجبًا فنحن لا ندري متى يستدعي عزرائيل الواحد منا إلى مقابلته الأخيرة، إنه الترقب والغضب..

فكيف سنمارس الحب.. أي نوع من الحب في زمن الحرب؟

****

لأيام طويلة عزلت نفسي في ذلك المنزل، عاجزًا ربما عن استيعاب ما يحدث، السماء تمطر صنعاء بالصواريخ والناس يتركون منازلهم القريبة من المعسكرات في هلع، لم تكن صنعاء مدينة تحوي معسكرات بل معسكر يحوي مدينة، ومخزن هائل لأسلحة الخراب يوشك أن ينفجر بها. وهناك على مشارف تعز وعدن تحتدم المعارك بلا هوادة، وإلى مأرب يتجه الكثير من الرجال للتدريب في معسكرات القتال.

هناك ذهول على وجوه الناس في الشوارع تخشى مجابهته، هكذا فجأة أصبحت بلادهم منطقة مشتعلة كتلك البلاد التي كانوا يشاهدونها في الأخبار فيتألمون لأجلها.

رجل الشارع البسيط لم يعد بسيطًا فقد ثقفته الأحداث سريعًا إلا أن له فطرة الثقة بكل ما يقال له، لهذا هو يتجرع ثمن جهالته المعتادة حول ثقته بالخطابات الرنانة.

وما زال هناك الكثير ممن يلتفون بشغف الدواب للبرسيم لكل من خطب فيهم بشعارات تدغدغ عجزهم لفهم ما يدور، كل من أهداهم خلاصة فكر قابل للاعتناق حتى وإن كان منحرفًا، سيسارع إليه المتثاقفون الذين يترصدون الغنائم ليطبلون له ويروجونه بين أوساط العامة عشاق الوجبات العقلية الجاهزة.

استيقظ حس الوطنية المخدر وأصبح العدو خارجيًّا فقط، وأصبح شعار نقتل من عدو الداخل أفضل من عدو الخارج هو شعار المرحلة، نوعًا آخر من جهالة العصبية فقط. اليمني عدو نفسه من أيام «اللهم باعد بين أسفارنا» وأي عدوان خارجي هو لتحجيم وباء العقلية هذه فقط.

انقسم الرفاق إلى فريقين يحارب أحدهما الآخر بلا هوادة، كانت تجمعهم كراهية المليشيا التي أفسدت الحاضر وخنقت المستقبل، لكن دخول قوات التحالف صنفتهم إلى وطنيين ومرتزقة، حتى أولئك الذين كرهوا من أعماقهم المليشيا وجدوا أنفسهم يرتمون تحت سياطها أنفة من تدخل خارجي يدمر البلد المدمر أصلًا..

المصالح تصنع الكثير في النفوس وكذلك سلطة النظام السابق وأعوانه الأكثر نشاطًا من النار في الهشيم، وهل هناك أوفر من هشيم أفكارنا؟

خسرت رفاقًا كثيرين بسبب موقفي وما أكثر الخسارات في وطني. أصبح التشظي أكبر عمقًا في هذا الوطن؛ وتأثير الحرب سيستمر أجيالًا لن ينسى، فكل من أرسل أبناءه من شمال اليمن كي يقتل أبناء الآخرين في جنوبه لن تغفر له كل تلك القلوب المكلومة وإن أعادوا إليه ابنه مسجى في كفن.

كتائب الموت تتدافع بشعارات الجهاد والجهاد المضاد، لكن شتان بين من يعتدي عليك في أرضك وفي عقر دارك وبينك وأنت تدافع عن مالك ونفسك وعرضك وحقك في الحرية التي هي الحياة لكل البشرية.

المليشيا تجيش أطفال القرى وترسلهم إلى الموت بدلًا من المدارس، تقودهم بحماسة الأطفال للعب بألعاب الموت، وحاجة أهاليهم لما تدفعه من مبالغ تافهة وفي النهاية لقب الشهيد، ووعد حصري بدخول الجنة مع سبعين أحمقَ ممن يصدقهم.

حتى أولئك المتفائلين بغدٍ أفضل سيستيقظون على شرخ هائل قد ابتلع الكثير من الوئام بين اليمنيين، أصبح النصف تقريبًا يقتل النصف الآخر وهذا الآخر سيسعى للانتقام يومًا. هذا الحال المتشظي ذكرني بتفاؤل شخص أصابه الوضع بما يشبه الخبل، فطفق يبشر بحماسة مثيرة للعجب لحزب جديد يدعو إلى المساواة والعدل، كان الرجل قبل الأحداث يحيا في رغد من شركة توكيلات متعددة واستطاع في زمن قياسي أن يثرى ويبني بيتًا جميلًا ويؤمن مستقبل أطفاله، وفجأة انهار كل شيء مع اكتساح المليشيا لمدينته تعز، أصيب منزله بالدمار بفعل القصف العشوائي من قبل المليشيا، وعمله بالكساد والخراب ثم انتهى تمامًا بالحصار، قتل أكثر أصدقائه وتشرد مع عائلته من مدينة لأخرى.. التقيته في أحد المجالس عند بعض الأصدقاء فقلت له:

_ ومع ذلك تركتَ تعز بكل ما فيها وجئت إلى صنعاء؟

فقال بحماسة ورذاذ القات يتطاير من فمه:

_ صنعاء ليست لهؤلاء الوحوش، صنعاء لكل اليمنيين، هؤلاء الجراد سيأخذون موسمهم وينقرضون، ومن هنا سنغير تفكير الآخرين وندعو لحزب جديد يصلح البلاد ويقضي على الظلم بلا سلاح «.

أدركت أن من وصل حد الثمالة من قرف هذا الوضع، يرى الحديث والتنظير لحزب سياسي جديد يعني التسلية وملء فراغ الوقت.

أتفهم حين يأتي هكذا كلام من خارج أتون اليمن المشتعل، وأقدر أن صاحبه يعيش الحياة الطبيعية وكل شيء على ما يرام، لكن أن يصدر

من شخص يقابل الموت كل يوم بوجوه كثيرة تبتز حياته قطرة، قطرة فهذا ما أستغربه فعلًا. مازال الرجل يحلم بالتغيير عبر الدعوة السرية لحزب جديد، في حضرة قريش كلها والحق الإلهي الحصري.

****

حلّ شبح النزوح الذي لا يهادن الراحة، بل ينقض عليها فيبعثرها أشتاتًا.

النزوح كابوس لم يختبر هذا الجيل مآسيه من قبل؛ حقًا هو نزوح داخلي من مدينة إلى أخرى بحثًا عن الأمان، لكنه حدث جديد وصادم أرعب الكثير وأذاقهم معنى التشرد بعيدًا عن منازلهم ومدنهم، عن أهاليهم وجيرانهم لا يعلمون هل يكون بعده لقاء أم أنه فراق إلى أسوأ. المدارس التي أغلقت في وجوه التلاميذ احتضنت عشرات العائلات في تزاحم وشحة للمواد الغذائية ومستلزمات الحياة.

المقتدرون والمحظوظون فقط من تمكنوا من استئجار شقق أو سكن لدى أقاربهم.

عائلات كثيرة نزحت لا تحمل سوى أكياس ثيابها في رعب غير مسبوق، تفر للضيق من المجهول، تترك خلفها المنازل عرضة للصوص للفوضى كي لا يسرق القصف أرواحهم.

راجت تجارة مقتنياتهم بعد أن نهبتها المليشيا وحولتها إلى سلع تباع كحق مشروع لهم، أخبرتني صديقة من عدن أن أقاربها اضطروا لشراء بعض مقتنياتهم وأثاثهم من أفراد المليشيا بعد أن نهبوها وعرضوها للبيع في أسواق سوداء تبيع كل شيء بلا حياء.

مدينة إب صاحبة النصيب الأكبر من النازحين، المدينة الأكثر أمانًا بتسليم أهلها واستكانتهم، يطحنها الغلاء في المعيشة واختفاء السلع والضرورات، وتبقى صامدة في وجه الحرب، هروبًا من عواقب أشد وأنكى.

أصرت زوجتي وهي ترى كل معارفنا يتركون صنعاء إلى الضواحي أو مدينة إب، على النزوح بالأطفال هروبًا من فجائع الغارات الجوية، فحالة الرعب التي كانت تصيبهم لا توصف، إنهم قلوب صغيرة لا تحتمل هذه الانفجارات المروعة ولا تفهم أسرار الأخطاء الصديقة من قبل التحالف.

كان سفرهم دوني محنة أخرى وخسارة تضاف إلى رصيد خسائري المتوالية، لم يكن بالإمكان السفر معهم فالطريق ليس آمنًا لصحفي ملاحق، يجب أن أبقى للبحث عن الرزق في أعمال هنا وهناك.

سفرهم إلى مدينة إب عند والدتي كان أنسب الحلول، لكن الطيران ما لبث أن داهم تلك المدينة الريفية في فجائع لم يسبق لها مثيل، جعلتني أقف مذهولًا أين يمكن أن أذهب بعائلتي، لولا تطمين أمي المتكرر لي أنهم في مأمن بعيدًا عن الأماكن الواقعة كأهداف بعد انتقالهم إلى مكان آمن.

كانت رسائل زوجتي اليومية تجعلني أعيش الألم لحظة بلحظة فلم يغادروني هم بل غادرتني روحي معهم.

(سميـــــرة)

(عزيزي وحيد.

هذه الليلة أشعلت ثلاث شمعات في إسراف لا مبرر له، أشعر أن جوفي مظلم غارق في الكآبة والخوف، ولا شموع ستبدد هذا الشعور؛ لقد اشتعل القصف فجأة هنا في إب..

ظننت أنني في غاية الاستعداد لسقوط أي صاروخ في مكان قريب تصل شظاياه إلى نوافذنا؛ لكني كنت أكذب على نفسي فلا استعداد لدي لأي قصف من جديد.

الحرب لا تقتل الإنسان فقط، إنها تقتل كل شيء في طريقها، تقتل حتى الهواء الذي يتنفسه الأحياء، فيدخل أجسادهم ميتاً ويتعفن في صدورهم وتصبح قلوبهم مقابر متنقلة للخوف. كنت وحدي ذلك المساء صدف أن والدتك عند سعاد أختك..

أجساد الصغار تكومت في الفراش تلتمس الأمان من بعضها، متشبثين بي كي لا أتركهم، ناموا في انتظار انفجار والانتظار للرعب أشد رعباً دائماً. عندما سقط الصاروخ الأول في الاستاد الرياضي لمدينتنا سقط حاجز الأمان دفعة واحدة..

ذلك اليوم عصرًا في حي «صلبة السيدة» قرب الملعب سقط منزل فوق قاطنيه كان عامرًا بهم. قال لي شاب صغير من أبناء الجيران: إنه وصل فوق ركام الأنقاض بعد أول ضربة صاروخية وهناك سمع نحيب النساء المتوجع والمفزوع، قال: إنه لن ينسى تلك الشابة التي مدت يدها إليه منتحبة من فرجة الجدار المهدوم وهي تقول بصوت مخنوق: أخرجونا؛ أرجوكم أخرجونا. جعله صوتها المليء بالهلع يقول بحماسة يائسة: اصبرن سنخرجكن. لكن السقف الأسمنتي كان أثقل من سواعد عشرات الرجال والشباب الذين التفوا حول الركام من أجل المساعدة أو السرقة. طلقات رشاش المراهق المليشاوي فوق رؤوسهم كفيلة بجعلهم يتركون السقف ينهار أكثر فوق أجسادهن. قال الشاب الصغير: إن أحد الذين حاولوا رفع السقف الأسمنتي انفعل بقوة وهجم على المراهق المسلح وكال له عددًا من الصفعات والركلات وهو يصرخ بتشنج شديد: « أنتم السبب يا كلاب.. أنتم السبب في قتلهن وقتل البلاد كلها.

في المساء وعلى ضوء الشموع الثلاث كنت أحدق في السقف برعب.

لقد كرهته. وكرهت كل السقوف والجدران التي تحمينا وفجأة تطبق على أرواحنا حتى تنتزعها. في آخر ساعات ذلك النهار كان حي «صلبة السيدة» والأحياء المجاورة له، حيث سقط الصاروخان، شبه خالية! إنه نزوح الصدمة والرعب، شيء لم تتخيله مدينتنا.

وكان لا بد من النزوح مرة أخرى من المناطق المتوقعة. فقد

سكننا بجوار المجمع الحكومي المكتظ بالمليشيا كان حظًا سيئًا، فقد اعتبر منطقة مستهدفة.

أتى ابن الجيران يعرض المساعدة لأخذنا إلى حيث نشاء بسيارته. فقلنا له: في الصباح.. تتكالب علينا جهات الموت بشكل يدعو للرعب فمن لم يمت بسلاح الميليشيا سيموت تحت قصف قوات التحالف بنيران صديقة. لقد قتل بقصف التحالف وشرد أعدادًا تضاهي من قتل وشرد بفعل جماعة الحوثي وحليفها النظام السابق.

لقد نسيت أن أذكر لك جهة أخرى للموت: إنه الجوع الذي يكتسح «إب»..

ربما لم تسجل حالات وفاة بسبب الجوع، لكن مئات وألوف من قتلت نفوسهم في عجز عن توفير لقمة العيش لعائلاتهم؛ الجوع يفترس اليمنيين خوفًا من الجوع والحاجة. كل شيء انعدم واختفى فجأة وارتفع سعر الموجود إلى درجة لا يتخيلها أحد.

البطالة واختفاء فرص العمل وتسريح العمال من أشغالهم أصابت الكثيرين بالجنون قلقًا وخوفًا. لا يوجد أعمال تدر المال كي يأكل الأطفال. الوقود.. الكهرباء.. الغاز.. كان ثلاثي شلل الحياة المتبقية لدينا. لأيام وأقول أيامًا ولا أدري هل ستصبح شهورًا أو سنوات لم نرِ الكهرباء.. أصبحنا في ظلمة داخل ظلمة.

الوقود اختفى فاختفت معه الحياة بكل تفاصيلها التي لم نكن ننتبه لها.

لا بضائع.. لا ماء.. لا مواصلات.. لا اتصالات ممكنة للجميع؛ أتعب كثيرًا حتى أتمكن من شحن الهاتف في دكان الجيران حتى أرسل لك أخبارنا.

كل شيء اختفى وأصبحنا معزولين عن كل شيء يمكنه أن يخبرنا هل سنكون بخير؟

في الصباح ومن نافذتي المطلة على الحي شاهدت جماعة من المسلحين قد رفعوا مآزرهم يمرون في نفير يعتقدون أنهم سيتصدون للطائرات بعصي الخشب الرشاش على أكتافهم. زامل يصدح من مكان ما عن الحرب التي ستحول الخضرة إلى رماد ذكرني أننا كنا نشرب البنّ في الصباح على صوت فيروز وهي تصدح من قناة السعيدة.

تمر نساء وأطفال محملون بملابسهم في أوعية صابون كريستال يفرون إلى المجهول..

ومجنون حافي القدمين يسير بتعقل واضح صوب مكان الانفجار في الصالة الرياضية..

ربما يبحث عما خلفه المجانين ليستفيد منه.

أشخاص يمرون ذهابًا وإيابًا مسرعين في لهفة وأثناء مرورهم يلعنون آل سعود بطريقة بذيئة جدًا. وفي طريقهم لا ينسون لعن حزب «الإصلاح» أيضًا رغم أنه لم يتحالف مع جماعة الحوثي وهذا ما لم أفهمه أنا!).

****

(عزيزي وحيد.

حين يأتي الصباح نشعر أننا على ما يرام، لذا كنت أتمنى ألا نترك المنزل، رغم شعوري أننا العائلة الباقية الوحيدة في الحيّ كانت مخاوف الناس أن يضرب مبنى المجمع الحكومي الذي يتوسط المنطقة والذي لا يفصلنا عنه إلا أمتار قليلة؛ من أجل الصغار يجب أن نترك البيت.. لقد كانت أسوأ ليلة مرت عليهم على الإطلاق، يبحثون عن النوم كي لا يخافوا.. وكلما غرقوا في نوم أرق هبوا واقفين لصوت انفجار آخر.

كان لا بد من النزوح من أجلهم للمرة الثانية.

أتذكر مقولة « أنني أفضل الموت تحت سقف بيتي » هي ليست استعراضًا بطوليًّا فارغًا أو مجازفة بالأرواح. النزوح موت بطيء يصبح معه الموت السريع خيارنا الأفضل.

هل كل من ترك بيته سيتركه للأمان والراحة؟ أم للمجهول والتشرد والضياع وربما الموت على قارعة طريق. ألم تسقط منازل كثيرة فوق رؤوس قاطنيها في تعز وعدن وصنعاء وصعدة وإب والحديدة وغيرها. ربما لأنهم عجزوا عن النزوح خوفًا من فكرة النزوح ذاتها، أو لعجزهم المادي عن ذلك بعد ارتفاع أسعار الوقود والمواصلات ارتفاعًا مهولًا ومن ثم ندرتها بشكل يعجزك عن التحرك.

حين قررنا أنا ووالدتك ترك المنزل كان أول سؤال أقلقني هو إلى أين؟

فلم يكن لكل مواطن يمني بيت في الريف كي يرممه ليفر إليه في وضع لم يخطر على البال. ولأنه يجب المغادرة فسؤالي إلى أين يعد ترفًا غبيًّا.

كان السؤال الملح هو ماذا أحمل معي من أشياء قد تحتاجها أسرة ستحتاج لكل شيء؟

خوف المداهمات وسرقة البيوت ونبش خصوصياتها أكثر ما يثير الرعب وبدا لي كل شيء خاص جدًا وصعب التفريط به؛ فكيف أحمل حياتي كلها خلف ظهري في مجهول نزوح إجباري. لكننا أخيرًا تركنا كل شيء خلفنا لننجو بأطفالنا فقط.

في بعض العائلات التي نزحت كانت الأسر تتراكم في منزل ريفي لا يتسع لجدرانه ذاتها؛ لكن القلوب التي ذاقت الخوف انفتحت على مصراعيها لكل قادم يزاحم الأمتار القليلة. شحة الماء في الريف وصعوبة العيش وعشرات الأفواه الجائعة والظلام الحالك الدائم جعلت الجميع يتمنى النزوح إلى الآخرة؛ لقد انتقل اليمني مئات السنين إلى الوراء دفعة واحدة.

تخيل أن القمح أصبح عملة صعبة هنا ومن اكتنزه في بداية الأزمة صار يقايض به حفنة من طحين في غياب وقود طواحين الحبوب، وبدأت فكرة استخدام الرحى تعود فكلنا تطحننا رحى الأزمة. ومع كل هذا للأزمات جانبها الجميل!!

في منزل خالتك كنا نساء أربع عائلات يصل عددنا إلى تسعة نساء يجمعنا مساء ضوء شمعة تتمايل لاندفاع الأنفاس الضاحكة ونحن نحلل الوضع كل مساء ونصف هول الضربات الصاروخية التي لم نعهدها في حياتنا قط. ونشرب الشاي؛ كنت لتضحك وأنت ترى زوجتك تقلدك في حديثها كزوجة صحفي يعرف كل شيء.

فكرت أنه حتى لو أن المرء منا يسكن خيمة في صحراء مقفرة وحوله قلوب بيضاء محبة، وهو مطمئن على أحبائه ربما سيذوق الهناءة كما لو أنه في قصر مشيد وحوله الحدائق الغناء.

أجمل ما في الإنسان اليمني والمرأة بالذات هو التكيف على أي وضع فرض عليه.

أحاديثنا عن الخوف مما سيأتي هو المسيطر على تفكيرنا، إلى أين تسير البلاد ومتى تنتهي الحرب؟ هل سنحتمل تسارع الأحداث المفاجئة وبطيئة الحلول الصادقة.

النزوح أن تترك خلفك نفسك بكل تفاصيل حياتك واهتماماتك واستقلاليتك أن تلغي ذاتك من أجل سلامة الآخرين، لن تشبع إلا إذا شبعوا ولن تنام إلا إذا ناموا لن تعيش إذا لم يعيشوا. القلب موزع في كل اتجاه، تعددت أسباب القلق وجبهات الخوف والسبب واحد.. فقدان الأمان.

قصص النزوح التي نقصها تختلف من شخص لآخر، يجمعها الاغتراب داخل الوطن والحاجة الشديدة لإطعام الأفواه الجائعة

وتوفير احتياجاتنا الأساسية. وفي النهاية نفقد مذاق الحياة في غربة ذات وغربة مكان..

انتهى الماء في منزل الخالة، وأصبح البقاء شاقًا على الجميع.

خمسة أيام ومدينة إب تنتظر قصفًا آخر فكل سكانها تقريبًا نزحوا إلى القرى خوفًا من استمرار الضربات الصاروخية، في اليوم السادس عدنا إلى بيتنا كما عادت عشرات الأسر إلى منازلها.

في طريق العودة ارتبك سائق السيارة بعد أن عجز عن التعامل معها، فكان يتلقى دروس القيادة من ابننا الصغير الذي اجتهد في إبراز حذاقته المبكرة في التعامل مع السيارات. الموقف يدعو للضحك.. لكن قلبي كان داميًا لرؤية مدينتنا بهذه الحال.

في أول منعطف نزولًا من «بعدان» تظهر إب، تلتقيها عيناي بعد أيام من الغياب تعلوها صفرة كالحة، هل كانت صفرة الفجيعة أم صفرة الاحتضار في انتظار جرعة صواريخ أخرى؛ أم صفرة الصدمة لنسف منازل المقاومين.

فمازالت أطلال منزل «الحماطي» وغيره ماثلة في عقول أهالي إب والتي نسفتها جماعة الحوثي بتهمة المقاومة ونصب الكمائن للإمدادات العسكرية للمليشيا.

حتى أولئك الذين لا يملكون بيوتًا كي تفجرها الجماعة، كانت أحلامهم هي البيوت التي نسفت وصار مستقبلهم بلا مأوى.

باتت إب تحتضن النازحين وتلملم جراحاتها دون مقاومة من

أجل سلامة الناس مع استمرار استفزاز المليشيا في تخزين الأسلحة ومضادات الطيران داخل المباني السكنية وتعريض الأهالي للقصف.

وحتى كتابة هذه الرسالة وبعد ليلة مرعبة تم فيها قصف أماكن في المدينة وتجدد الاشتباكات واستمرار تعالي أصوات الرصاص بين وقت وآخر تظل مدينتنا نازحة بحثًا عن السلام تحتضن مئات النازحين في قلبها في قصص نزوح مؤلمة ستسطرها الأيام للأجيال القادمة..

عزيزي وحيد.. هذا القليل مما يحدث في مدينتنا الوادعة.

كن بخير حتى نكون كذلك.

****

الرصاص الميت لا يقتل الكلمات الحية..

إنه يرفعها عاليًا.. كي يقرأها كل الناس..

(وحيد)

رسائل زوجتي غارقة في الحزن والصدمة وهي تصف مدينتنا الهادئة حد الموات.

وكأنما لنقاوة هواء إب لا يصدق أهلها أن تصيبها بشاعة الحرب بأي عارض. الحرب بكل بشاعتها هناك في نحور الأطفال حرموا إنهاء عامهم الدراسي نتيجة للحرب والخوف، نخشى عليهم الموت والقتل في مدارسهم والطرقات وحتى في البيوت. مستقبلهم غامض وقاسٍ يقابله عجزنا عن الشرح لهم لماذا يقتل اليمني أخاه اليمني وتحت أية ذريعة؟

مرت أيام عصيبة عليّ وأنا أفكر في طريقة تكفل الأمان لأطفالي؛ كنت أخشى هنا في صنعاء أن تنتزع المليشيا أحدهم كمجهود حربي؛ أصبح على كل أسرة في هذا الوطن تقديم قاتل أو قتيل منها؛ وأحيانًا يمعن الجهل في نكايته بنا ليكون من العائلة شهيدان ينتمي كل منهما لطرف ضد آخر.

صدمة وهيب ابن الثامنة عشرة وصديق ولدي لا تفارق تفكيري وهو يحكي لي كيف أن ابن خالته ورفيق صباه قتل غدرًا في عدن بعد أن ذهب بقدميه ليقاتل هناك في صفوف المليشيا. يومها قلت سألته:

ـ لماذا ذهب صديقك إلى عدن؟ هل ليقوم برحلة إلى بحرها الساحر؟

قال بضيق وقد فهم مغزى كلامي:

ـ لقد غرروا به مع شباب كثيرين من أبناء بني مطر وبني حشيش، كان يبدو مغسول الدماغ لا يفقه من تحذيري شيئًا، يظن أنه سيعود، لم يتوقع هذه الميتة ولم أتخيلها له أبدًا؛ قتله الأوغاد وما زال صغيرًا على الموت.

قلت له رغم يقيني أن سنه الصغير وألمه على رفيقه سيقفان حائلًا بينه وبين الفهم:

ـ الوغد من يعتدي أولًا يا وهيب.

صديقه قتل بقنبلة ألقيت عليه مع آخرين داخل شقة كانوا قد احتلوها كوكر لهم اقتحمتها مقاومة عدن وفجرتها بمن فيها. صور القتلى من أطفال المليشيا المجندين تنتزع مني الدموع بنفس القدر الذي تفعله صور الضحايا الأبرياء، لا تزال ملامح الطفولة البريئة المعذبة تلوح على محياهم.

****

غيرت مكان إقامتي إلى شقة صغيرة تملكها سيدة طيبة القلب تدعى أم ناجي.

كالعادة بمساعدة «أحمد النويرة» منقذي الدائم، كنت أتساءل ماذا سأفعل بدون هذا الصديق الخدوم المتفاني.

السكن متواضع يتوارثه الشباب العازبون لذا يخلو من ملامح الألفة والجمال الذي تصنعه النساء، لكنه مكان آمن بين الأحياء المكتظة بالناس لدى أشخاص عرفوا بالطيبة والأخلاق. الحصول على مكان آمن داخل صنعاء المحتلة بوجود مليشيا لا تقيم لحياة البشر وزنًا من أعظم الأمور بالنسبة لصحفي حتى لو جحرًا ضيقًا، كلما يهمني أن أبقى هنا كي أكتب عن هذا الوطن في حقبة زمنية هي الأقبح فعلًا.

شعور بالمرارة ينتاب الجميع هنا لقد سرق الوطن منا أو تم بيعه في سوق سوداء ككل شيء يباع هنا. «انتفاشة» عجيبة كما قال «محمد قحطان المختطف في معتقلاتهم، «انتفاشة» لوباء يكاد أن يقضي على مظاهر الحياة الطبيعية.

قاسٍ كثيرًا أن تكون مشردًا ومطاردًا في وطنك؛ تجمع بين الأمريّن مذاقًا، البقاء في السجن الكبير وخوف الاعتقال لسجن أضيق منه قد تطال فيه كرامتك وحريتك.

قصص الإهانة والتعذيب، تجعلني أفكر ألف مرة قبل الظهور في متناول الوشاة الذين يبيعون آخرين كالرقيق مقابل إغراءات تافهة،

فكيف لو كنت إعلاميًّا مطلوبًا بسبب كتابة مقال وصف بالخيانة العظمى.

الشتات شعور داخلي؛ أشعر أني في شتات أكثر من أولئك الذين فروا خارج اليمن نجاة بحياتهم؛ إحساس مخيف أنني فجأة لم أعد أنتمي إلى حيث أنا شعور يعجزني عن رؤية أي وجه مشرق للحياة قد يمر به مصادفة.

ومع هذا أجد الكثير لا يلتمس العذر لمن يشكون من مرارة الغربة. فهناك خارج الأوطان تنمو الوطنية في تربة صالحة للنمو فعلًا؛ ربما ونحن في وطننا نكابد الجوع والإهانة ويلاحقنا القتل والجهل نكره هذا الوطن ونلعن وجودنا مقيدين فيه، فإذا غادرناه اشتاقت صدورنا لأنفاسه المعتلة.

«سماح» المرأة التي قلت عنها يومًا أنها مرشحة للجنون ليس لكونها عاشقة لصديقي عمار حتى المنتهى، ولكن لشدة هوسها بعملها الحقوقي ومناصرة الحريات وقضايا المرأة والمجتمع، سماح أصابها العقل فجأة..

رأيتها في مكتب سفريات لأحد الأصدقاء، تبحث عن طريقة للخروج من اليمن، هي التي قالت يومًا: لن أترك وطني لأخدم أوطان الغير.

قلت لها مستفزًا بابتسامة مشفقة: «وأخيرًا فكرت بمغادرة الوطن الذي رباك لتخدمي أوطان الغير!! ضحكت هازئة:

ـ وأين هذا الوطن؟ لقد جرفه طوفان الجراد بعيدًا، سأذهب للبحث عنه، ربما أجده في أرض الله الواسعة، لم يعد لي وطن في هذا الوطن. قلت ممعنًا في استفزازها وأنا أجلس على مقعد قبالتها:

ـ كيف تتركين واجبك نحوه وأنت ناشطة حقوقية تسعى من أجل حقوق وحريات الناس التي تهدر بإسفاف؟ لقد تكاثرت أخطاء التحالف في القصف على مساكن الأبرياء، ووجدت من يبررها من الناشطين بحكايات لا تعني إلا أننا للأسواء؛ أين أنت من هذا؟

لكنها صاحت في وجهي بحنق وهي تلقي أوراق السفر من يدها على الطاولة الصغيرة بيننا: «ماذا جرى لك يا وحيد؟ لن أقول عن نفسي ناشطة حقوقية في وطن لا يعرف معنى الحق، قرى وطني التي لم تصلها أيدي الدولة بالمدارس والطرقات وصلتها قوات التحالف بالصواريخ والتفجيرات بعد أن تكدست في مرافقها الأهلية أسلحة المليشيا؛ وأصبح الموت ينتزع أكثر الناس شقاءً وفقرًا. ثم إنّي لم أستطع انتزاع أبسط حقوقي في هذا الوطن. فكيف أحلم بمساعدة الغير؟

فكرت وأنا أتأمل انفعالها المتألم: نعم.. لقد أصابها العقل الذي لم أملكه أنا كي أخرج من هذه الحفرة التي تلتهب كل يوم أكثر، سماح التي كان لها طموح بناء وطن يحترم الحريات أدركت أنها تحرث في بحر مالح فقررت الخروج قبل أن تجن فعلًا. أما أنا ووعودي السرابية لعفراء بالسفر حيث هي، بعجزي عن اللحاق بعائلتي أو إسعادي لهم، بوقوفي الذاهل عن قرار يخرجني من حيرتي لا أشبه سوى وطني معلق

بالأمل. قصة الحقوق والقانون أصبحت مزحة سمجة فعلًا كما قالت سماح؛ شيء لممارسة صناعة النكتة في وطني، فهنا يهدر الدم للاشتباه، وهنا يعود التفكير نحو المرأة إلى أرذل معاملة.. قالت سماح بانشداه:

_ كنت أعرف سيدة متواضعة الحال ربة بيت رائعة، لديها ولد تنتظر اليوم الذي يكبر فيه ويساعدها في هذه الحياة، أتعرف أين أرسلت فلذة كبدها هذا؟

أرسلته لقتال التكفيريين الخارجين عن أمر السيد الذي طاعته فرض يقربنا من الله. المرأة تعتقد أنها ترسل ولدها لتثبيت دعائم الملك الذي تركه النبي لأحفاده وهو بهذا يقوم بأفضل عمل يدخله وسبعين آخرين من أهله الجنة. وبعد انتظار أن يكبر كي يكون سندًا لها، عاد إليها مجندلًا كي تدفنه بالزغاريد وهي تهتف: إلى الجنة يا ولي الله.

سأترك وطنًا يعيش فيه أولياء الله قتلًا وتمزيقًا وكذبًا. بل سأترك دينًا يحتم عليّ أن أكون عبدًا لسيد باسم الله.

****

وللحزن في القلب فعل عجيب يفيض..

يفيـض فيلجـم حتى البكـاء..

(عمـــار)

حزين حد الانصهار.. ألم محرق يتصاعد في صدري تدريجيًّا.

الآن أصدق أن الحزن يمكنه أن يقتل فعلًا، أصبح يقتل كأية أداة قتل حادة تنغرز في جسد الإنسان، وتسيل لها دماؤه، قتل صديقي عمار وهو يحلم بالحرية، عمار ارتقى برصاص قناص يكره الكاميرا التي على كتفه فاخترقها برصاصاته ومعها رأس صديقي الفنان. «الحزن يقتل يا صديقي كالرصاص تمامًا». اخترق قلبي كرصاصة مفجعة.

مات صديق آخر وأوشكت أن أبقى وحيدًا فعلًا. أنا ثكلى الآن مثل تلك الأم حين علمت بموت ولدها الأكبر رجل السلام في مدينة إب «أمين الرجوي» فانفجرت دماء جوفها حزنًا وتقيأت الحياة لخبر مقتله بعد أن وضع هو ورفاقه كدروعٍ بشرية لقصف الطائرات في معسكر هران.

من يترك عددًا من الناس بانتظار الموت وهم مكبلون بالحبال بانتظار قصفهم؛ ماذا يمكن أن يكون غير وحش تجرد من إنسانيته. من يترصد حياة فنان يحمل كاميرا يهدف لطمس الحقيقة كي يرتوي بالدم

ليس بإنسان. «عمار» كالعشرات من أبناء مدينته تعز؛ نساء وأطفال ورجال لم يحملوا سلاحًا سوى قلوبهم الشجاعة قتلوا قنصًا وغدرًا لأنهم عشقوا الحرية فقط ورفضوا اقتحام المليشيا لمدينتهم.

تترصدهم الرصاصات في المعابر الترابية فتخلط دماؤهم بتراب الوطن، يجازفون من أجل لقمة العيش حين يمرون في معابر جعلت لالتقاط أرواحهم، يجازفون لإنقاذ مريض يحتضر في انتظار أنبوبة أكسجين اختفت من المستشفيات فمات البعض انتظارًا لهواء أو دواء. نساء تعز يتحملن فوق طاقتهن ليظهرن حقيقة المرأة اليمنية التي خلقت للبذل والعطاء حتى آخر نفس. أطفال تعز يقضون أيامهم في ملاحقة الماء في أزقة العطش. وسيكبر حزني بفقدك يا عمار حتى نشيخ أنا والحزن أو نموت معًا.

****

كان أول فَقدٍ خبرته في الحياة عندما جذبت إحدى سوائل مدينة إب صديق الطفولة..

تكثر في إب مجاري السيل الضخمة القادرة على سحب سيارات كبيرة وزعزعة بيوت الفقراء والمهمشين القائمة على ضفافها؛ تترك تلك المساحات القريبة خالية من الإعمار فتبنى فيها خرائب البسطاء والمهمشين. كان هذا فيما مضى. أما الآن فمجاري السيل تصبح أنهارًا صغيرة ترصف بعناية وتترك لتلتهم طعامها من الذين يقتربون كثيرًا للتفرجة. حدث لصديقي طارق. كنا في الصف الرابع الابتدائي؛ قد خرجنا من دوام المدرسة المسائي حين اقترب من السائلة الهادرة

كثيرًا بعد مطر غزير ذلك المساء..

اقترب طارق يومها ممسكًا عصا المعلم التي كان يحملها كل يوم كمسؤول للصف، يحاول التقاط علبة الزيت الصفراء التي تندفع مع السيل بقوة حتى نصنع منها لعبة كالعادة. لم أكمل تحذيري لصديقي ألا يقترب فقد امتدت ذراعا السائلة وجذبت طارق بقوة إلى جوفها، اختفى طارق مع عصا المعلم وحقيبته الأنيقة وكل كتب الدراسة، وصرخت.. صرخت كثيرًا، وصرخ كل التلاميذ حولي وحاولت أن أتبعه لا أدري إلى أين ...؟ لكن الكثير من الناس تجمعوا وأمسكوا بي جيدًا كنت أصيح بلا توقف وأحاول القفز خلف طارق..

لم يحاول أحد من الكبار أن يفعل كما في الأفلام التي أدمنت مشاهدتها حين كبرت، لم ينزع أحدهم حذاءه أو ساعته ليقفز خلف طارق، الجميع يعلمون أنه وجبة السائلة المعتادة ككل موسم مطر في مدينتي وأنهم ربما سينتشلون جثته بعد أن يهدأ السيل من مكان ربما يكون بعيدًا جدًا عن منطقتنا..

كان وقت الغروب قد حل وأنا واقف هناك حيث اختفى صديقي للأبد، أناشد السيل ألا يؤلمه أو يخمد أنفاسه، وأن يدعه يخرج سليمًا كي نلتقي غدًا ككل يوم.

كنت أبكي بحرقة وأنا أفكر كيف أعود إلى حارتنا والتقي بجارتنا «سميرة « وطارق ليس معي ككل يوم؟ ربما سبقها الخبر وهي الآن تهيم على ضفاف السائلة تبحث عن شعر طارق المصفف في عناية وقد بلله السيل فلا يظهر أو يطفو.

أظن أني يومها بكيت مقدمًا لكل فقدٍ عشته في حياتي، فلم أعد قادرًا على ذرف الدموع بتلك الغزارة، أصبحت أتحمل حزنًا أكبر ودموعًا أقل ربما حصلت على حصانة مبكرة من الموت حزنًا؛ صرت أقترب منه وأعود إلى الحياة وقد مات جزء مني دون أن أدري. أصبحت قلمًا يكتب الوجع. شراعه الألم فلا يرسو إلا على شواطئ الحزن، أضعت مرافئ الفرح منذ أبحرت في الدنيا. كم من الفقد سأعدد في حياتي يا «فخري» وأنت سفير قلبي الأولّ..

****

ها قد أتى صباح جديد.

الصباح الذي كان صديقي أصبح كابوسًا يحل كل يوم لشهور طويلة وكثيرة لم أعد أعدها، عندما تستيقظ من فراشك البارد عاطفيًّا لغياب الزوجة، ولا تجد قطرة ماء كي تتوضأ للصلاة أو تدخل الحمام لقضاء حاجة، أي يوم تبقى لك كي تبتسم فيه؟

ستنقض عليك الوساوس والمقلقات كأنك تواصل كابوسًا في منام ترى فيه نفسك تحاول الجري وساقك مربوطة بوهم الرؤيا.

ستجثم عليك ذكريات الفقد للأصدقاء، والمستقبل الغامض الذي ينتظرك. والمهام التي لا تنتهي! الزوجة تبحث عن المال لإطعام الصغار والمؤجرة تحتاج مالها، ولا ماء، ولا كهرباء كي يعود هذا الماء، ولا عمل لتجلب المال لكل هؤلاء، نعم لا عمل، البطالة هي السيد..

وأنا أرتدي ثيابي المتسخة تذكرت أني كنت أغادر صباحًا في أبهى حلة، تنتظرني سيارة جميلة ومكتنزة كسيدة حنونة، فكرت بالكلمات التي يجب أن أقولها كل يوم لصاحبة البيت عن التراحم بين الناس في ظل الأزمة الخانقة التي نعيشها، لشد ما أحرج من طيبة قلبها وعجزي أن أكون أكثر طيبة كما عودت نفسي، سأخبرها عن مستحقات مالية قادمة من مكان بعيد، لا أدري حتى الآن كيف سأقسمها بين كل الأكف المنتظرة.

نسيت في ضيق الحال والدة «بكر» التي كانت تنتظر زيارتي مطلع كل شهر، لعلها الآن ترثي لحالي فلابد أن هناك من سيقص عليها ما آل إليه وضعي وخساراتي.

كانت صاحبة المنزل كعادتها تجلس مادة ساقيها المكتنزة في حوش البيت، تتلقى أكبر حصة من الشمس كأنها تنافس ألواح الطاقة الشمسية لخزن الطاقة، فكرت أن ساقيها لا تنفع لإضاءة ليلة واحدة لرجل محروم من النساء مثلي.

وجدتني أبتسم لتفكيري المنحط هذا وحين شاهدت السيدة ابتسامتي ابتسمت بحرج وهي تخفي ساقيها المغطاة بسروال تقليدي محبوك الأطراف تحت عباءتها الواسعة وهي تقول: «صباح الخير يا أستاذ وحيد. هل تناولت إفطارك يا ولدي؟

طيبة هذه السيدة ذكرتني بوالدتي التي ما كانت لتقبل خروجي من البيت دون إفطار، ألقيت عليها التحية وقلت لها مبررًا:

_ سأتناوله في طريقي يا خالة، سأذهب للبحث عن «مصاريف» لأرسلها للأولاد.

_ لن تخرج قبل أن تتناوله معي أنا وناجي، سيعجبك فطير بلدتنا الساخن.

فاحت رائحة السمن البلدي بقدوم ولدها ناجي أكبر أولادها، يقاربني في العمر إلا أنه في الضفة الأخرى من اهتماماتي، رجل لا طموح له هو محظوظ، ترك له والده عمارة كبيرة يعتاش منها هو ووالدته وعائلته الكبيرة، إنه يدير عمارته ولا شأن له بما يدور خارجها، لكن ولاءه للعرف الذي ينتمي له جعلني النزيل المميز في عمارته، حين قدم بي أحمد النويرة ابن قريته إلى هنا قال بحماسة: الأستاذ وحيد في عيوننا. كان الإفطار بخبز الطاوة شهيًّا جدًا، ذكرني «بالملوح « الذي تشتهر به بعدان حيث ولدت ذات يوم أخضر.

****

لا يمكنني أن أصف يومًا بلا عمل أو إنجاز بالشاق والمرهق، لكن يومي كان شاقًا جدًا وأنا أتنقل من مكان إلى آخر سيرًا على الأقدام مضطرًا للتخفي قدر الإمكان، أبحث عن هذا أو أتفق مع ذاك دون جدوى.

حين عدت إلى الشقة الصغيرة مساءً لم أكن أرى أمامي شيئًا، ليس بسبب الظلام الذي اعتادته عيوننا بل لأني تذكرت أنني لم آكل منذ الصباح شيئًا سوى فطيرة الخالة أم ناجي. نسيت الجوع وأنا أفكر

بكل ما ينتظرني من واجبات، والآن أشعر به يلسع جوفي بقوة وأكاد لا أرى أمامي من شدة الإعياء.

بحثت في الشقة ربما أجد شيئًا يؤكل فقد سبق أن وجدت فيها أشياء كثيرة تخص الشباب الذين كانوا يقيمون هنا، وجدت علبة فول مدمس تبدو مثلي بحالة سيئة، فتحتها دون الاهتمام بتاريخ صلاحيتها، ورغم اللزوجة الخفيفة التي بدت في حبات الفول إلا أنني تناولتها في ثلاث دفعات بسرعة كي أنسى مذاقها الحامض كرائحة الأسفلت الحار، ارتميت على فراشي منهكًا محبطًا كما لم يحدث من قبل.

فكرت فيك يا عفراء.. كعادتي حين يشتد القيظ أفكر بواحتي البعيدة، كنتِ قريبةً مني في ذات الحجرة تمسكين قلمًا وورقة وترسمين حروفًا ورموزًا، وتريني كيف أصل إلى الله، لكنّي لم أكنّ أريد أن أصل إلى الله. كنت أريد أن أصل إليك أنت.. وأنت تتباعدين. وأنا أخط بقلمي حروفك ورموزك التي تهمسين لي، أدس بينها كلمة « أحبك « فتمحينها بأصبعك وأنتِ تبتسمين، فتغرق الكلمة في دمعة كبيرة ذرفها قلبي العاجز أمامك.

عفراء لماذا ترفضين كلمة أحبك؟ يا لألمي! أحشائي تتمزق ألما. واستيقظت على نوبة ألم حاد في بطني تناثر لها خيال عفراء في الحلم.

اندفعت إلى الحمام بسرعة وتقيأت؛ تقيأت حتى ظننت أن أمعائي خرجت أيضًا، كنت أتقيأ جاثيًا على ركبتيّ وساعداي فوق أرضية الحمام التي بللتها دون شعور، قوة الألم تركّعني قسرًا على الأرض، أتشبث بالبلاط الأملس عبثًا وأنفاسي تتقطع مع دفعات القيء الحارقة.

أدركت أن علبة الفول منتهية الصلاحية، لعله تسمم غذائي أو تسمم عاطفي، لا يهم كلاهما يؤدي إلى حالة وفاة غبية أشبه بانتحار. ظللت أشرب الماء طوال الليل وأتقيأ، اتسعت عيناي كصحون الفناجين حين بدأ الموت يزحف من أطرافي أزرق اللون بارد، يسلبني الروح رويدًا خلسة من نبض قلبي المتصاعد، أنفاسي صارت شعرات يقطعها لفحه القادم، لساني صخرة تسد ما تبقى من منافذ تنفسي، تحجرت شفتاي وعجز لساني عن التحرك.. زارني الموت فعلًا فهل سيأتي مرة أخرى بهذه التفاصيل المخيفة؟ مع أول خيوط الضوء استسلمت للنوم أو الإغماء.

****

الموت لا يعقد الصداقات مع أحد.. إنه فقط ينظر بازدراء لمن يطلبه عنوة دون الموعد، قد يلتقي بك صدفة في أحد منعطفات حياتك كي تتعرف عليه بنفسك كم يبدو قاسيًا وباردًا، يطلق أنفاسه في بدنك، فتتسع عيناك حتى المدى ولا ترى حولك أحدًا، تتثلج أصابعك وترتعش وأنت تتشبث به للحظات، ثم يمضي بعد أن يتركك تواجه رعب اللقاء، فأنت لن تخرق ناموس الموت وتختار زمن الرحيل. الحياة جولات صراع بيننا وبين القدر ننتصر مرة وينتصر ألف مرة.

حين يفلتك الموت من بين ذراعيه شبه جثة شاخصة البصر لا يعني أن حياتك غالية عليه، بل هي رخيصة حد التفاهة؛ هي غالية عند أولئك الذين يحبونك حقيقة ويهرعون لاستعادتك من فم الموت البارد قبل ابتلاعك تمامًا.

منذ أتيت إلى هذه الحياة وأنا أكوّن علاقات بأشخاص قد لا أفي بكامل حقوقهم، عاجز أن أفي بحق نفسي فإزهاقها لا إراديًّا كل مرة أفشل في التفاهم معها. أين أولئك الذين يحبونك يا وحيد؟ لقد أصبحت وحيدًا فعلًا..

_ أستاذ وحيد.. وحيد.. أستاذ وحيد؟

أفقت ولم أفق تمامًا.. الصوت يأتي من مكان بعيد وطرقات تصيب رأسي مباشرة مع كل هتاف باسمي، طرقات قوية وكأن رأسي صندوق خشب يحتاج إلى الفتح، وأخيرًا اقترب الصوت.. إنهما ناجي ووالدته..

حين أفقت للمرة الثانية كان الأمر مختلفًا، كان هناك جارنا الطبيب، وإناء يتصاعد منه بخار يحمل رائحة شوربة حقيقية، كنت سعيدًا ومحرجًا.

أخبرني ناجي أنهم شعروا بالقلق لعدم خروجي لليوم الثاني، واضطروا لخلع الباب عندما لم أجب نداءهم، قالت الخالة أم ناجي إنني بدوت مريضًا يومها وأنا أصعد إلى الشقة وأدركت بأني لن أكون على ما يرام ولا يوجد من يهتم بي.

«آه.. لمثل هؤلاء الناس الطيبين حاولت يومًا أن أصنع شيئًا وفشلت، حاول الكثيرون لكن طوفان الفساد والخيانة فتح أبواب الوطن على مصراعيه للدمار والخراب.

ما ذنب هؤلاء البسطاء كي تتلاعب بمصائرهم وأمنهم أهواء

أقلية غلبها الطمع وعشق السلطة، وفي سبيلها يضحى بالأرواح البريئة وقوتها وسلامها.

أصبحت طريح الفراش في ضعف المرض والعجز النفسي عن مقارعة اليأس؛ أهذي بك يا عفراء يا وهمي الجميل. لم يعد يذكرني بعالم المشاعر الدافئة إلا اشتياقي لك كلما لاح طيف خيالك.

لم أعد أتمنى أن أداعب أطراف أناملك أو أقبلها امتنانًا للحياة التي ترسمينها في كياني، أصبحت متواضع الحلم، أحلم بصوتك فقط.. نتحدث عن الشعر الذي جمعنا عشقه، عن تلك الروايات التي تبحثين فيها عمن يشبهني وعمن تشبهك من أبطالها العاشقين. نتذاكر شيئًا غير الحرب والدماء، غير الفقر والشقاء. نتذكر الموسيقى التي تشبه صوتك في أذني. فهنا لا تصدح بجراءة سوى «زوامل» الحرب داعية إلى الموت من أجل الحياة؛ وأنا سئمت الموت من أجل الحياة، اشتقت للحياة من أجل الحياة.

هنا محرم علينا الغناء والحب والحياة، وحلال لنا الموت والشتات والبكاء.

هل تلاشت عفراء!! كانت تتداخل في خيالي بالوطن، كأنها تحل فيه أو يحل فيها.. لا أدري!! في البداية كانت عفراء وطنًا أتمنى الوصول إليه. ثم أصبح الوطن هو عفراء الذي أنتظر عودته. نعم أريد وطني المسروق من قبل الظلام والظلم والمليشيا.

وطني الساحر البدائي البكر لوثه الغاصبون من الوافدين إليه

بأطماعهم، وأحالوا أحلام مستقبله إلى أنقاض. فقتلوا فينا الرغبة في الحلم.

لم يتغير الحال رغم تطهير مدينة عدن من سطوة المليشيا والأمل بعودة الدولة، امتدت أصابع العبث إلى كل ركن تحت مسمى تنظيم القاعدة أو ما تسمى «بداعش» ذات الأيدي المجرمة بأسماء متعددة.

«عدن» عروس البحر الأسطورية كم عانت في تاريخها كله من غزاة وطامعين بجمالها وموقعها، كم قاست من غدر وقتل واضطهاد من غزاتها؟ ليغسل البحر أحزانها وتنبت من جديد على ضفافه عروس بحر مكبلة بشتات الوطن.

أصبحت عدن مسرحًا للاغتيال الممنهج، ومرتعًا خصيبًا للتصفيات، فوضى أمنية تعبث بالمدينة الجريحة، عادت إليها عفراء آملة بمستقبل مختلف، وحين عادت وجدت أن الخطر ما زال رابضًا في أحشاء حواريها، فنادقها وحتى مجاريها، قررت الهجرة للأبد. في رسالة لها تقطر حروفها وجعًا:

(عزيزي وحيد.

انتظرت كثيرًا أن توافيني إلى هنا مع عائلتك كما كنا نتمنى ونحلم، لكنك لا تريد يا وحيد أن نلتقي؛ أنت فقط تبقيني على مسافة حلم وأمل كي لا يقتلني اليأس، تمنيت أن يأتي هذا اللقاء كثيرًا في خيالي، لكننا الآن ربما لن نلتقي. سأهاجر هذه المرة ولا أدري هل أعود.

_ آه يا عفراء. نحن منذ البداية لم نلتق، كل شيء حولنا يقول: إننا لن نلتقي.

_ لأنك تفكر هكذا.. أما أنا فأشعر أنه سيكون لنا لقاء والكون كله حولي معي يقول لي ذلك، لكن حينها عليك أن تتقبل رؤية تجاعيد وجهي، وتمسك يدي المعروقتين بذات الشغف، عليك أن تراني كما أراك دائمًا يا «وحيد» حبيب روحي.

يا ألمي.. كل شيء أتمناه يتلاشى. إنها عفراء من ستبتعد هذه المرة ربما للأبد.. وكأنما في عُرف القلوب من عمرها بالحب له الحق أن يحرقها بالفقد.

ننام.. وخيباتنا لا تنام؛

تأتي على شكل رؤى

تحيل ليلنا إلى نهار تؤرقه الخيبات..

(وحيـــــد)

في المساء وأنا عائد من سعيي المعتاد لمحتها كانت تسير خلفي في أزقة الحي المظلمة إلا من شعاع باهت للقمر، لم تكن رجلًا فمازال لدي ذلك الإحساس المرهف في التقاط ذبذبات جسد أنثى، لا.. لم تكن مخبرًا أو متلصصًا، فهيئتها تتثنى بليونة أنثى حقًا وليس تصنعًا. توقفت في مدخل عمارة أم ناجي وأنا أفكر: لو كانت امرأة وقد عرفت أني أتخفى هنا منهم، ربما ترغب في مكافأة ما.. رغم أنهم لا يكافئون أحدًا حتى الوشاة مثلها بل ربما تتعرض للإهانة كمكافأة بسببي.

فجأة وجدتها أمامي تفصلني عن تحليلاتي للحالة القائمة، تحاول الوقوف بشكل جذاب ومغرٍ، فقلت لها بهدوء مصطنع:

_ نعم؟ ماذا تريدين مني؟

رفعت النقاب المهترئ عن وجهها الملطخ بالأصباغ وقالت بغنج مقزز:

_ ظننتك تريدني أنت.

قلت لها بهدوء حقيقي وقد تناهى لفهمي مغزى حركاتها وعبارتها:

_ لا.. شكرًا. لا أحتاجك. ثم صرخت بصوت هادر وقد فقدت كل هدوئي المصطنع والحقيقي: ما الذي يجعلك تفعلين هكذا يا هذه؟ هل البلد ينقصها أمثالك؟ تبدين سيدة محترمة فلماذا هذه الطريق الملعونة؟ بصقت قطعة اللبان من فمها وهي تقول بصوت عنيف: إنه الجوع.. الجوع الذي لا يعرفه أصحاب ربطات العنق مثلك، لدي أسرة أعيلها وينتظرون مني مالًا وطعامًا كل يوم. قلت لها ساخرًا من نفسي:

_ أنا أيضًا منذ أيام لا أجد ما يسمى وجبة مشبعة.. لكنني لن أفعل مثلك لو كنت امرأة، لن أعرض جسدي للذئاب، قديمًا كان العرب يقولون: الحرة لا تأكل بثدييها أي لا ترضع أبناء الغير بأجر وهي حرة، ولكن أنتِ وأمثالك تأكلن بمؤخراتكن باسم الجوع، لا يا سيدتي أنت لن تكوني حرة ولن تنعمي بالحرية ما دمت تبيعين جسدك لمن يدفع، أنت عبدة لكذبك على نفسك فلتذهبي للتسول خيرًا لك، يكفي هذا الوطن جراحات حتى تقتلون شرفه أيضًا. كانت تقف بصمت أمام خطبتي تلك، يبدو أنها سمعت مثلها قبلًا وأنها لا تبالي بصدقها، فالخطب العصماء لا تسد الجوع أو تسكت الأطفال المنتظرين.

قلت لها منهك القلب تمامًا:

_ انتظري هنا سأجد لك شيئًا تأكلينه أنت ومن معك أو مالًا تشترين به.

صعدت إلى شقة أم ناجي؛ هي سيدة طيبة ومنفقة، شرحت لها عن المرأة التي تقف بالباب في حالة يرثى لها وتستحق المساعدة،

عادت أم ناجي من داخل منزلها بكيس من النايلون فيه طعام وخبز ومدت يدها بحرج بمبلغ من المال تتحاشي هي الاطلاع عليه كي يحسب لها صدقة خالصة. وأنا أناول المرأة قلت لها مودعًا: اهتمي بإنسانيتك أرجوك..

تلك الليلة لم أنم..

لقد هزني تصرف تلك المرأة التي عرضت نفسها بسبب الجوع؛ في البداية كان ألمًا وطنيًّا لشعوري بهول الكارثة التي أحدقت بأخلاق البسطاء من أبناء وطني بسبب تردي أوضاعهم المعيشية، ثم أصبح بعد ذلك ألمًا عاطفيًّا وأنا أتذكر المرأتين الوحيدتين اللتين لمستهما في كل حياتي، أتذكر خشيتي من نفسي. أنا الفتى القروي الذي يرى في النساء محاريب للصلاة وليس للشهوة المحرمة، أتذكر حين امتدت كفي تتشبث بكف أنثى غير زوجتي وترفعها نحو شفتي في قبلة ملتهبة، أتذكر تلك الرعشة المنتشية التي سرت في كل جسدي حين اقتربت مني عفراء حتى تنفست أنفاسها، وطوقت عنقي ذات يوم بعيد لتمنحني الشهد بقبلة.. قالت يومها تبرر لي تصرفها:

_ المرأة لا يملكها إلا من تحبه فعلًا، هي لن ترى نفسها خاطئة لو منحته أحضانها وقبلاتها برباط روحي فقط. كأنها تعلم ما يدور في رأسي من وساوس أذهبت سكرة تلك القبلة، يظل الرجل الشرقي لا يثق في أنثى أحبته ومنحته نفسها وإن أحبها، سيظل يفكر أنها امرأة رخيصة. ما الفرق بين عاشقة ترضي نزوة حبيبها دون زواج شرعي وبين امرأة ليلٍ تهب جسدها لمن يدفع الثمن؟ ستوضع كلتا المرأتين

في سلة السفالة والعهر في عيون رجل لا يفهم كيف تحب الأنثى، سيجد ما يبرر لنفسه السقوط في الخطيئة ولن يجد لها سوى وصف السافلة.

لا سبيل إلى النوم؛ نهضت مكروبًا أجمع كل ربطات العنق الجميلة والثمينة التي أملكها، صعدت إلى سطح العمارة أتنسم هواء الليل الحزين والقاتم..

أشعلت أول ربطة عنق كنت قد اشتريتها لحضور مقابلة صحفية مع وزير فاسد لعلها كانت سببًا في خنق عباراتي التي أردت قولها له: أنت سارق سيدي الوزير، أنت رجل غير شريف تسرق الشرف من البسطاء وتنسبه لنفسك.

توالت اشتعالات ربطات العنق حتى تلك التي اهدتني عفراء ذات مساء ونحن نتناول العشاء خلسة من قرويتي المتزمتة في أحد المطاعم الفخمة، أشعر أن حبال صوتي المخنوقة لسنوات تتحرر من ضغط ربطات العنق الملونة.

كل شيء تغير فعلًا.. إنما للأسوأ لقد جنينا ثمرة السكوت عن الباطل والقبول به. أصبحت الحياة لا تطاق ونحن نرى البلد يتدهور في كل شيء، هل سيحكمنا هؤلاء الهمج فيجوع الشعب في سبيل الله ويموت في سبيل الله وتباع أعراضه في سبيل الله؟

الله الذي كان في قلوبنا أمنًا أصبح في جيوبهم سرقة، وفي فوهات مدافعهم موتًا يوجهونه إلى صدورنا رصاصًا وخوفًا.

انزاحت ميليشياتهم عن عدن فأصبحت مدينة تعز هي قلب اليمن النازف؛ كل يوم دماء جديدة؛ لا شيء في الأفق يدعو للأمل أن شبح الحرب سيغادر هذا الوطن الذاهل من مجريات الأحداث وبطئها الشديد بعد أن كان تسارعها يربك التفكير.

محادثات السلام عند صناع الحروب تبوء بالفشل، وآمال البسطاء بتلك المحادثات تذهب أدراج الرياح. حتى سلام الضعفاء لم يعد مقدورًا عليه.

أخبار انتصارات المقاومة هنا أو هناك تشبه حبوب المورفين لتهدئة الأعصاب وتخديرها بوهم النصر؛ كلما اقترب الجيش الوطني شبراً تراجع عشرة لأسباب لم تعد مفهومة. نحن فقط من يرى حاضرنا إلى أي مدى أصبح بائسًا لا يحتمل، نعيش يوميات عجيبة نشتري فيها أقواتنا وحاجتنا من الوقود من أسواق سوداء صارت بكل ركن تستفز وتسخر من حلم المدنية ودولة النظام والقانون.

الفوضى الأمنية وانتشار السلاح الذي فاق كل حد تعارفت عليه البيئة اليمنية، هدر الدماء لمجرد الاشتباه أو الاختلاف، الاختطافات والتصفيات الجسدية كل هذا يثير في النفس اليأس. المداهمات وانتهاكات حرمة البيوت والاعتقالات التي لا تتوقف إلا لتزداد كثافة لمجرد الانتماء أو استنزاف المال من أهالي المختطفين والمعتقلين. الدولة مختطفة لدى عصابة تستهدف التكسب وإلغاء الهوية في آن واحد لا يردعها في ذلك شيء أو وعي. ومع ذلك يبدو لنا أن الحياة تسير بشكل طبيعي، الناس مازالوا يعيشون كما هم قبل عقود يستلذون

عذابهم فقد تعلموا أن المؤمن مبتلى، يصبرون لأن الله مع الصابرين، وينتظرون الجزاء في الجنة لأنها دار الفقراء والمساكين..

****

اشتقت لعائلتي..

الشهور الأخيرة مرت كأعوام ثقيلة أحملها وحدي، الآن فكرة السفر إلى مدينة «إب» لا تغادرني وليس أمامي سوى التسلل إليها عبر نقاط تفتيش تصطاد أمثالي من الثرثارين، توجعهم كلماتنا فيردونها رصاصًا يخترق رؤوسنا، لكنني في حكم الميت فلماذا لا ألقي نظرتي الأخيرة على أمي وأبنائي وزوجتي وكل أهلي. تحدثت مع أحمد النويرة منقذي الدائم وصديقي الأثير. طلب مني مهلة أيام كي يبحث عن سيارة مسافرة إلى هناك يثق في راكبيها تحاشيًا لأية وشاية.

أمضيت تلك الأيام في التقاط هدايا محببة وخفيفة الحمل للأولاد ولزوجتي وأمي وأخوتي، زيارة الأسواق الشعبية تجربة لم آلفها من قبل فكل المشتريات ومن ضمنها ثيابي وأشياء تخصني من مهام زوجتي، لم أكن أسألها من أين أو بكم؟ فقط هي تطلب وأنا أدفع ويعجبني كل ما تشتريه للبيت ولها ولي أيضًا. كذب الذين قالوا إن التسوق متعة، ربما يقصدون التسوق في غير بلدنا وأسواقها المكتظة بالمقلد والزائف غالي السعر لدرجة تشعرك أنه يتم سرقتك ولا تقوم بالشراء، ومع هذا أتعاطف كثيرًا مع كل هؤلاء الباعة الذين يفرشون بضاعتهم المتواضعة على الأرصفة يستجدون المارة الشراء أو القبول بالاحتيال، أرتضي احتيالهم بقلب مبتسم فهم يطعمون بطون أطفالهم

الجائعة، كيف لا وهناك من ينحني احترامًا للصوص الأوطان المتخمة كروشهم بأرزاق هؤلاء البسطاء.

لم يعد غريبًا أن ترى النساء يتسولن على الأبواب وفي الطرقات بهيئات تثير الشفقة نساء كن مكرمات في بيوتهن فقدن العائل وأخرجتهن الحاجة، لكنك لن تجد بسهولة سيدة أربعينية ما زالت تحمل هيئة الشباب وهي تعمل في «بسطة « لبيع الأحذية.

وجدتها على الرصيف في سوق عادة يكون في وقت من الأوقات مزدحم جدًا بالناس، وجدتها وهي ترتب بضاعتها وتنفضها من الغبار وتعتني بوضع تشكيلة أنيقة ملفتة لجذب الزبائن، تعجبت من كونها في زحام السوق خاصة هذه الأيام والشوارع تعج بالبسطات والناس بفعل قلة الأشغال والأعمال وكلهم رجال فبدا وجودها مستنكرًا ليس لي فقط إنما لكل من يمر جوار بسطتها، سيقف ليبايع قليلًا حتى لو لم يفكر بالشراء لمجرد الفضول والتندر.

قلة من الناس سيحترمون تصرف هذه السيدة التي خرقت السائد والمألوف بتصرفها وأصرت على أن تعيل أسرتها بالعمل وليس بالتسول ما دامت قادرة بدنيًّا.

من المتعارف عليه هنا أن تلجأ النساء الأميات لأشغال محددة كالخياطة أو العمل في البيوت أو انتظار المعونة من الآخرين. يتقبل الناس رؤية شابة تتسول لكن من المستنكر رؤيتها تبيع عقود الفل في الجولات وعلى الطريق. نظرة الناس لم تتغير كثيرًا للأنثى التي تقتحم مجالًا للعمل لم يكن مشروعًا من الأعراف والتقاليد، مازالت هي تلك النظرة البدائية المشككة في أخلاقها وأدبها وحيائها.

أذكر في صغري حين كان الناس ينظرون شزرًا إلى مهنة ملائكة الرحمة من «الممرضات» لأنها مهنة جديدة صنفت كعيب وجرأة. إننا نتغير ببطء عجيب وستظل نظرة المجتمع قاصرة للمرأة حتى آخر الزمان ما دامت متوارثة بعناية كعرف سائد لن يتبدل.

أنهيت فترة التسوق التي أخذت من جهدي ووقتي الكثير لأني لأول مرة أهتم بأسعار ما أشتريه أكثر مما أهتم بنوع ما يمكنني الحصول عليه.

وأخيرًا جاء اليوم الذي حدده لي أحمد النويرة للسفر، كان صباحًا مشرقًا لأوائل شهر سبتمبر المجيد، يمكنني أن أقضي عيد الأضحى مع الأولاد وأحتفي أيضًا بذكرى ثورتنا العظيمة ٢٦ / سبتمبر سأقول لصغاري ماذا يعني لنا يوم الثورة المجيدة وكيف يريدون طمس هذا اليوم الذي لم تصنع أشعته شمس الضحى بل صنعناه بأيدينا، كما نظم أبو الأحرار «الزبيري».

كلما أتت ذكرى ثورة سبتمبر عادت بي الذكرى إلى ذلك الرجل الشامخ الذي رأى في ولادة الجمهورية ولادة له هو، «عبد الله اليمني» كما يناديه رفاقه في الجيش وكل من تعامل معه وكما عرفته أنا في إحدى المعاملات الحكومية التي اضطررت لها. لقد غادر صنعاء في أول أيام اجتياح المليشيا، لم يحتمل صنائعهم في جمهوريته التي عشق.

عبد الله اليمني يحب الصحفيين خلافًا للكثيرين من المجندين، يعشق المبادئ العظيمة لحملة الكلمة حتى إنه الحق أحد أولاده بكلية الإعلام حبًا في الصحافة وتنوير الناس كما أخبرني ذات يوم جمعتنا فيه جلسة مطولة وأنا أنتظر إنهاء إجراءات معاملة لي في مرافق الدولة.

رجل مفعم بحب الجمهورية والثورة أكثر من أي شخص قابلته في حياتي، ذلك اليوم سألته بفضول: متى بدأ عشقك للجمهورية والثورة يا عم عبد الله. فقال باعتزاز وعيناه تشرد بعيدًا:

ـ منذ طفولتي حين كنت ألاحق أمي بأسئلتي المستطلعة: متى ولدت يا أمي؟ فتجيبني بفخر: يوم «قرحت» الثورة يا عبد الله، ولدت أنت والجمهورية في نفس اليوم. وكنت أرى فخرها ينتقل لي فتزيد تساؤلاتي:

ـ لماذا قرحت يا أمي؟ ومن هي الجمهورية؟ فترد بلا ملل:

ـ لأن الناس تعبوا من الظلم والعبودية التي حكمتهم بها الإمامة، والجمهورية هي الحرية والكرامة، هي مستقبلك ومستقبل أولادك.

ـ وكيف قرحت يا أمي؟

ـ انفجرت في قلوب الناس حبًا لليمن وللحرية، انفجرت ثورة الأحرار ضد الطغيان وأعلنوها حرية من الأئمة الطغاة.

كانت تساؤلاتي لأمي وأنا في العاشرة، ما أزال صغيرًا أحمل المحراث خلف الثور وأرمي الحب في الأرض التي صارت جمهورية بعد أن انتزعتها عائلتي من عسكر الإمام. طلبت منه أن يقص لي قصة هذا العشق الفريد قائلًا:

ـ وماذا بعد يا عم عبد الله لقد حدست أن لك قصة تشبه ثورتنا العظيمة فعلًا. فيستوى على الأرض جالسًا وبدأ يسرد حكايته:

_ لم يطّل مكوثي في القرية فقد ترك أبي وعائلته الصغيرة جدي وأعمامي لنستقر في المدينة. قال لي أبي يومها: يجب أن تلتحق بمدارس الجمهورية وتتعلم كي تحميها فلا تعود أزمنة الجهل والمرض. أبي ذاق مرارة القهر في سجون الإمامة وضُرب القيد على رجليه سنوات من أجل قطعة الأرض، لقد أكل الجوع حتى شبع وعاشر المرض حتى ضعف جسده، يقص عليّ أنا وأخوتي كيف أن الجمهورية أنهت أسوأ أزمنة الظلم والقهر والجهل وصنعت مستقبلًا أفضل. يلقننا قصائد الزبيري وسير أحرار الثورة كشيء مقدس، يقص علينا حكايات يوم لم تشرق شمس على أفضل منه في عمر اليمن. أبي ذاكرة شعب وقلب تألم كثيرًا، فكان امتنانه ليوم السادس والعشرين من سبتمبر يوم مولدي ومولد الحرية. لم أكمل دراستي فبعد سنوات من التحاقي بالمدرسة مات أبي؛ فقد أثرت فيه سنوات القيد، وبعد وفاته طلب منا عمومتي العودة إلى القرية، لكنني صرت رجلًا كفاية كي أحمل أعباء الأسرة وتربية أخوتي لذا تركت الدراسة وخرجت إلى الحياة كي أطلب الرزق من أجلهم.

كنت أريدهم أن يتعلموا ويصبحوا كما تمنى أبي من رجال الجمهورية التي تغنى بها، وقمت بذلك إكرامًا لروح أبي وتأدية لحقهم عليّ كأخ أكبر. ولأن أبي غرس في قلبي الولاء لجمهوريتي لم أجد عملاً يليق بي سوى العسكرية.

كل سنوات عمري التي كانت تزيد وتتراكم صرفتها من أجل وطني الصغير «عائلتي» ثم وطني الكبير «الجمهورية اليمنية» في كل

عمل كنت أفعله كنت أيمم به شطر وطني. حقًا لم أكن مسؤول دولة كبيرًا بل ذلك الجندي المجهول الذي لا يُفتقد إن غاب ولكنني كنت أحمل المسؤولية نحو كل ما يحويه بلدي. أشعر بمسؤوليتي نحو أشجاره وهوائه وسمائه وسلامه وراحة أناسه مهما تسببوا في أذيتي يومًا من الأيام ما داموا يحبون بلدهم وجمهوريتهم.

أطمح لإزاحة نظرة الناس لكائن العسكري الذي ورث تراث عكفة الأئمة من النكاية بأبناء الوطن فعسكري الجمهورية ليس كعسكري الإمام أبدًا. حاولت أن أكون جنديًّا متفانيًا.. قاتلت سنوات طويلة في صعدة معقل الإمامة وحاضنة الشر الذي يتربص بالجمهورية وفي إحدى المعارك الملتهبة بالرصاص والدم في محيط مركز مديرية غمر في منطقة قلّة البياد وفي خندق واحد مع الرجل الأسطورة «جبران ضيف الله جبران» أصبت هناك بشظايا انفجار مزق جهة كاملة من جسدي ومنحني إعاقة حرمتني المواصلة. لم أيأس بل قررت أن أخدم وطني في أي عمل أقدر عليه في مرافق الدولة.

أحب وطني يا أستاذ وحيد ذلك الحب الذي إذا تشربت به الروح لا يزول أو يفتر مهما تنكر لي الوضع أو تجاهل حقي من يسمى المسؤول. كعاشق لهذا الوطن كنت أعلم أن فيه الكثير من الألم. وكعسكري في مرافق الدولة كنت أرى الفساد ينخر في الجسد الذي يضمنا، الذين نبتوا على أكتاف الأحرار كالطفيليات وصار الأمر لهم، يتحكمون في رقاب الناس وأقواتهم ويشوهون معنى الجمهورية التي لم يؤمنوا بها أبدًا. الجمهورية ليست عرضًا عسكريًّا لجيش يقمع

شعب الجمهورية نفسها وليس أعلامًا فقط. إنها الحرية والكرامة كما قالت أمي التي عاشت عهود الظلام الإمامية. الجمهورية ليست عائلية أو محسوبية، إنها الحق لكل فرد في الوطن.

واستيقظت ثورة السادس والعشرين من سبتمبر شابة فتية في ١١ فبراير تهز عروش من حادوا عن الدرب لتخبرهم أنها جمهورية وليست عائلية.

وقمت بواجبي كما أراد أبي، أدافع عن جمهوريتي في ساحات النضال السلمي فلن أدافع عن عائلة سرقت خيرات الوطن والشعب.

كنت في الخمسين شيخًا قد هدني طول الخدمة العسكرية في كل عمل كنت أقدر عليه، لكنني لم أترك للشباب فضل الدفاع عن أقدس أهداف جمهوريتي.. الحرية.

أصبت في جمعة الكرامة إصابة بليغة لكني لم أعد خائبًا ألعق جراحي، بقيت حتى عاد كل فرد إلى أهله سالمًا؛ ومن ارتقى شهيدًا ففي سبيل الحرية والجمهورية. دفعت أبنائي ليكونوا جميعًا رجالًا لها، وحين قتل ولدي الأكبر في جريمة السبعين الذي تناثرت فيها أشلاء عشرات من أبناء اليمن لملمت جراح روحي في سبيل الوطن. فكيف لا تسري دماء وروح الجمهورية في روحي وقد عشت كل عمري لها.

قرر عبد الله اليمني أن يرحل إلى ساحات المقاومة هناك في مأرب أتذكر كلماته الأخيرة لي فقد ربط بيننا حب الجمهورية وكراهية الإمامة:

_ لم نتخيل أن الأيام والسنوات حبلى بالغدر، عاد الأئمة على أكتاف الخونة يقتطعون من جسد الجمهورية قطعة تلو أخرى ونحن غافلون لقد استحالوا لسرطان يتفشى خارج صعدة ويزحف نحو العاصمة ويلوثها، عادوا بحقدهم وعنصريتهم كسادة ونحن العبيد، كأنهم يريدون طمس يوم مولدي يا أستاذ وحيد، يريدون إلغاء وجودي أنا اليمني، ولدت مع الجمهورية وسيبقى كل يمني مع الجمهورية لن يقتلوها أو يدفنوها وأنا وكل وطني الكبير نحيا بها ومن أجلها. سأحمل سلاحي وجراحي وأحزان أبي لو علم بمحنة الجمهورية وأعود إلى القتال في جبهات النضال أموت أنا وتحيا الجمهورية.

****

اصطحبني أحمد النويرة إلى مكان انتظار السيارة في مدخل صنعاء الشرقي، كان امتناني له يفوق الوصف. «ما أروعك يا صديقي وأنت تحرص على أمن وسلامة كل أصدقائك وتعرّض نفسك للخطر كي لا تخسرهم.

السيارة التي تنتظرني سوداء اللون بهية كغزالة إفريقية، ذكرتني بأسطول سياراتي التي تم نهبها، كل الركاب فيها شخصيات معروفة في مجال الصحافة والمنظمات الحقوقية.

ذاهبون كي يعدوا تقريرًا لمنظمة حقوقية شهيرة عن أثر عدوان قوات التحالف على مدينة إب أسوة ببقية المدن التي تم القصف فيها لمنازل مدنيين.

ولأننا جميعًا ندين سقوط الضحايا من السكان الأبرياء كانت رحلة موفقة تخللتها بعض النكات البذيئة ضد كل الأطراف بلا استثناء، كما تم تجاوز كل النقاط التابعة للمليشيا بسلام.

الطريق من صنعاء إلى إب تستمر أربع ساعات تقريبًا تبادلنا فيها أحاديث مختلفة، لكن ما إن وصلنا إلى مشارف مدينة إب صعودًا نحو نقيل سمارة بعد مديرية يريم حتى فرض الجمال صمتًا متأملًا لسحر هذه المدينة، نسيم هوائها شيء آخر يخترق حواسك ليقول لك تنفس عميقًا أنت في إب الساحرة.

وما هي إلا ساعة ونصف حتى عانقنا ضجيج المدينة المكتظ في مدخلها القديم قرب «خليج سرت» حيث أقيم مخيم شباب ثورة ١١ فبراير قبل خمسة أعوام.

ها أنا أسير مجددًا في شوارع تعانق خطواتي فقدًا، هنا سرت منذ تعلمت خطواتي الابتعاد، وكأنها التقطت وقع تلك الخطوات فرحبت بالقدوم القلق ببث سكينة انتشرت في كل بدني وروحي. هذه هي مدينتي المسالمة التي لم ترفض أحدًا من قبل حتى الغزاة. هذه مدينتي الخضراء التي صيرها خير تربتها مهوى أفئدة الإقطاعيين واللصوص وناهبي الثروات، هذه مدينتنا التي أبقت لنا من جمالها الفتات بعد أن قطعت أوصالها أسر الإقطاعين التي جاءت من الشمال لتنهب حق أبناء الأرض.

إب حسناء ترصدتها عيون نهشها رغبة فاستكانت للأيادي التي امتدت لها وصار أهلها يتغنون بمقولة «إب الغنجاء كارهة أهلها ترحب بمن جاء»

رائحة التربة البنية القاتمة تملأ صدري بأريج الأرض، لكم افتقدت رائحة الأرض هذه بعد المطر اشتقت لها كما يشتاق الطفل لرائحة أمه دونًا عن كل النساء.

آه كم أشتاق لأمي ورائحة أمي حين تضع في صدغها أغصان «الشذاب» و»المشقر» فيصبح كل شيء فيها معطر، «مقرمتها» السوداء و»مصرها» الأخضر، أنفاسها، وكلماتها تفوح بالريحان والمشقر.

أشتاق لصوت احتكاك مكنسة القش بجدار التنور المعدني وهي تزيح بقايا الخبز المحترق لتستقبل قرصًا جديدًا ينضج على جدار التنور المتقد.

اشتقت لرائحة الخبز وأمي تلقيه بين يدي ساخنًا يفوح برائحة الشبع وهي تقف بجوار التنور وقد أصبح خداها أشبه بقرصي خبز ملتهب فآكلة قبلات حب. أشتاق لطفولتي.. حيث لم يكن هناك سوى الأحلام واللعب.

وصلت بي سيارة الأجرة إلى مدخل حينًا «وادي الذهب» كما يطلق عليه منذ القدم، لعل الذهب ذاك لم يكن سوى خير الأرض حين كانت وديانًا عامرة بأعواد الذرة وسنابل القمح والشعير الذهبية، الآن ومنذ سكنا المدينة قبل سنوات طويلة اختفى الذهب ليحل محله الصخور المرصوصة بعناية لتكّون بيوتًا تضم أناسًا من كل قرى ومناطق محافظة «إب» في عائلة كبيرة هم أبناء الوديان الذهبية والجبال الشامخة.

«وادي الذهب» اختفت حتى تربته البنية التي كنت ألعب في وحولها وأنا طفل، لقد غطتها وحشية الإسفلت كما تغطي الأصباغ وجوه النساء الجميلات فتفسد جمالهن.

الأسمنت لا يكتسح الشوارع فقط فأحيانًا يرصف القلوب أيضًا حين تعتزل بعضها بعضًا. لقد أصبحت تربتنا البنية العطرة حين يهبط المطر في محميات الأحواش والحدائق البيتية فقط. تسورها جدران الأسمنت أو معدن «الزنك» وهناك أيضًا بعيدًا في جبل بعدان الشامخ الذي يقاوم ثقوب المباني لجسده العظيم عامًا بعد عام مثلما قاوم ضرب المدفعية حين صبت المليشيا غضبها على الجبل ورجاله الجبال أيضًا.

وأنا أطرق باب منزلنا تناهت إلى أذني جلبة الأطفال فطفرت الدموع من عينيّ، كم اشتقت لشقاوتهم وضجيجهم.

وكما تمنيت.. أمي هي من فتحت لقلبي المنتفض الباب كي يلقي بتعبه وانهاكه في أحضانها وهي تصرخ باسمي بفرحة أم: وحيد يا ولدي.

****

مرت أيامي في إب سريعة رغم خروجي النادر من البيت، لم أثق في الخروج كثيرًا «فإب» صارت معقلًا زاخرًا للمليشيا وأعوانهم من أهالي المدينة نفسها، كما صارت مكتظة بالنازحين وغلاء المعيشة يومًا بعد يوم.

ذات صباح وأنا أقوم بجولة في الشوارع الخلفية للأحياء السكنية التي يملؤها ضجيج الأطفال وهم يلعبون الكرة أو «الزراقيف» كما تلعب الحياة بنا تمامًا. رأيتها وقد جلست على الرصيف ينتصب ظهرها كمذيعات التليفزيون داخل جلبابها الأسود ونقابها الساتر لوجهها، عيناها تحدقان في الفراغ كأنهما لا تريان من حولها شيئًا، نظرتها فارغة من الحياة، وقفت بدافع المساعدة التي تسري في عروقي؛ أصبح من المعتاد أن نرى مشاهد صادمة لإنسانيتنا. لم تحرك ساكنًا لفترة طويلة فاقتربت بهدوء محاولًا وضع مبلغ مالي في حجرها، حينها انتفضت قائلة بهدوء: أنا لا أتسول.

اربكتني كثيرًا، مظهرها يدل على أنها لا تتسول فعلًا لكن جلوسها على الرصيف شاخصة البصر يدل على غير ذلك، قلت لها بلطف شديد محرجًا ومعتذرًا:

_ أرجو أن تغفري لي سوء تقديري سيدتي. همست والدموع تتدافع إلى عينيها:

_ لا عليك جلوسي هنا يثير الظنون فعلًا. ثم استطردت كأنها تأثرت باللطف في صوتي: _ كان لي منزل كهذه المنازل التي حولك. تركته خلفي. لم يكن مجرد جدران ضمتني أنا وأولادي وسنوات عمري وكفاح زوجي وصبري على غربته داخل وطنه، كان سترنا الذي هتكه النزوح وأماننا الذي فقد بالحرب، وشبعنا الذي ذهب بالجوع والحاجة.

قلت بمواساة صادقة وأنا أتلعثم حرجًا:

ـ لا ينزح المرء داخل وطنه سيدتي، إنما هو انتقال اضطرتك إليه الظروف: هل أنت من مدينة تعز؟ ردت والدموع تتدفق من عينيها وتبلل نقابها:

ـ نعم نزحنا إلى مدينتكم، وفي طريقنا إلى مدينة إب بكينا كل شيء في مدينة تعز، شوارعها الموحشة عقب القصف وحواريها القافرة بعد كل حزن، وهواءها الذي أفسدته الأنفاس المتكالبة على النهب والسلب. بكيت على بيتي وتلك المشاقر المغروسة في الحوش والتي سيسقيها القصف وحيدة بعد أن غرستها بيدي لأقطفها في أي فرح قادم فأحرقتها الحرب. ما كنت لأترك بيتي لو علمت أن النزوح موت آخر. لكن الهلع على أرواحنا جعلنا نترك كل شيء خلفنا ونهرب بما لا يعوض أو يسترد. أو هكذا كنت أظن.. فقدنا بالنزوح أشياء في غلاوة الروح وقيمتها، فقدنا كرامتنا ونحن نتعرض للإهانة والتهميش في وطن يظن أهله أن كل من مسته الحاجة إما متسول أو سارق. عاد زوجي للسعي في أرض الله كي يؤمن لنا القوت وإيجار دكان ضم أرواحنا والبرد والجوع؛ فصلته عنا مسافات طلب الرزق، لذا اضطررت للبحث عن أي عمل يوفر أبسط متطلبات الحياة لخمسة أطفال كي أساعد زوجي الذي أخشى أن أفقد وجوده لتكالب الحياة عليه. أحيانًا أطرق الأبواب التي أتوسم في أهلها اليسر فتصدني نظرات تستنكر على سيدة مهندمة أن تدعي الحاجة ومظهرها لا يدل عليها،

فهل ينبغي أن أمزق عني الثياب كي يعلم الناس أن أحشائي تتمزق جوعًا. أقول لسيدات البيوت: هل هناك عمل أقوم به لقاء أي أجر؟ فتردني العبارات بالشكر وطلب الانصراف..

إن الخير في الناس يقل ومن تعاطف معي أجده أقرب للحاجة مثلي، قلوب الفقراء أشد عطفًا على من دونهم، ربما لأنه لا يشعر بمعاناتك إلا من لسعه الجوع مثلك.

حياة النزوح موت بطيء لمن لا يملك رصيدًا في البنك أو وظيفة يحول إليه راتبها كل شهر. هي شقاء من أنفاس الحرب وعذاب يجعلك تتمنى لو كفنتك جدران بيتك قبل أن تفقد في طريق النزوح الأمل والثقة بالآخرين. أين نذهب إذا لم نتراحم بيننا ونعرف أن الأيام تتبدل وهل دام لي بيتي ومشاقري وهل كنت أدري أنه سيأتي يوم يكون فيه هذا حالي؟ أين تذهب امرأة مثلي وسط أناس يتناسون أننا في حرب؟

هل أقبل على نفسي السير في طريق شائك أو أغلق الدكان عليّ وعلى أطفالي ونموت جوعًا. كنا مثلكم يا أهل البيوت الآمنة وما كنا ندري أن الحال يحول بنا هكذا.

أنا لن أرفض مساعدتك يا سيدي فهذا حقي عليك كما هو حقك عليّ لو جئتني يومًا نازحًا مع عائلتك. قلت لها متقطع الأنفاس وجعًا وحزنًا:

_ نعم أعرف أن ما تقولينه حق يا سيدتي فأرجوك شرفيني بقبول حقك علي وتعالي معي منزلي قريب، لا تقلقي أنا سأحكي لك عني في طريقنا.

طوال الطريق وأنا أقص عليها مشاهد من حياتي، والدهشة تعربد في أعماقي ليس لثقتها اللحاق بي، ولكن لثقتي أن أقص عليها مشاهد من حياتي أنا.

لم أسافر صنعاء عائدًا بعد أيام إلا بوعد من زوجتي وأمي الاهتمام بتلك السيدة وأطفالها كأطفال لي وأخت جديدة بجوار أخواتي.

****

وما الموت على مبدأ حر معتق
بالكرامـة إلا حيـاة الخلـود.

(محمـــد)

كل صباح منذ سكنت عمارة أم ناجي تعودت أن أستيقظ على صوت مكنسة سعف النخيل وهي تعارك رصيف الشارع المقابل لنافذتي في عداء يومي لكل ما تجمعه الريح طوال الليل من أوراق وأكياس فارغة يخلفها زبائن دكان الشاب عاطف.

يبدأ هذا الشاب يومه بكنس الرصيف بعناية تحسده عليها المارات من النساء الكسالى، طقس يومي يبدو أن الملل لن يتسرب إليه، يتلوه طقس تنظيف الدراجة النارية بعناية فائقة بمشاركة أخيه الأصغر مراد صاحب الصوت الجميل عندما يصدح بأغاني شعبية والذي تركها مؤخرًا ليردد زوامل الحرب لكلا الطرفين بنفس الحماسة.. أحيانًا أقف أمام نافذتي حتى ينتهي عاطف من طقوس صباحه المميزة والتي يتخللها نهره لأخيه الصغير كلما أخطأ في تصرف.

عاطف شاب عشريني نحيل تظل إصبعه تطارد نظارته في محاولة لتثبيتها دون جدوى، يعيل أسرته من دخل الدكان المتواضع وسط الحارة ومن مشاوير الدراجة النارية المتقطعة. في عصر كل يوم وحتى

ساعة متأخرة مساءً يصبح الضوء المتسلل إلى الشارع من دكان عاطف ملاذًا لتجمع الشباب المراهق لتبادل الأحاديث وتناول القات على الرصيف النظيف، أحيانًا تنشب معارك كلامية بين الشباب؛ منهم من يؤيد المليشيا ومنهم من يؤيد ضربات التحالف ليتفق الجميع على النظر لإحدى المارات من أمام الدكان حتى تغيب ثم يستأنف الحديث ويعلو صوت النقاش والخلافات المعتادة.

استيقظت اليوم بنشاط ربة بيت مثالية، يجب تنظيف المنزل المهمل كأي بيت يسكنه رجل لا يملك ذهنه المشتت طوال اليوم ليرى أنه يقيم في مكان أصبح أشبه بحضيرة حيوان وحيد اسمه وحيد، لقد أبلغني الرفاق أن ضيفًا سيقيم معي لأيام حتى يستطيع السفر إلى لمملكة مع فوج آخر من الهاربين، كل ما أعرفه أن هذا الشاب تم اعتقاله من مقر عمله لثلاثة أشهر كاملة وهو يعاني أزمة نفسية خانقة بعد ما لا قاه من معاملة هناك.

انتهيت تقريبًا من تنظيف البيت رغم أخذ عدة استراحات للقراءة وسماع موسيقى تساعدني على الاسترخاء وصنع عدة أكواب من القهوة كلما شعرت بالجوع، البيت خالٍ تقريبًا من كل ما يمكن أكله حتى فطائر الحاجة أم ناجي انتهت، مع حلول وقت الظهيرة تعالت طرقات هادئة على الباب، طالعني على إثرها وجوه رفيقيّ حسن وأحمد النويرة ومعهما شاب آخر يبدو عليه النحول والشرود أدركت أنه ضيفي في السكن، جلبوا معهم الغداء لذا كانت سعادتي بهم مضاعفة.

محمد شاب دمث الأخلاق يعمل مدرب تنمية بشرية في مؤسسة كبيرة ومعروفة، منظره الهادئ ولحيته الخفيفة المهذبة توحي بسلاسة الطبع_ جميل أنه لن ينافسني على شيفرة الحلاقة كل صباح_ أفضل ما فيه أنه لم يتزوج بعد لذا هو حر تقريبًا في تحديد مصيره القادم، ما إن يتجاوز صدمة ما حدث له وتزول علامات الانشداه المرتسمة في عينيه الواسعة حتى يعود لمرح سابق يبدو واضحًا في سجيته وعباراته العفوية أثناء نقاشنا ونحن على الغداء.

قَدِم بعض الاصدقاء عقب الغداء وجلبوا «القات» معهم فكانت أمسية من الماضي الجميل. صدح فيها صوت «أيوب طارش» يحملنا عبر تموجاته إلى عمق الطبيعة اليمنية الموغلة في البساطة والتوحش:

عانقي يا جبال ريمه شماريخ شمسان
وأنت يا وادي القرية تفسح ببيحان
قالوا الأمس في صعدة حصل حفل طنان
والتقينا الجميع في عرس حسناء وحسان
با وزير صدر الحنا مع غصن ريحان
والتتن صدره والبن من سفح صعفان
والتقى الإنسي والمرشدي والقمندان
دان إلا دان بانسمر على نغمة الدان
الحبايب سقى الباري ديار الحبايب

بين سئيون و الحوطة وصنعاء ومارب
قد جمع بالهناء والسعد شمل الأقارب
خل بالخل يتهنا وصاحب لصاحب
والأمور سابرة والخير من كل جانب
والعسل دوعني والبر من قاع جهران
دان الا دان بانسمر على نغمة الدان
حبي الأول الغالي ولي حبي ثاني
كاذية حسنها يسبي ... قد سباني
سحر بئر العزب فيها ونفحة خباني
نور عيني منى قلبي وفرحة زماني
كل شيء ما خلا جبر المحبين فاني
عانقي يا جبال ريمة شماريخ شمسان

«أيوب طارش» حنجرة اليمن الصادحة بكل ألوان الغناء الشعبي الساحر، لم يترك فنًا إلا ووضع عليه بصمة صوته التي لا تبارى في روعتها وتأثيرها على كل فئات الشعب وتوجهاته. تحدثنا كثيرًا و»خزنا القات» أكثر، وغرق كُل منّا في أفكاره الخاصة..

إنه المجهول الذي يتشكل أمامنا يخيفنا أكثر من أمور نعلمها.

مفاوضات جنيف الثانية رغم عدم التعويل عليها إلا أن كل

اليمنيين يترقبون نهايتها حتى بحذاء آخر، مفاوضات هناك ومعارك ضارية هنا، وضحايا يسقطون في كل هدنة واشتعال حرب.

في المساء عقب ذهاب الجميع وبعد جلسة قات طويلة الصمت والبحلقة في السقف طلبت من محمد أن يقص كيف تمّ اعتقاله ربما كنوع من الخبرة الشفاهية أو تمضية للوقت خوفًا من سهر مرتقب بعد أمسية قات طويلة، استرخى على المُتّكأ تحت ذراعه وهو يتنهد بحرقة قائلًا:

_ قصتي لا تختلف كثيرًا عن عشرات من قصص الذين اعتقلوا بلا سبب.

ربما لأن هذه طريقتهم في فرض هيبتهم وسلطتهم كما يظنوا، كانوا في أول أمرهم في مدينة «صعدة» يقتلون شخصًا بريئًا من سكان إحدى القرى التي ينوون فرض هيبتهم فيها بطريقة بشعة حتى يخاف قاطنوها ويغلقون أبواب بيوتهم على أنفسهم مع رحيل آخر خيوط النهار. يفعلون ذلك كي يبثوا الرعب في نفوس الناس ويؤمنون تحركاتهم الليلية تحت غطاء الخوف الذي ملأ القلوب لحادثة القتل المروعة فلا قيمة لدماء أحد في نظرهم. لديهم مقولة معروفة في هذا الشأن صارت قاعدة تكشف أسلوبهم الإرهابي قولهم (اشتر الليل بنسمة) ويتناسون أن القلوب التي تمتلئ بالخوف لا بد أن يأتي يوم وتمتلئ بالكراهية والانتقام.

لقد اتبعوا هذا الأسلوب حتى في مدينتكم إب فقد قُتل أشخاص كثيرون بطرق غامضة وبدون مسببات فقط لإثارة رعب وخوف

الناس فتخلوا الشوارع لإمداداتهم وتحركاتهم نحو تعز. وهكذا هم أيضًا يعتقلون أشخاصًا لمجرد الاشتباه والظن فالكثيرون لا علاقة لهم بالسياسة أو الصحافة، وأحيانًا كثيرة لتحصيل الأموال من أهالي المختطفين، يعتقل أي شخص يعارضهم أو ينوي معارضتهم حسب ظنهم.

يوم اعتقلت كنت في مبنى المؤسسة منفردًا لبعض العمل الخاص بي، حين دوى صوت انفجار زلزل المكان وأرعب المارة في الشارع ومن كانوا في البيوت المجاورة، من النافذة لم ألحظ أي خراب أو حريق فأسرعت لإغلاق باب شقة المؤسسة بالمزلاج بالإضافة إلى المفتاح في قفل الباب، فكرت أنهم قد يقتحمون المؤسسة وأنهم ربما افتعلوا الانفجار بقنبلة صوتية كي يجدوا مبررًا لاقتحامها أو اقتحام منزل آخر، لم تمر دقائق قليلة إلا وقد انفتح باب الشقة بقوة رغم قفلها المحكم، ربما بآلة صنعت لهذا الغرض.

اندفعوا كالقرود داخل الشقة وأحاطوا بي من كل جهة مصوبين إلى جسدي رشاشاتهم واندفع آخرون لتثبيت أطرافي بقبضاتهم وتفتيشي بعنف، كانوا يمزقون ثيابي من على جسدي، ويدسون في جيوبهم كل ما يصادفهم فيها حتى الساعة وخاتم خطبتي الفضيّ، لو استطاعوا نزع ثيابي وارتدائها لفعلوا.

إنهم قطيع من الجياع لما في أيدي الغير، لصوص الله وليس مجاهدين في سبيل الله، نبشوا كل شيء في طريقهم وجمعوا كل ما وجدوه في أدراج المكاتب، محاضراتي في التنمية البشرية ظنوها خططًا

لمقاومتهم فجمعوها أدله لإدانتي أمام نفسي أما هم فكل ما دونهم مدان ودمه مباح كانوا يسألوني عن الموظفين وأين يقطنون ومن هم ومن يمول هذه المؤسسة وأين مديرها وأسئلة لا ينتظرون إجابتها أو نفيها كي يدفعوا في صدري وجانب وجهي رشاشاتهم بعنف وكراهية.

وأمام الخزانة الثقيلة الموجودة في حجرة المحاسب فقدوا رشدهم وهم يتخيلونها مليئة بالمال، طالبوني بفتحها وهم يكادون أن يفتحوا رأسي برشاشاتهم وصراخهم في وجهي بسبابهم ونعتي بالداعشي العميل لأمريكا.

تلقيت ضربات موجعة في بطني وخلف ظهري بأعقاب أسلحتهم، بصعوبة اقتنعوا أنني لست حاويًّا حتى أفتحها دون مفتاح، حينها طلبوا مني حملها أو دحرجتها نزولًا إلى «الطقم العسكري» الذي سيحملني إلى السجن للتحقيق.

الخزانة ثقيلة بسبب المعدن المصنوعة منه، ولقصور تفكيرهم ظنوه ثقل ما بداخلها، كانت فارغة وفي قرارة نفسي كنت سعيدًا بخيبتهم القادمة رغم مهانتي في دحرجتها وسحبها على درجات سلم المبنى نزولًا حتى سيارة الطقم الذي أصعدوني إليه بعد أن ربطوا ذراعي خلف ظهري، طوال الطريق إلى السجن حيث وصلنا، كانوا ينهالون علينا بالشتم، من نحن؟ نحن اليمنيين من غير أتباع سيدهم، نحن كلنا في نظرهم دواعش وعملاء لأمريكا، يرمقون خزانة المال بلهفة وهم يدعون الشرف والغنى وأنهم ليسوا بحاجة لأموالنا التي ينهبوها من جيوبنا أو بيوتنا ومقرات أعمالنا، إنها لدعم جهادهم في

قتلنا وتطهير وطننا منا. نعم يفكرون بقتلنا بدعمنا ولست أدري هل يفكرون؟!!

تؤلمهم عبارة أنهم يكذبون كما يتنفسون فيلقون بالتهم في وجهي لتبرير فسادهم وكذبهم، يرددون في وجهي: أنتم لا أعراض لكم يا خونة يا عملاء، ستهبون أمهاتكم وأخواتكم لأي أمريكي يدخل البلد.

حين وصلنا المعتقل وبعد التحقيق مع كل من تم القبض عليهم في منطقة الانفجار تم إطلاق الجميع فيما عداي أنا، وجدت المشرف عليهم يوصي بي ويقول:

_ اعتنوا بصاحب المؤسسة كثيرًا.

كان الاعتناء واضحًا في معاملة لا تمت للإنسانية بصلة ناهيك عن وطن مشترك ودين واحد، تم وضعي في سجن انفرادي بالكاد امتد فيه لضيقه امتلأ بأنواع القذارة والحشرات، مصمت من كل الجهات ما عدى فرجة صغيرة تعد نافذة.

خلال ثلاثة أيام لم أغادر ذلك المربع كان هناك من يمد لي بقطعة خبز أو شربة ماء من فرجة النافذة، منعوا عني زيارة أي أحد كان، وكل ما كان يصلني من طعام عبر البوابة ينتهي إليهم إلا النزر القليل والذي يبقيني حيًا.

التحقيقات عبارة عن تهديد وتعذيب جسدي ونفسي، هناك رأيت أشخاصًا قد فقدوا القدرة على تحريك أطرافهم لشدة الضرب المتواصل عليها بتركيز يجعل اللحم يفسد ويصبح لونه أسود. كانوا

يهددون بنزع أظافري إن لم أقل أسماء لدواعش كبار حركوا الشارع ضدهم في احتجاجات أو مظاهرات وهل لفلان دخل أم لا؟ وهل علان اشترك في عمليه كذا أم من قام بها؟ وكنت أردد على مسامعهم نفس الحديث: أنني مجرد حارس لمبنى المؤسسة ولا علاقة لي بأحد وأنني يمني ولست داعشيًّا.

ذات ليلة أيقظوني في منتصف الليل تقريبًا وربطوا عينيّ بقوة جعلت آلام وجهي لا تحتمل وأركبوني سيارة الطقم العسكري دون أن يخبروني إلى أين يذهبون بي؟ ظلت السيارة تسير طوال الليل أحاول أن أرهف السمع أو أميز الطريق هل هي مرتفعات أم سهول أم أين سيذهبون بي؟ وحتى الفجر عادوا بي إلى نفس الزنزانة وأنا في حال من الانهاك الذهني والبدني والقلق والتوتر جعلني أسقط أرضًا بإعياء حتى الظهر.

يغيظهم مواظبتنا على الصلاة فينعتونا بالدواعش، كأن ديننا ليس دينهم فلم نجدهم يصلون أبدًا مثل كل السجناء، الغريب أن من يصل إلى السجن في جريمة أخلاقية أو جنائية يعامل بشكل إنساني يصل للحفاوة. وصل أثناء وجودي هناك رجلان بتهمة أخلاقية كانا يتاجران بإحدى النساء الساقطات، أصبحا مشرفين على بقية السجناء ينظمان حركة المساجين.

لعل المعاملة المتوحشة التي كنا نلاقيها هناك تهون أمام دروس العصر التي يلقيها واعظهم أبو حنظلة. كانت تلقى من ملازم السيد الشهيرة والكل يستمع إجباريًّا ثم نؤدي مجبرين الصرخة شعار

الجماعة أيضًا وكأن عقول الناس أوعية فارغة تنتظر أن تسكب فيها ما يراد من هرطقات. أيقنت وأنا أعيش بينهم لثلاثة أشهر أنهم ضحية من نوع ما. غسلت عقولهم من كل معاني الإنسانية والتفكير بصوابية ما يفعلون، هم على يقين أنهم يجاهدون أمريكا فينا نحن بني جلدتهم، وأن دماءنا وأموالنا حلالًا لهم، إنهم أشبه بقطيع من المنومين مغناطيسيًّا، تمت السيطرة عليهم من نافذة الجهل، كيف حولوا الإنسان فيهم لعدو لكل شيء لست أفهم؟

لم يكونوا يثقون في أتباعهم ممن دفعتهم المصالح وشراكة التحالفات للرضوخ لهم، بل يقصونهم عن الأمور المهمة ويتركون لهم اتساخ الضمائر والأيدي بكل شنائع الأفعال.

جلست ذات مرة مع أحد أفرادهم تم إيداعه السجن كعقوبة له بعد أن تعارك مع آخر ربما على غنائم اختلفوا في قسمتها من أحد البيوت، وفي معرض حديثنا قلت له:

_ لا أدري كيف تحتمل رؤية مشاهد القتل والدماء؟ ألا تتمنى العودة إلى أهلك كي تعيش حياة طبيعية؟ قال متفاخرًا وهو يهرش شعره الكثيف المحمل بأطنان الغبار والوسخ:

_ لقد حملت بيدي هذه أكثر من ثلاثمائة جثة في معاركنا في «الضالع» وتعودت رؤية الدم حتى صار في نظري كالماء تمامًا، إننا مجاهدون يا هذا والجهاد هو القتل في سبيل الله.

نعم يا أستاذ وحيد.. لقد ألغيت فيهم نعمة التفكير وأصبحوا

أدوات قتل بأيدي طغمة من الأوغاد لا علاقة لهم بما يدور بين الطبقات السفلى من البشر، ألم يقسموا مجتمعنا إلى سادة وعبيد؟ إلى أصفياء وحثالة؟ إلى حكام ومحكومين بالموت من أجل هؤلاء السادة وهذه السلالة وحقها الإلهي؟ ومن أجل ماذا؟ من أجل الوعد الأزلي بدخول الجنة..

يتاجرون بالمعتقلين الأبرياء كالسلع يطلبون مبالغ هائلة مقابل إخراجهم ومن لم يدفع ينسى في معتقلاتهم ويموت جوعا ومرضًا وحسرة من معاملتهم.

لست نادمًا على تلك الشهور المريرة رهن اعتقالهم فلها منافعها في تربية نفسي وتهذيب ذاتي وهي لم تذهب سدى في التحسر والحزن، لقد كانت فرصة لي كي أرى الوجه الأسود لمجتمع تفشى فيه الجهل والفقر، إنهم أضل من أنعامهم للأسف، وأعتقد أنني لن توجعني مستقبلًا أي مصيبة بعدما لاقيت منهم.

أرثي لحالهم، لجهلهم وقسوتهم لاستغلالهم من قبل سادتهم فهم مجرد عبيد وعبيد مأمورون باسم الرب. الذي غيبني ثلاثة أشهر ومزق جسدي بأسلاك الكهرباء ومارس ضدي أقسى أنواع الإرهاب النفسي ليس القطيع من الوحوش، بل ذلك القاتل الخفي الذي يستغله المجرم الكبير، إنه الجهل.

الجهل عدوي يا أستاذ وحيد، هو الذي حول جزءًا من شعبي إلى أداة قتل تتقرب إلى الله بقتل الجزء الآخر، الجهل الذي جعل سلالة تدعي القداسة وأنها الله في أرضه.

التقط محمد أنفاسه وهو يفرك وجهه براحتيه كأنما يبعد المشاهد التي توالت أمام عينيه، تحدث بألم كشخص استولى الغرباء على كل ما تركه والده من ميراث:

_ الوطن لنا جميعًا فكيف يتملكونه وحدهم، كيف يقصونك وكأنك نبتة ضارة أقل شأنًا من سلالتهم المقدسة، كيف يفكرون بتمثيل دين لا يعملون بوصاياه التي تجعلنا سواسية، حتى متى عبر عصورهم يُحدِثون شروخًا في مجتمعنا اليمني وتقسيم البشر إلى طبقات وسادة وعبيد ونحن صامتون. سيحصدون يومًا نقمة المارد اليمني المستكين، فلن نظل الدهر نجهل من هم وكيف وصلوا إلى بلدنا وحولوه إلى أشتات، سيحصدون غرسهم المرّ يومًا وكيف أساءوا إلى شعب احتضنهم كأقلية رفضت إلا أن تبقى عرق وسلالة لها تمييز خاص وظالم لنا نحن اليمنيون.

نهضت من مكاني أحاول إيقاف مد الألم الذي اعتصرني مع كل ما سرده محمد على مسامعي؛ إنها مأساة وطن هذه التي احتلت قلبي وقلب هذا الشاب الموجوع.

****

وأنا في طريق عودتي من إيصال محمد إلى وجهته، ساقتني قدماي إلى سوق شعبي مزدحم بالبشر والروائح المختلطة بمجاري طفحت في مكان ما من الشارع، كنت أتصفح الوجوه بنظراتي كأني أصافحها بحرارة..

كنت منهم هؤلاء البسطاء الذين تجعدت وجوهم دون سن الثلاثين، الذين كبروا على أرصفة الكفاح والشقاء، أبدًا لم تحجبهم عني بدلتي الأنيقة أو ربطة عنق بمشبك فضي يلمع تحت الشمس، إنهم جميعًا داخلي في قلبي وعقلي، أحب بساطتهم في الفهم وردودهم التلقائية فلم يرتادوا الجامعات أو نوادي الثقافة والتحذلق، أحب حتى كلماتهم البذيئة وهم يحيون بها بعضهم بعضا كل صباح.

مررت بجوار سيدة مسنة تقف جوار بسطة للخضار، مازالت تحرص على وضع النقاب وإن رفعت فجأة عباءتها حتى الخصر وهي تتلمس جيب ثوبها الذي يشبه عباءتها تمامًا فظهر سروالها الأحمر التقليدي الذي تلبسه نساء اليمن من العجائز كانت تبحث عن المال الذي تشتري به حاجيات البيت بحركة تلقائية دون تكلف.

تذكرت وأنا طفل صغير حين كنت أختفي داخل «عقر «سروال جدتي الواسع حين تجلس القرفصاء وترفع ثوبها فيظهر سروالها المطرز بالنقوش عند قبضة الساق فأهرع إلى تخت سروالها العريض وأتمدد عليه لتغطيني بثوبها وأختفي من عقاب أمي.

لم يعد سروال الجدات سوى تراث للعرض، بعد أن كانت رؤيته عيبًا وخزيًا.

واصلت سيري وأنا أتمتع بذاكرتي حين تستجيب لما ينعشها من أفراح صغيرة كنت قد

نسيتها. أمامي صف من عربات اليد محملة بفاكهة رصت بعناية،

في كل موسم يتاجر كل الباعة المتجولين بنفس الصنف في نفس الأماكن، في تعايش وإيمان كبير أن أرزاقهم قد قسمت سلفًا وهم هنا لأخذ المكتوب من هذه الأرزاق فحسب، فلن يستزيد أحد على حساب آخر، يعاملون حبات الفاكهة بمنتهى اللطف فيمسحون عنها الغبار ويرتبون وضعها كي تنادي الزبائن في إغراء.

رأيت مسنًا قد احدودب ظهره لطول انحنائه على عربة رزقه يناول طفلًا صغيرًا من المهمشين حبة برتقال بشفقة معدم لمعدم آخر. هنا يظهر مجتمع متماسك يتقايضون فيما بينهم بسخاء نفسٍ لا يوجد عند الأغنياء والمرفهين، صاحب عربة شطائر البطاط الساخن مع البيض سيقبل بحبة فاكهة أو حبتين مقابل شطيرة أو شطيرتين. وصاحب المطعم القريب لن يتوانى عن توزيع أكواب الشاي مجانًا لكل من جلس على حصيرة المطعم الشعبي لتناول غدائه المتواضع.

أكثر ما يصيبني بالحزن أن يفقد هؤلاء البسطاء طيبتهم وسماحتهم، معرضين دائمًا لانتهازية الكبار، كانوا يتاجرون بأصواتهم في الانتخابات والآن يدفعونهم عنوة في المظاهرات، قبلًا يبيعون حقهم في المستقبل والآن يخسرون حيواتهم في مظاهرة يرتب فيها عمل إجرامي خسيس يطيح بأرواحهم البريئة لا يدرون لماذا أو كيف؟ البسطاء وقود الحروب وخلافات الساسة دومًا.. إن لم تخدعهم الشعارات الزائفة خدعوا بالأموال التي تصب لإغرائهم، قليل منهم من يعي اللعبة والكثير يسير إلى الموت بحماسة وإخلاص المساكين.

على رصيف مواجه للشارع العام تكوم العمال فوق بعضهم طلبًا

للدفء إنه شهر ديسمبر أكثر الشهور صقيعًا في صنعاء، العمال.. أو ما نسميهم «بالشقات» ربما تعود التسمية لكمية الشقاء الذي يكابدونه في طلب الرزق.

وقفت مباني اليمن والخليج على أكتافهم، يخالطون الحجر والأسمنت فترق قلوبهم لله بالحمد والشكر على ما رزقهم من عمل تتشظى لها أكفهم وتنحني لأثقالها ظهورهم وتتجعد لحرارة شمسها المحرقة وجوههم.

«الشقات» أحباب الله.. ينتزعون رزقهم من عمق التعب والإنهاك، راضين بالقليل بفرح المؤمن، يرى الواحد منهم نفسه محظوظًا حين يجد عملًا في يومه ولا يعود إلى بيته خائبًا لا يدري بم يطعم أطفاله، أكثر فئة عانت من أزمة الوطن الخانقة التي انتهت بحرب مدمرة، فلا أشغال ولا تعمير، أصبح التخريب وتفجير البيوت بديلًا عن نهضة العمران في مختلف مدن اليمن. من أين سيجدون أشغالًا والناس فقدت الأمان والاستقرار وأصبح التهجير يفتك بهم، لا يوجد من هو أسوأ حالًا من الشقات إلا فئة المهمشين التي كانت وما زالت أكبر شاهد على وضع البؤس الإنساني في اليمن، رغم محاولات الكثير منهم تجاوز هذه الخانة التي وضعوا فيها ظلمًا، فالتحقوا بالتعليم وصار منهم المتعلمون والمدافعون عن قضيتهم العادلة، إلا أن الغالبية العظمى يرزحون تحت جهل وقبول بالحال يستعصي معه أي تغيير خارجي. مازالوا ورقة غامضة لحقوق الإنسان لا أحد يدري متى تشتعل في وطن لا حق فيه لأحد.

في كل سوق شعبي هناك ركن مخصص لبيع القات، يفترش بائعوه أحد الأرصفة في ساعة مبكرة ويبدأون في الاحتيال على الزبائن بشتى أنواع القسم.

كثير من الباعة تجدهم ما زالوا في سن التعليم بمختلف مراحله، وكثير منهم يعول أسرة ولا يحلم أن يجد من يتكفل بإعالته، وآخرون فضلوا مدرسة الحياة.

البؤس كله يجتمع في سوق شعبي للقات يختلط فيه الخبيث بالطيب، ترى فيه السيارات الفارهة ورجلًا مقعدًا يسير على ما تبقى من نصفه الأسفل بحثًا عن نفس الهدف.. القات. العابرون من هذا السوق لا بد أن يحملوا انطباعًا حزينًا يصيبهم بالكرب ففي أسواق القات تتجلى مأساة اليمني بكل وضوح في أكله ولبسه وأحاديثه وطريقة تفكيره نحو الأمور وحتى بذاءته وحمقه.

****

ترددت صرخة الطفل فريد في أرجاء اليمن وهو يتوسل الأطباء ألا يدفنوه!!

أصبحت تعز هي صرخة الطفل «فريد» مستجديًا ألا يدفنوه فما زال صغيرًا يتمنى اللعب؛ لم يكن ذنبه أنه يلعب كي تسقط عليه ورفاقه القذائف.

تعز.. ماذا يمكنني أن أكتب عن مدينة دموعها العطش، أوجاعها مبعثرة على الجبال والمنحدرات على صور أكياس قمح ودواء وماء لا

يروي الظمأ، أطفالها جرحى يخافون وحشة القبور ويطالبون بالحياة بإلحاح قاتل؛ دماؤهم تسقى الأرض في طابور البحث عن قطرة ماء قد تأتي خلسة من الموت فيدركها بغتة بصاروخ كاتيوشا فتزدحم الجثث.

تعز هي «ندى أمين» ذهبت كي تجلب الماء فأريق دمها. تعز هي كل طفل ارتقى ألما وصدمة. تعز هي أعضاء الجرحى المبتورة وأجسادهم التي تئن وجعًا وإهمالًا.

تعز عصفور طليق حبسه الحصار بين الجوع وضرب المدافع، هي حرة أبت الأسر فنهشتها رماح الغدر، هي مسيح المدن الذي صلب تكفيرًا عن حقارة الخونة والجبناء..

تعز بناسها البسطاء وأحلامهم الكبيرة وضعُوا بين الرحى كي يشعلوا بدمائهم قناديل حرية تعرفها أفواهنا فقط فما زالت مكبلة بالخوف والصوت الخفيض.

تعز هي ذلك الشاب الذي غامر باختراق الحصار كي يحضر الدواء لوالده المصاب بالسرطان ثم اعتقل وغُيب فمات الأب لا يدري مصير ولده هي ليست حكايات تروى عن إنسانيتنا المعذبة، إنها تعز.

وذلك الأب الذي فر بأطفاله من قريته المنكوبة بالقصف لينسف حياتهم لغم أرضي زرع كما يزرع الحَبّ في الأرض لكن الحصاد أرواح البشر.

وهذه ليست أقسى حكاياتك يا تعز. ولا حكاية فتياتك اللاتي حملن السلاح دفاعًا عن الشرف. تعز صارت قصة شعب رفض الذل.

وحصار يضاهي في ملاحمه أقسى الحصارات لحياة الإنسان والأرض. في تعز تم حصار الهواء فمات الأطفال اختناقًا في المستشفيات بلا أنابيب الأكسجين، وما زالت صرخة الأب الذي لفظ طفله الرضيع أنفاسه الخاوية من الأكسجين تتردد:

_ أشهد يا الله طفلي مات وهو بحاجة للأكسجين.

****

نسيت عفراء!!

في غمرة اليأس وتراكم الهموم نسيتها كما نسيت أشياء كثيرة كانت جميلة ومستحيلة القدوم. لعل أفضل طريقة للهروب من شيء يؤرقك ويعذبك حرمانك منه، هو الهروب إلى شيء يؤرقك ويعذبك أكثر، الهموم تنسي بعضها، ونتداوى بالتي كانت هي الداء.

وهموم الوطن دائي الكبير..

أعيش من أجل هؤلاء الناس، وليس نفسي وأمنياتي الخاصة، قد تبدو فكرة سخيفة فأنا ربما مجرد نكرة في هذه الحياة، لكنني أحمل همّ هذا الوطن وهمّ أبنائه البسطاء، يجب أن أظل بينهم وليس الرحيل خلف أوهامي، يجب أن أظل كي أخبر العالم بمعاناتهم.

إنه اليوم الأخير من عام النكبة على هذا الشعب الذي أحرق شجرة ميلاده بخلافاته وتشظيه بدلًا من أن يزينها بإنجازاته وتطلعاته.

وبمناسبة مرور السنة الأسوأ ها نحن نتبادل التهم بالعمالة

والخيانة، نتبادل القذائف والرصاص والموت المتاح للجميع كهدايا فيما بيننا.

إننا نستقبل عامًا جديدًا بلا أحلام جميلة وملونة، فكل ما حملناه في قلوبنا كانت أمنيات أن يكف الخراب عن بلدنا، ألا يزيد عدد اليتامى والثكالى في هذا العام الجديد ألا يموت المزيد من الأطفال، ألا يزرع الطغاة المزيد من الألغام التي تحصد الأرواح، أن يشبع الجوعى وألا يعرف البرد طريقه إلى العظام العارية من الكساء والغذاء، أن يشفى الجرحى ولا تبتر أطرافهم بدلًا من علاجها، أن يعود الغائبون لأطفالهم، لأمهاتهم، ألا نبكي كثيرًا لفراق من نحبهم.

أي أحلام في قلب هذا الشعب لا تثير سوى الحزن والبكاء أكثر؛ أن يبدأ عام جديد دون أن يدشن بعمل عظيم هو عام سوء آخر. هل الحملات الإلكترونية لرفع الحصار عن تعز عمل عظيم؟!

يبدو ظريفًا قليلًا وأنت تجلس خلف جهاز اللاب توب أو الهاتف وتنشر هاشتاك ببعض عبارات البؤس والشقاء الذي تمارسه تعز فعلًا وواقعًا، أشعر بالعار وأنا أظن نفسي مناضلًا بهذه الطريقة المريحة، نضال خمس نجوم مع خدمة استدراج راقية..

لطالما شعرت أن هذه الشبكة العنكبوتية محض خداع للذات وللآخرين..

لا يمكنك التكهن بمن يقف خلف آلاف المنشورات التي توجه الرأي نحو قضايا مصيرية بشكل يستخف بعمقها، وأحيانًا بأسلوب

تهويل لا معنى له إلا البلبلة وإثارة الفتن. حملة رفع الحصار يجب أن تتجاوز حوائط العالم الافتراضي وتقترب من أسوار الحصار الحقيقي لتعز، يجب أن تتحول الكلمات إلى أيدي وأقدام تزحف نحو تعز وترفع الحصار الظالم.

إننا كعادتنا في كل شيء نبرع في الخيال والحلم ونعجز عن التحقيق والوصول.

لهذا يظل الطاغية مطمئنًا لكون التشدق بالكلام يظل كلامًا، قد يعاقب قائله ولا يثاب تاركه. ينطبق علينا المثل القائل «نسمع جعجعة ولا نرى طحينًا»

يوم سيئ ذلك اليوم الذي استيقظت فيه صباحًا وأنا أشعر أن النوافذ تطبق على أنفاسي رغم اتساعها، بل وتخرج لي لسانًا وهميًّا لتستفز صبري.

حين دقت يدٌ ما باب شقتي بإلحاح رفضت حتى سماع تلك الطرقات لأنني لا أرغب برؤية أحد بل إنني وجدت نفسي أكيل الشتائم لصديق عبر الواتس دون مناسبة معينة، وانتقمت من نفسي بترك القهوة تبرد كثيرًا وأنا لا أطيقها باردة.

نوبة اكتئاب تعتصرني في وحدتي هنا، كلما توغلت في التفكير: حتى متى يظل الحال هكذا؟ أحيانًا ينتابني الخوف من نوبات مزاجي الحاد والمكتئب مثلي مثل من يحيط بي، أترقب برعب انقشاعها كمحارب إغريقي يخشى غضبة آلهة جبارة تمسك بخيوط راحته

بيدها العابثة. أضع نفسي أحيانًا في حجر إرادي كي لا أؤذي الآخرين بكلماتي المتطايرة كالشرر وأنا أكره كثيرًا الاعتذار والمراضاة..

أتلهف لرؤية ابتسامة المزاج الخاص بي.. ماذا تبقى من أعداءٍ لي غير نفسي؟

ما أقسى تطرف الشعور!! التطرف في الحب والوجع والحزن والشوق.. وما أقساه التطرف في الجنون أيضًا، ليت الحزن ثوب كلما ارتدانا نزعناه.

كل يوم نسمع خبرًا مفاده أن صديقًا قتل، أو أن آخر رحل إلى أبعد ما يمكنه عن هذا الوطن. المفزع في قضايا الرحيل على اختلافها هم أولئك الراحلون، أصبح المغادرون عبر بوابة الموت شبابًا سيفتقدهم المستقبل، والراحلون عبر بوابة المهجر هم تلك العقول التي تهتم وتئن لوجع الوطن ولا حل سوى الهروب. «كأنما لم يعد في الوطن سواك يا وحيد».

الرفاق ينسلون من كف الوطن تباعًا، لقد أصبحت أسيرًا في شوارع صنعاء كأنما لا أعرفها ولا تعرفني؛ ألتقي الوجوه كأنما لا أراها أو تلاحظني.

أصبحت غريبًا في وطن غريب يا وحيد.

أي طاعون هي الحرب وأي طوفان بعثر أبناءك يا وطني؟ أي سيل عرم يلاحقك منذ غابر الزمن؟ لقد أجمع من تبقى ممن يعرفني على أن «صاحب الابتسامة» لم يعد قادرًا على تحمل الابتسامة فوق شفتيه. لقد أصبح صاحب الانتكاسة..

لا.. لا.. صاحب الانتكاسات الوفيرة، منتكس وطنيًّا وعائليًّا وعشقيًّا وحياتيًّا.

*****

تراءى الخلاص لصنعاء من جهاتها الأربع؛ يستيقظ الناس من سباتهم حين يدركون أنهم سيفقدون الأرض من تحت أقدامهم إذا لم يثبتوا تلك الأقدام عليها بقوة، تحشد الأرواح من الطرفين في قتال متوقع، والتوقع هو تسليم سياسي، كل طرف يظن أنه ستكون له الكلمة الأخيرة، فقط أولئك الذين سئموا كل الكلمات الأخيرة في قواميس حياتهم، لا يهمهم لمن الكلام اليوم، فالموت هو من يقول كلمته الأخيرة دائمًا..

لكن ظهور شبح المفاوضات قفز هذه المرة بقوة مخزية بعد تقدم الجيش الوطني والقبائل نحو صنعاء، ولم تكن المليشيا ندًا في هذه المفاوضات أو طرفًا له ثقل؛ المليشيا التي أذاقتنا المرارة ها هي تحمل غصن زيتون محروقًا للسلام وتذهب صاغرة للتفاوض مع التحالف في عقر داره، تلك الأيدي التي أشهرت في وجه الشعب كل الأسلحة الممكنة تغسل نفسها من دماء ضحاياها من المجندين والمخدوعين أطفالًا ورجالًا، وتعلن المفاوضات بعد قدسية الجهاد ضد تحالف الشر، بعد أن ملأت المدن بالمقابر لشباب وأطفال فيهم كثير من المجهولين الذين لا يعرف ذووهم في أي أرض قتلوا أو دفنوا .

في قناعة روحية أو تبلد.. لم أعد أبالي بما يؤول إليه مصير المفاوضات، أشعر أحيانًا أنها عملية مماطلة فقط لتأخير الحسم عبر القتال ولا جدية فيها.

هناك من استبشر خيرًا أنها ستفرج على هذا الشعب المكابد، لكنني ليقين يخالجني أدرك أن السلام لا يحل في بركة من الدماء.

أولئك الذين لم يفقدوا حبيبًا أو دارًا عامرة أو هجروا أو مستهم الحرب بأوجاعها المتباينة لم يجدوا في تلون آرائهم أمرًا منفرًا، فصديقي المتعصب للمليشيا والذي أثخن قلبي وجعًا وقرفًا بمغالطاته عن قوى التحالف والمقاومة لم يجد حرجًا في الدعاء لوفد التفاوض بالتوفيق في نصرهم الأخير!! لقد اعتبره نصرًا آخر لمليشيا الموت.

كان لديه قدرة عجيبة على تطويع الأخبار بحيث تلائم تفكيره قال منتفشًا في جلسة جمعت كل الأطياف: نحن نفاوض في أوج قوتنا وعزتنا..

نعم.. بمثل هذا الصديق تصبح الحياة لعنة كبرى. وكعادتها مفاوضات قضايا الكرامة لن تنجح مهما تخيلنا ذلك. مهما تواطأ زعماء العالم على سلب حق الشعوب بالحرية والكرامة واختيار من يحكمه ومهما كان ضعف تلك الشعوب تظل القضية مسألة إرادة وكرامة. كلما لاح شبح المفاوضات اختفى بين غبار المعارك.

وحدها تعز فقط من تصنع مجدها مجددًا ووحيدة كالعنقاء تنتفض من رماد يأس الخذلان وكأنها تعلن ألا تفاوض على أشلاء الأطفال والأهالي الآمنين الذين قصفت منازلهم على رؤوسهم، تعز رفضت منحى التفاوض الذي لجأت إليه المليشيا والذي قد يذهب في طريقه حق النصر لها بقوة وكرامة. لقد أعادت للحق رونقه وقوته بمكابرتها وكبريائها وعنادها.

فماذا لو حدثت تسوية وانسحاب يتفق عليه هناك في الرياض طالما تمناه الجبناء واليائسون من النصر هنا وهناك، أكان له مذاق هذا النصر الصافع والمدوي في وجوه كل من يظنون أن كرامة الشعب مستباحة بحق إلهي مزعوم ورغبة في انتقام محموم.

ذلك الصباح أتى إليّ عيسى مودعًا كان أحد الشباب المتدربين في مؤسستي قلت له محزونًا: إلى أين يا فتى ألم تعد تحلم أن تصبح إعلاميًّا تترصدك الفتيات كي يلتقطن معك الصور؟ ابتسم وهو يتذكر عبارته السخيفة عن تهافت الفتيات لالتقاط الصور معه كشخصية مشهورة وهز رأسه نافضًا الفكرة التي عششت في حواسه قبل مخيلته. كان أحيانًا يقف ليتخذ وضعيات ملفتة للتصوير تجعل كل من في مكتب التوزيع والإعلام ينفجر ضاحكًا إن لم يقذفه بأقرب شيء في متناوله.

عيسى شاب بلغ به الطموح حدًا مزج فيه بين خياله وواقعه، لا شيء كان سيوقفه عن تحقيق حلمه في البروز والشهرة إلا مليشيا الخراب التي قوضت في نفوس الشباب حتى الخيال، ها هو يترك عالم الكلمة ليلتحق بعالم الرصاص.

صوته الخفيض لا يخلو من حماسة وهو يقول:

ـ مدينتي تناديني.. تعز هي قبلة القلوب تحتضر تحت ضربات الأوغاد، إن كان ولا بد من خلود شخصي ففيها سأخلد حين أهبها روحي فداءً، هذه الحياة التي نحياها لم تعد حياة يا أستاذ وحيد نصف حياة يقبل بها ذوو نصف قلب، أما نحن فننزعها كلها أو نتركها تمامًا. الحياة كالحب لا توهب للضعفاء، لذا يداسون تحت أقدام الأقوياء

دائمًا، والمقامون ينتزعون الحياة أو الموت بكرامة، في الحرب والحب لا يصمد سوى الأقوياء، سأعود لتعز والتحق بالمقاومة.

وابتسم ضاحكًا وهو يقول:

_ مازال لدي فرصة أن تملأ صوري الجدران والأوراق وربما مؤخرات الحافلات والباصات الصغيرة، فقط لو التحمت بتربة تعز.

هالني فراق هذا «العيسى» المجنون وتخيلته منطفئ الروح في وضعية تصوير لعشرات الهواتف والكاميرات التي ترصد جسده البارد وهو يروي تراب تعز بدمه. ماذا يحدث في هذا العالم الأسود؟ هل أثبطه عن مسعاه فأكون حقيرًا مرتين؟ مرة كوني هنا أهذي بالكلمات أكتبها لمن لا يقرأون ومرة لأني أحرم تعز ولدها البار. وجدتني أربت على كتفه مشجعًا وأحتضنه مودعًا.. ربما للأبد.

هذه الانتماءات الطارئة على الإنسانية أحلت دماء البعض للبعض الآخر، وحقّدت نفوس المظلومين والمقهورين فبات الموت هينًا في عيونهم.

ربما عزاء عيسى أنه حصل على عشرات الصور في وضعيات قتالية تدعو للفخر وهو يرافق قائد المقاومة في تعز «حمود سعيد المخلافي»، عشرات الصور التقطها فريق إعلامي رافق المقاومة في تحركاتها وكان من هذا الفريق أيضًا أروع الشهداء وأشجعهم مثل «محمد اليمني» وغيره كثيرون.

إنه الفقر يا صديقي

ـ أحيانًا ـ يكون لذيذًا بوجع

كالحب مـن طــرف واحــد.

(سمـــــاح)

إنها سماح.. عادت إلى صنعاء بعد أن غادرتها مكرهة، ذهبت إلى لقائها على أمل أنها تجاوزت فجيعتها في عمار؛ تبدو الآن كأنها في السبعين؛ ليس تمامًا، لكن حين رأيتها أمامي ذكرتني بجذوع الأشجار المعمرة، شعرها الحاسر الجميل كأنه يتساقط بنفس سرعة تساقط دموعها وهي تتذكر عمار، وعلى خديها الباهتة ارتسمت ظلال كلف بنية كأشباح قبلات محمومة باقية لا تزول، تغيرت كثيرًا كنبتة نُزع لحاؤها، أو حياة نزعت روحها. بصمات اللوعة التي تعيشها ترسم ملامحها من جديد، كائن مشوه دميم.. ناقمة عليه كثيرًا ليس لأنه غادرها.. كلا.. بل لأنه حولها لهذا الشيء عندما أخذ معه أشياء كثيرة تخصها، أخذ برحيله لون الحياة من عينيها، شبابها ونضارتها، رغبتها في الحياة وكبريائها، نزع رغبتها في الحب؛ كأنما تم تفصيل قلبها على مقاس حبه هو، على نمط كيانه هو؛ كيف لحب ملأ ما بين الموت والحياة أن يموت كما مات صاحبه؟ حبٌّ عجزت لغة القلب الفصحى

عن شرح تفاصيله ولهفته، عجز عمرها أن يكون بدونه. ارتسم كل هذا على ملامحها فهمستُ برهبة وأنا أقف في قداسة محراب الحب الذي لم يفهمه عمار:

ـ كيف حالك يا سماح؟ لماذا عدت وكنت نويت خروجًا أخيرًا، أو عودة حين تتحسن الأمور، كما ترين يا عزيزتي نحن إلى الأسوأ رغم قصص الانتصارات والزحف نحو صنعاء للتحرير، وتولية الجنرال لقيادة هذا الزحف وكل هذا الكلام الذي تعرفين.

لاح شبح ابتسامة دامعة على شفتيها الضامرة، ربما لأني كنت أقرب الأصدقاء لعمار وأعرف قصتهما المحزنة هي ترى فيّ ذكرى تؤرقها:

ـ أنا بخير.. ما زلت على قيد العيش للأسف يا وحيد، فكرت أن أعود كي أموت على ما مات عليه صاحبك، لنعش إن عاش هذا الوطن أو لنمت إن كتب عليه الفناء. قلت برثاء لنفسي أولًا فأنا مثلها حين أفكر بعفراء:

ـ عزيزتي سماح، ستعيشين وستجدين حبًا يليق بقلبك الجميل، فقط حاولي، كل صعب يحتاج للمحاولة. ارتسمت في عينيها نظرة ذاهلة، كأني صدمتها بقولي، حبه يبقيها راضية عن نفسها، ربما لو كان هو الذي ترك البلاد إلى المهجر وبقيت هي ثابتة في أرضها كجذع شجرة لكانت كرهته، لكنه غادرها للنضال الصحفي، وهاجرت هي بعيدًا ليأسها منه، فلما قتل هناك شعرت أنها خذلته وخذلت الوطن وكل الحقوق التي حاربت من أجلها.

إنها تحتاج حبًا أكبر من حب «عمار» ولا يوجد أعظم من حب الوطن وقضيته العادلة، سيغادر قلبها شبح عمار يومًا ما حين يمتلئ بحب الوطن الذي مات من أجله حبيبها. في هذا الوطن الذي تحول فيه نشطاء الحقوق إلى تجار يترزقون من أوجاع الناس. من الجميل أن تجد من يؤمن بعدالة القضية ويدافع عنها.

لقد أثرى الكثير بالمتاجرة بحقوق بؤساء هذا الوطن وصارت صور الجوعى والقتلى تدر الشهرة والمال أيضًا والتنقل عبر الوطن بحرية أيضًا.

****

عدت إلى البيت عقب رؤية سماح والشوق ينازعني لعفراء؛ كأن عذابات الحب أيقظت عذاباتي أرسلت لها رسالة أسألها عن حالها؛ وفي انتظار رد منها فتحت نوافذ البيت:

_ يا إلهي كم أعشق النوافذ الكبيرة جدًا، تلك التي تملأ شقوق الروح الخاوية بالضوء ولا تحرمك تفاصيل الحياة خارجًا، الحياة مهما كانت سيئة فهي أفضل من الموت في مكان مغلق بلا نوافذ واسعة. ماذا لو لم تصنع لنا في هذه الأماكن الخانقة نوافذ؟ من أين سيتسلل الضوء فاضحًا خيبتنا المستترة خلف الصمت والاعتياد؟

كيف لنا أن نرى كل هذا الغبار الذي يعتلي قلوبنا حتى تثاقل نبضها؟ تكاد تموت تحت ثقل السأم والشرود؛ رسائل عفراء هي نوافذ زنزانة حياتي؛ لكن الحرب اعتقلتنا في زنازين مصمتة! ابك يا

وحيد.. أبك فقد أغلقت كل نوافذ قلبك التي كانت مشرعة فحتى رسائل عفراء جدران أخرى. رسالة عفراء ممددة بيني وبين الأفق تحجب عني الحياة ولا تقتلني:

(وكأن الحزن طرد في طريقه كل فرح فبات في جفوني يا وحيد. تذكرتك حين قلت لي: تبحثين عما يوهن قلبك يا عفراء، نسيت يومها أن أخبرك: أنت لا تعرف هذا القلب الواهن دومًا بكل سبب، كيف تعرف وأنت البعيد؟ لقد تعثر قلبي كثيرًا بالخيبات حتى التصقت به، فبات ينكر الفرح خوف السراب، لم يسعفنا القدر كي أحكي لك كيف أصبحت قاصة أستشعر ألم الحكايات بخيال جامح، ربما هروبًا من واقع ينزع قصصه من قلبي مكتوبة بالدموع، من لم يصنع من أوجاعه إحساسًا بالآخرين وأحزانهم فلن يشعر بشيء، أخشى ألا يمنحنا القدر فرصة أيضًا يا وحيد كي نبكي كل ما فات في الغياب) فأرد موجوعًا:

_ آه يا عفراء وأنت في الغربة كم أعاني الاغتراب، ابتعادك أثث صدري بالفراغ، أشتاق لك فأعانق الذكريات ولا شيء يملأ هذا الفراغ، قاسمتني الغربة قلبي حين غادرت نصف روحي هناك. فهل تعودين والعمر لا يعرف انتظارًا؟ والوطن لا يدرك استقرارًا؟

فتجيب هي:

(أتأمل السقف القريب حد الاختناق وأدفعه بنظراتي أستجدي بعض الهواء، كل السقوف التي يضعها البشر تنكمش بالأحلام وتتمدد بالجنون.. إلا جنوني.. لقد كنت أوزع أيامي بين صمت ونقمة وثورة وكبت.. كل أيامي للانتظار. كأنما كنت في رحم الانتظار وإليه

ولدت، أتنفسه هواء فينمو عمري انتظارًا، ما أكثر الآمال التي تقتات الانتظار فينا يا وحيد!!) فأرد عليها:

_ الوطن أيضًا سقف منكمش على هيئة سوط غليظ يجلد عشقنا الكبير له، يزداد وقع السياط كلما تعمق فينا هذا الحب واندفعنا فيه أكثر..

وتغيب عفراء من جديد. فأحدث قلبي: عفراء.. غادرتك للبعيد بعد أن قتلتك حبًا وأحلامًا مستحيلة. عائلتك التي غادرتها أنت لتحرم لحظاتك معها خوفًا عليها..

أمك العجوز وزوجتك التي شاطرتها كل شيء إلا روحك.. أطفالك الصغار وابتساماتهم التي تمسح الدموع عن بعد، ووطنك الذي تطحنه الحرب ولا نافذة أمل تطل على منعطف صدق من كل هذه المفاوضات التي تنتهي لتبدأ.

رفاقك.. الرفاق؟ كم غاب في الشتات؟ وكم غادر من أكثر أبواب الموت أناقة؟ باب التضحية في سبيل الوطن.

الغربة والموت ينزعا الأصدقاء والأحبة. صار الوطن قوة طاردة للجمال بحدوث كل هذا القبح. الغربة نزعت عفراء من أحلامي كما نزعتها من مدينتها الخراب.

كلما أصبت بخيبة ما، أستيقظ من الدوار وأنا أحاول ألا أتعثر بأحلامي المبعثرة داخل رأسي بوهم تذكرها، محاولة لملمة الذات تشبه السير حافيًا في الظلام، لا فرق لوكنت بحذاء أيضًا. قسمًا من

أحلامي غير الناضجة أدفنها في القلب وتلك التي نبتت لها أجنحة أرسلها في الهواء للضياع فلا شيء حولها سوى الضياع. الصباح يشرق على كل أرض إلا على أرض وطن خراب يتساوى فيها الليل والنهار ظلمة وسوادًا.

كأننا على حافة حياة.. على حافة حب.. على حافة موت.

****

في خطبة الجمعة يظل الخطيب الذي وضعته الجماعة يصرخ في وجوهنا يحذرنا من عقاب النار والشيطان الذي يتربص بنا في كل حين؟!! ويتناسى هذا الخطيب أن شياطين الإنس قد أصبحوا أكثر شرًا وتربصًا من ذلك الشيطان الذي أصبح يشعر بالشفقة لحالنا؟

كثيرون في هذه الحياة لم ينالوا حقوقهم كاملة أو جزءًا يسيرًا منها، عاشوا مقهورين ومحرومين، لا أظن أن النار تنتظر أمثالهم. لا لن تنتظرهم إذا سرقوا رغيفًا أو ثمن رغيف كي يشبعوا جوعهم وجوع أطفالهم. النار أيضًا لن تنتظر ذلك الذي سرق قبلة من حبيبة لم تسنح الحياة بوصلها. هناك من يسرق الحب من حياتنا ويغتصب أقواتنا كاملة لهؤلاء النار تنتظر بشوق. هم سينجون من عقابنا في الدنيا ويعيشون حياتهم وحياتنا معًا.

الرجل الذي وقف عقب صلاة الجمعة يبكي بحرقة وهو يشكو حاله وحال زوجته بعد اختفاء حفيدهما المتبقي من أسرة ولدهما الذي مات في حادث سير مع زوجته وطفلين آخرين كان أشد تأثيرًا

من خطبة الجمعة التي أثخنها التحريض ضد القتل والقتل فقط. الرجل المسن يناشد الناس خبراً عن حفيده شاهرًا صورة لطفل لا يتجاوز الخامسة عشرة، وقفت كبقية الفضوليين بصمت أستمع إلى حديث يدور بين المسن وشخص آخر يبدو من خلال حديثه أنه طبيب. قال الرجل بصوت حاول ألا يكون مرتفعًا: «وجدت في عدن أطفالًا ينهارون بكاء وقد عجزوا عن العودة إلى أهاليهم في الشمال، كانت الجماعة قد جلبتهم إلى المعارك بطرق ملتوية كأقناعهم أن المعركة نزهة وعودة من جديد لكنهم فوجئوا بحرب تسيل فيها الدماء غزيزة؛ أطفالًا قد تم التغرير بهم بوسائل كثيرة فأصبحوا بين مطرقة المليشيا وسندان المقاومة إما أن يقاتلوا أو يُقتلوا، كثيرون انهاروا باكين في رعب وخوف وآخرين سلموا أنفسهم، والكثير قتلوا وامتلأت الشوارع بجثثهم التي لا تُعرف لها هوية.

ازداد نحيب المسن كأنما يرى بعينيه مصير حفيدة المحزن وهو الذي طالما تحمس للحاق بنفير المليشيا والذهاب إلى مدينة عدن للجهاد مع ربي كما تم حشو الرؤوس الفارغة.

عدت عقب صلاة الجمعة إلى البيت والحزن من كل شيء يثقل صدري، حتى المساجد التي كانت أماكن السكينة وملجأ الأرواح صارت بؤر فتنة ودجل.

المساجد في نظر أدعياء الدين وسيلة للترزق وطلب التبرعات، كانوا ومازالوا يسرقون جيوب البسطاء في محراب الله، وأخيرًا يسوقون أرواحهم إلى الموت من محراب الله أيضًا. كلما اشتد ضيقي من قسوة الحال الذي يتفاقم سواده أفكر في عائلتي.

أصبح التوتر والقلق رفيقين لا ينفكان عني وشهر رمضان على الأبواب، كيف سيمر رمضان على عائلتي للمرة الثانية وأنا مغترب في نفس البلد، عاجز على الاستقرار لديهم أو آتي بهم إلي، وأتذكر أن هناك مئات العائلات فقدت معيلها للأبد في حين أني ما زلت هنا، شهر رمضان لهذا العام سيكون شهر الصبر والجوع في أعنف صورهما ويجب أن أقضيه مع أطفالي. ينبغي أن أتدبر سبيلًا للسفر إلى مدينتي كالمرة السابقة.

****

في مدينة إب تنسى أهمية الوقت. إنها رتابة العيش الممل. فمع الاحتلال وتغول الفساد وازدحام البشر المتزايد، أصبحت إب مكتظة حتى بالوجع، غير راغبة حتى بالاعتراض؛ الناس ينتظرون فقط.

يتسمعون الأخبار ثم يرمونها خلف ظهورهم من أجل أخبار أخرى، خبر يقول إن انتصارات تعز ستصبح حقيقة، وأن عودة أركان الدولة إلى مدينة عدن سيستمر فعلًا، وأن عدن آمنة حقًا من إرهاب المليشيا الخفي والظاهر.

وأن بنك الدولة الذي يطلب المعونة ليلًا ونهارًا أصبح قادرًا على دفع مرتبات الموظفين المتأخرة لشهور. لكن أخبارًا أخرى تأتي أشد سوادًا من سابقاتها. عمليات تفجيرات إرهابية تثير عواصف الرعب والتساؤلات في مدينة عدن، أحزمة ناسفة وانتحاريون في وطن لم يكن يعهد هذه الكثافة في الرعب أخبرني نازح من عدن أن قريبه الشاب المجند نجا من تفجير انتحاري بأعجوبة لكن عقله لم ينجو.

كانت الصدمة مزلزلة لشاب تفيض منه الحياة ضحكات ودعابات وسخرية مرّة.

ذلك الصباح المشئوم قال له رفيقه عبر الهاتف على عادة الأصدقاء:

_ بما أننا سنتسلم الراتب اليوم الغداء عليك و»التخزينة« علينا. فأجاب ضاحكًا: «لا تقل لي إن الغداء للمجموعة كلها؟ أنت مجنون سيطير الراتب أشلاء مبعثرة.

اضطر حينها أن يبقى بعيدًا متخفيًا عن رفاقه لحرج الموقف. وفي وسط التجمهر للجنود دوى الانفجار.

مرت لحظات وهو ملقى بعيدًا لم يستوعب ما الذي حدث؟ وأخيرًا نهض وقد التصقت بثيابه وجسده أشلاء ودماء رفاقه، كان يجري في المكان يبحث عن الوجوه المألوفة التي تهرّب منها قبل لحظات، يمد يديه ليلتقط بقايا تشبههم، ويصرخ بملء فمه:

_ أنا عليّ الغداء، هيا قوموا أنا عليّ الغداء.

جنّ فزعًا أو حزنًا أو وجعًا على رفاقه ونفسه وحال وطنه. هذا ما يحدث في عدن التي تقطنها شرعية الدولة، بعد عودة أركان الدولة ورئيس البلاد فماذا سيحدث في مدن تعيث فيها المليشيا عبثًا.

أخبار المجاعة التي تأتي من أخصب أرض في اليمن، تهز بمشاهدها الموجعة نواقيس الخطر في مخاوفنا المستترة وراء التندر بسوء الحال.

تهامة أرض الخير يلتهمها الجوع ونحن على مشارف انتهاء عام ٢٠١٦ ومنذ سقوط الدولة بيد المليشيا ها هي اليمن تزحف نحو مجاعة يكررها التاريخ في عهود الأئمة المظلمة. الجوع سلاح الجبناء دائمًا يسلطونه على الأغبياء والضعفاء فيركعون.

لقد أتى اليوم الذي لم يعد يصدمنا رؤية جائع يقلب في براميل القمامة، فكل بيت صار يأكل قمامته داخل البيت.

يكافحون الجوع بالمزيد من التندر والفكاهة وصبر عجيب يرفض حتى التفكير بثورة مضادة للانقلاب، قال لي صديق يلاحقه المؤجر كل يوم بسبب عدم دفع الإيجار:

_ المؤجر يرفض الاقتناع أننا بلا دخل بعد قطع المرتبات لشهور، ويصر أنه ما بعد قطع الراتب إلا ثورة، أخبرته أن هؤلاء الهمج يعتبرون المطالبة بحقوقنا الوظيفية خيانة عظمى يطيح على أثرها رأس المطالب، هؤلاء أتوا من الكهوف يسرقون كل حق ويقتلون من يطالب بحقه. حتى رغبة الاحتجاج سرقوها من أفئدة الناس. لا أحد يصدق أن يصمت الناس خوفًا من همجية المليشيا فلا تخرج مظاهرة احتجاجية واحدة ضد قطع مرتبات الموظفين والعاملين أو غلاء المعيشة الفاحش أو انعدام الغذاء والدواء وتفشي الأوبئة كالكوليرا وأخيرًا حدوث المجاعة بكل قبحها؛ لا أحد يصدق ولا أحد يعترض!! كان هناك خنوع عجيب داخل المدن المحتلة يجعلك تتعجب أين ذهب الإباء والكرامة التي نتشدق بها دائمًا.

****

من جديد أنا في إب أتجرع مذاق غربة أخرى في اغترابي الطويل. أحاول تذكر الابتسام كي أبتسم، أناشد الصباح القديم أن يعود محملًا بابتسامات الرضا، وأناشد الحياة حولي أن تبتسم.

«ابتسموا أيّها الناس.. ابتسموا كابتسامة الشاب الجميل « أسامة العامري» الذي ارتقت روحه على سرير المستشفى بعد إصابة بليغة في مقاومة تعز، لقد أصر على الابتسام لوالدته حتى آخر لحظة، كأنه يدرك أن ابتسامته من ستبقى عالقة في أذهان كل من تابع صفحة والدته على الفيس بوك وهي تبكي إصابته، وهي تدعو له بالشفاء،

ثم وهي تنعي شابًا ابتسامته أجمل من أن تبقى في هذا العالم شديد العبوس.

ابتسموا للصباح فكل صباح يحمل أملًا يدق أبواب قلوبنا بحب. فهذا الصباح جاءتني رسالة من عفراء، حروفها تتوسل فقط: (أنا في عدن، هل أراك يا وحيد؟)

وكأنها أيقظت مشاعر الرجل التي خنقتها الحياة. هل نسيتها حقًا أم كنت أعذب نفسي بنسيانها بكل هذه الأحداث والهموم. عام ونصف يا عفراء تنقص أو تزيد منذ افترقنا وما زال طيفك الأسمر الدافئ يغزو أحلامي أكثر من خيال زوجتي.

ما زلت كطفل منهك الرغبات ألجأ إلى طيفك أضمه كي أنام وأشعر بالدفء. كطفل تمنى الحصول على طائرة شراعية يحلق بها فوق الغيوم لكنه سقط في واقعه المحتوم. تهفو إليك نفسي كالظامئ

مهما تجرع من الوهم لن يرتوي، كلما صادفتك في حلم يقظة تمنيت النوم كي أراكي حقيقة، وتأتي.. تأتي كشمس دافئة تذيب ثلوج شعوري تهمسين في أذنيّ:

_ ضمني إليك يا وحيد، لم أعد تلك الفتاة الدافئة كشمس مدينتي الجنوبية، أصبحت أشعر ببرد الخوف برجفة المجهول ورغبة الأمان تتصاعد في داخلي، تعالِ وضمني إليك، دع أنفاسك تدفئ صدري الفارغ إلا من الشوق والانتظار.

وأتلوى في حلمي أبحث عن ساعدين كي أضمك فلا أجد سوى عجزي فأغمض عليك الجفون كي لا تختفي. ترى لو كنتِ حقيقة قربي هل يبقى هذا التوق للتلاشي فيك؟

أي شيء هو الشوق والحنين حين يستيقظ في صدري بحرف منك، لماذا استيقظ الشوق كمارد من رماد اليأس؟ وهل حقًا أراك وتضمك العيون وتخفيك الأهداب؟

حين رحلت وأيقنت أننا قد لن نلتقي مرة أخرى، مات أجمل جزء في قلبي يا عفراء.

في كل رحيل لصديق أو موت لعزيز أفقد جزءًا من قلبي، لكن رحيلك كان الأكثر وحشة وعراء في روحي.

لا أسوأ من العجز يا صديقتي إنه مرادف اليأس المرّ، أنا أتجرعه منذ طفولتي وجبة يومية أتلقفها جائعًا ولا أعرف أني شبعت يومًا من عجزي وأنا المثخن به دومًا. منذ الطفولة لم تكبر أجنحتي فكنت

فرخًا صغيرًا يخيل إليه أنه يطير. كيف أطير في قفصي؟ هذا القفص الذي حاكته الحياة من ضلوعي أنا، من وجودي المتعثر دومًا بكوني أنا..

ها أنا أهذي كعادتي كلما جرفني الحنين لك، أكلم نفسي دائمًا:

_ تعال يا وحيد، تعال نتحدث قليلًا كغريبين على قارعة الطريق، أنا لا أعرفك يا صديقي، لا أعرف ماذا تريد؟ وأي حزن عظيم يصلب روحك كل العمر دون أن يدفنها في الغياب، هذا الحب لماذا أشقاك هكذا؟ أليس الحب جنات وردًا وعبيرا عند كل عاشق؟ لماذا الحب في حياتك إعصار يمر بك ليتركك خاويًا من أمل؟

عشقت وطنك فبقيت تحمله على ظهرك حملًا ثقيلًا، هو الذي تعرّق في روحك وعقلك وصار الفصل بينكما مستحيلًا، صار هو العائلة وعفراء والماء والهواء وأنت يا وحيد.

ماذا لو حملت أمتعة الحياة من أحبة ورحلت إلى حيث تبدأ من جديد؟ يا شجرة بُنّ عتيقة غابت جذورها في عمق الوطن؟ ماذا لو اخترت الطريق السهل وهو الأصعب؟ الهجرة من وطن يحاصر أبناءه مرتين، مرة بفعل حصار الحرب ومرة بحصار الفقر.

أصبح البؤساء منهم تحت رحمة الوضع الذي فرض عليهم ولا يوجد بديل غيره.

أنت المحكوم بحال الوطن كأي فرد فيه ينهشك العجز من كل صوب، صرت معدمًا بعد دخل كان يقيك الحاجة والفقر وذل

السؤال، صرت مطاردًا ومشردًا بعد أن كان فضاء الوطن مسرحًا لقلبك وقلمك، صرت محاطًا بالشقاق حتى بينك وبين قلبك.

لقد ضجّت الهموم في رأسي وصار أثقل من جبلٍ بين كتفيّ، صرت أحادث نفسي بصوت يفلت مني أحيانًا ويعلو إلىٰ مسامع من حولي فخفت الجنون الذي طالما وصمت به. فهل كل الناس مثلي؟ لا يستطيعون البقاء في رؤوسهم بمفردهم مع الصمت؟ هل رؤوسهم حافلات ضخمة فيها مئات الحوارات المشتتة بلا رابط صلة؟ هل رؤوسهم مكتظة بأحداث أغلبها لم يحدث ولن يحدث؟ فقط هكذا تحدث في رؤوسهم كردة فعل لحدث يكون أول خيط لتاريخ من الأحداث لن تحدث؟ هل يشعرون بالضيق مثلي من رؤوسهم؟ فيفكرون بوضعها على وسادة السرير كي تنام ولو قليلًا؟ هل يفكرون بضربها بالجدار مثلًا؟ لقد تعبت من هموم فوق همّي.

سامحيني يا عفراء رسالتك تسحق أوردتي وتخنق أنفاسي، فهل آتي إليك في عدن؟ هل أترك كل الوطن خلفي وأسير خلف قلبي في شرعية وهم؟ حبك كحلم الدولة على أرض الوطن وهما فقط إذا كان عبر الكلام فقط. هل أتجه إلى مأرب حيث الحرب من أجل تحقيق هذا الحلم؟ حلم الدولة الشرعية؟ أم أبقى هنا كي أمضغ الكلمات بلا جدوى.

قرر يا وحيد. إذا كان على معصميك قيد من حديد، هل تقرأ عليه قصيدة عن الحرية كي يلين، وهل يفهم الحديد في القصيد؟ هل تزينه بالزهور والورود والرياحين ليبدو جميلًا، أم تتلو عليه نصوصًا في الحكمة وتترك الآخرين كي يتركك..

القيدُ قيدٌ من حديد ولا يفلّ الحديد إلا ضربة من حديد.

****

«لقد أمسكوا بأحمد النويرة « هذه هي الضربة التي أنتظر لتقضي عليّ!

رسالة من بضعة أحرف مزقتني أشلاء، لم تكن حروفًا بل قنبلة لها عشرات الشظايا أحالتني إلى كومة إنسان يفتته الحزن.. اعتقلوا أحمد الذي طالما وفّر لنا الأمان في تحركاتنا وأماكن إقامتنا، ترصّدوه طويلًا وقبضوا عليه فانقبضت أرواحنا حزنًا وصدمة ويأسًا.

هؤلاء الوحوش يعذبون الصحفيين بلا رحمة ومازال العشرات يقبعون في معتقلات وحشية بلا أمل في الخروج منذ ما يقرب العامين، مازال ابن إب «أمين الشفق» معتقلًا بسبب «مسيرة الماء» منذ أكثر من عام وحتى هذه اللحظة من بداية عام ٢٠١٧.

عامًا كاملًا مازال في قبضتهم الوحشية لأنه فكر بالمشاركة بحمل الماء إلى مدينة تعز المحاصرة. مازال «محمد قحطان» القيادي الكبير في حزب الإصلاح مغيبًا منذ عامين تقريبًا ولا يعرف مصيره. ما زالت قصص التعذيب والإهمال وتردي صحة المعتقلين تتسرب خارج أسوار المعتقلات فيزداد الناس خوفًا من فكرة اعتقال قد تغيبهم وتشرد من بعدهم.

أخذوك يا أحمد.. أخذوك يا صديقي وأنا هنا بفضل تدابيرك الأمنية لي كل مرة. أخذوك بغتة منك يا صديقي الشجاع وإلا ما كانوا ليفعلوا..

كيف ستكون صنعاء دونك يا آخر الأصدقاء في أرض الخراب هذه؟ كيف يطيب لي عودة إلى صنعاء يا أحمد؟ وحتى متى أظل نهاري أتلقى أخبار الراحلين والشهداء والمخطوفين؟ فإذا أتى الليل أبقى وحيدًا فأحاول ألا أكون هذا الوحيد، أدعو أحبتي الراحلين، أناديهم، أدعوهم من قبورهم، فيملأون فضاء الحجرة بذاك الوجود، يسندون ظهورهم إلى جدار السرير، ويغطون أقدامهم بلحافي القصير، ويضعون رؤوسهم على وسادتي.

تضيء عيونهم المنطفئة ظلام الحجرة ونتبادل الحديث الحزين حتى الصباح.

وفي الصباح تزف البشرية أفواجًا أخرى راحلين جددًا.

****

أولئك الذين قالوا سنبقى معًا وغفلوا الموت،

كيف غافلتهم الحياة وتقلباتها!!!

(الرحيـــل)

«مأرب» هي الابن البار الذي شيطنته زوجة الأب الظالمة وسلبته كل حظوته لدى الأب الغافل عما يدور في بيته، ونهبت في طريقها لإقصائه عن العائلة وتشويه صورته كل ما يملك من ثروة خاصة. ذلك الابن النبيل الذي قبل القليل مما تجود به من نصيبه في ثروة العائلة والذي حمل تاريخ هذه العائلة على كتفيه منذ الأزل» هذه ليست أسطورة إغريقية بل هي قصة مدينة يمنية.

خلال أشهر تضاعف سكانها أضعافًا حين صارت قبلة وملجأ لمئات الفارين بحرياتهم من الاعتقال ومعقلًا لكل الطامحين في النضال بالسلاح وبالكلمة ضد المليشيا المنقلبة على الدولة، وكما حملت في أحشائها حضارة اليمن القديمة ها هي الآن تلد المستقبل والحرية على يد أبناء قبائلها حين أعلنت اتفاق مطارح نخلا في مأرب لمواجهة المليشيا فانضم إليها أبناء اليمن من كل أطرافه البعيدة.

مأرب التي مازالت تعاني الإهمال وإن صارت معاناتها مختلفة، فقبلاً كانت خيراتها تنزع منها لتعاني التهميش والتجهيل بها والتشويه

المتعمد. الآن تعاني من الازدحام الخانق بسبب الارتفاع الكبير للسكان والذي يحتاج إلى عمران وبنية تحتية تناسب هذه الزيادة المضطردة من السكان.

انعدام الخدمات والمرافق من مدارس ومستشفيات وفنادق ومساكن وغلاء المعيشة جعل الأمر عسيرًا على الجميع كأنه مخاض متعسر لولادة المستقبل.

تمنيت اللحاق بكل الرفاق هناك، كلما سطر أحدهم رسالة تصف لي حماسة العمل من أجل النصر تاقت نفسي إلى الذهاب.

بين معاناة الحيرة هل أتجه إلى مأرب أم إلى عدن تصلني رسائل الرفاق بضرورة اللحاق بهم وأنهم سيعدون كل شيء لرحيلي بلا خوف اعتقالي في الطريق إلى الحرية.

كان عليّ فقط حفظ بعض المعلومات عني كون الذين يتلقفون المسافرين في نقطة «أبو هاشم» الشهيرة ليسوا أفراد ميليشيا عاديين بل ضباط مخابرات مدربين على التقاط أشخاص من المقاومة أو الصحفيين.

لحسن الحظ أن هويتي الشخصية لا تحمل لقب الأسرة، الشيء الذي كان يؤلمني يومًا صار مصدر راحتي الآن. عليّ إخبارهم أني ذاهب إلى حضرموت للعمل عند أحد التجار الكبار الذي زودني برقمه الرفاق في مأرب والذي تواصلت معه أيضًا في مكالمة هاتفية لتأكيد الأمر والتعارف.

تحت إصرارهم وتوصياتهم تخلصت من كل شيء يخصني في هاتفي، كل برامج مواقع التواصل وحتى رقمي الخاص كل ما أبقيته صورًا لأطفالي وبعض الأمور التي لا تضر بي أو تدل على أني كاتب صحفي. أكثر ما صدمني هو عجزي عن حمل جهاز اللابتوب تحت أي ذريعة، إن تعلقي بهذا الجهاز الصامت أشبه بصداقة قلبية لا يدركها أحد.

الأيام التي تلت قرار السفر كانت مؤلمة لقلبي وكأني أرى أبنائي وزوجتي وأمي لآخر مرة ولن ألتقي عفراء أبدًا.

تغيير المظهر أمر آخر مهم جدًا لذا تركت لحيتي تنمو بلا تنسيق وحلقت رأسي أيضًا وجربت ارتداء «المعوز» طوال الوقت كي أتعود عليه مع قمصان تكفل الزمن باهترائها.

كان يوم الجمعة موعد السفر.. اليوم الذي ولدت فيه وفيه تحدث أكثر الأمور تعبًا وتعقيدًا لي منذ ولدت. في محاولة بائسة مني حاولت أن أقضي الأسبوع الأخير مع عائلتي وتعويضهم عن غيابي الطويل الذي مضى وعن غيابي الأطول الذي سيأتي.

أرى في عيونهم المستقبل وهم يلعبون لاهين عما يحدث في عالمهم من ظلم واستبداد. أستمد الأمل منهم من نظراتهم البريئة وضحكاتهم التي ستعلق في أذني دائمًا.

أنا أثق في هذه الزوجة التي حاصرتني بحبها وتملكها ستحاصرهم بذات الحب فيكبرون على حب. حل يوم الجمعة.. عبثًا ألملم شظايا

نفسي في قبلات على الوجوه الدافئة، عبثًا أستمد من أمي صبرها العظيم، عبثًا أواسي زوجتي فقدها لرجلها الذي لا تعرف متى تلتقي به مرة أخرى.. أعتذر لها بعناق أخير عن عالمها الجميل الذي خسرته وصبرت من أجلي وأجل الصغار. أعتذر لنفسي هذا التشظي كوطني.

وأحاول أن أهمس في قلوبهم أنني سأعود.

****

كانت السيارة من نوع «الهيلوكس» ذات المقعدين، كنت أنا والسائق الذي يقوم بتهريبنا وشخص آخر نحيل جدًا ومتوتر أيضًا في مقدمة السيارة، وفي الخلف عائلة من رجل وزوجته وثلاثة أطفال. السائق معروف لدى الرفاق هناك في مأرب وقد تهرّب الكثير من الصحفيين عن طريقه وبواسطة سيارته، قال لي ضاحكًا:

_ أصبحت النساء أفضل وسيلة عبور آمنة نوعًا ما يا أستاذ وحيد، أحيانًا نصادف في النقاط الكثيرة في طريقنا الذي لا يزال يراعي فكرة العيب الأسود وأعراف القبيلة، رغم أنهم لم يعودوا يقيمون أي وزن لأي عرف.

كان انطلاقنا من مدينة إب إلى مدينة ذمار سلسًا رغم الإرهاق النفسي الذي تكاثر عليّ منذ توارت بنايات مدينة إب في آخر منعطف في الطريق إلى قاع «السحول».

وادي «السحول المترامي الأطراف والذي كان فيه أكبر مزارع الحبوب بأنواعها وأكرم الناس وأسخاهم كان يعد نجاة الناس من الجوع حين قال عنه «علي ولد زايد» الفيلسوف اليمني الشهير في آثاره:

«إن كنت هاربًا من الموت ما أحد من الموت ناجي

وإن كنت هاربًا من الجوع اهرب سحول بن ناجي»

الآن مازالت السحول خضراء طوال العام إنما بشجرة القات التي حلت بدلًا عن زراعة الحبوب؛ ورغم أني أمارس عادة التخزين كأغلب اليمنيين ورغم عدم عدائي لشجرة القات إلا أن حزني لاستيلاء هذه الشجرة على كل السهول الزراعية التي كانت ربما تكفينا الفاقة والجوع الذي أصبحنا نحيا تفاصيله حقيقة وليس في الأمثال الذي توارثها الناس عن أزمنة ذاقوا فيها الجوع والفاقة لنفس السبب الذي يحدث من جديد. أخبرني السائق على انفراد ونحن نتأهب للانطلاق خروجًا من ذمار بعد أن تناولنا الغداء في أحد مطاعمها المتواضعة:

_ الآن ستبدأ كثافة النقاط الخاصة بالمليشيا وإذا تجاوزنا نقطة «أبو هاشم» الشهيرة بسلام فقد أنهينا الرحلة تقريبًا.

هززت رأسي موافقًا دون أن أنبس بكلمة، لم أتبادل الحديث مع الرجلين الآخرين طوال الرحلة، كل منا لديه حديث صاخب مع نفسه تبوح به نظرات قلقة كلما عبرنا نقطة تفتيش تنفضك ككيس من النايلون.

وصلنا نقطة «أبي هاشم» ذائعة الصيت والتي تتصيد الأحرار والأبرياء لمجرد الاشتباه ليزج بهم في المعتقلات بعد إهانات بالغة يقادون ليتم إخفاؤهم معرضون للتعذيب والمساءلة عن علاقتهم الافتراضية مع الجيش الوطني أو المقاومة.

فإذا يأست المليشيا أن وراء الشخص أمر مهم أعادوه إلى أهله بيعًا بمبالغ هائلة أو ميتًا بعد التعذيب الوحشي الذي يلاقيه بين أيديهم.

كنت قد تعودت أخذ قيلولة النوم الغداء إلا أن لكزة السائق لساعدي جعلتني أفتح عيونًا محمرة مبهورة لتطالني سحنة المجند بذلك الشكل الذي أصبح معتادًا لنا بعد أن هبطوا علينا ككائنات فضائية بدائية.

نقطة «أبو هاشم» عنق الزجاجة لرحلتنا كما تخيلتها لكثرة أحاديث الناس المتناقلة حول شدة التفتيش فيها وتمادي الإهانة للناس ذكورًا وإناثًا. ازدحام السيارات وباصات النقل جعل المكان غاصًا بالضيق من أول نظرة. تم إخراجنا من السيارة جميعنا حتى المرأة والأطفال وبعد نبش كل شبر فيها تم تفتيشنا بشكل دقيق وبأصابع خبيرة لا تعرف الخجل. أسئلة دقيقة توجه لكل شخص على حدة ونبش للهواتف والجيوب ثم انتظار محرق للعبور. صوت صفعة مبالغ في رنينها على صدغ رجل بدا كأنه تلقى رصاصة وليس صفعة، صوته الخانع وهم يجرونه إلى خيمة كبيرة يدل على أن الضباع ستأكل من لحمه حتى تشبع. أن ترى رجلًا يهان أمامك وتصمت فأنت أول من سيشك برجولتك أو إنسانيتك، الغصة التي تصاعدت إلى حلقي كتمت أنفاسي فصار تنفسي تشنجًا مبحوحًا. أمسك السائق بمعصمي المتكور بتشنج وهو يهمس:

_ هذا أمر طبيعي جدًا هنا. ونحن لدينا وجهة يجب أن نصلها فابتسم أرجوك.

ابتسم!!! إنه الوجع الذي يجعلك تقهقه ضاحكًا أيضًا، الإنسان في هذا الوطن أقل مرتبة من هذا الحمار الذي يعبر النقطة واثق الخطى يمشي ملكًا.

ونحن نستأنف الرحلة بعد ساعات انتظار أغلقت أذني جيدًا ربما يختفي صدى تلك الصفعة في وجه رجل بريء أثارت براءته شكّ الوحوش، أغمضت عيني جيدًا كي لا تسطو نظراته المصدومة المهزومة على الطريق الممتد قبالتي، أو ربما كي لا أرى عجزي الدائم حول كل شيء يحدث أمامي لتعذيبي.

****

كثرت نقاط التفتيش طوال الطريق من مخرج مدينة «ذمار» وحتى الوصول إلى منطقة «قانية» التي يقع جزء منها تحت سلطة شرعية الدولة، على يمين الطريق كانت تقع قلعة العامرية الأثرية، والتي تكتظ بالأسلحة وبالمعتقلين الأبرياء، وبين فترة وأخرى تصبح هدفًا لطيران التحالف الذي يتراجع عن قصفها بعد ثبوت وجود العشرات من المعتقلين من المدنيين الأبرياء داخلها.

دأبت المليشيا على وضع المعتقلين دروعًا لها في مخازن الأسلحة بكل جبروت وقسوة منذ أول أيام قصف التحالف قبل عامين تقريبًا. ذهب في مدينة ذمار ضحايا بهذه الطريقة المتوحشة من الصحفيين الأبرياء الذين لن تنساهم ذاكرتنا كصحفيين أشهرهم «عبد الله قابل» و «يوسف العيزري» اللذان قضيا مع رجل السلام في مدينة إب « أمين الرجوي» وآخرين في قصف لمواقع أسلحة كانوا هم دروعًا بشرية مقيدة هناك بلا رحمة أو إنسانية.

تجاوزنا منطقة «السوادية» انطلاقًا نحو «قانية» هناك حيث تبدأ نقاط المقاومة بعد اختفاء نقاط المليشيا تدريجيًّا وحيث ستنزل العائلة كما أخبرني السائق. النهار يودعنا لتلتهمنا الصحراء ليلًا.

ترجلت العائلة في سوق قانية المزدحم وكذلك الرجل الذي بجواري، ورغم أنه لم يكن بنصف حجمي إلا أنني شعرت بالراحة لاستيلائي على المقعد كاملًا.

تزودنا ببعض الأغراض الضرورية والماء وانطلقنا نحاول إدراك خيوط الشمس الأخيرة وهي تسحبها رويدًا من بين رمال الصحراء التي اكتست بلون داكن بعد انسحاب الشمس. هدوء الصحراء والليل إذا اجتمعا قضيا على سكينة النفس وبعثتا حنينًا عارمًا كعاصفة رملية لا تبقي ولا تذر..

الصمت بعد هديل الأطفال الثلاثة يبدو خانقًا. كأنني غفوت؟!! أسمع صوت مكنسة من القش، تكنس أمام دكان الشاب عاطف المقابل لنافذتي في عمارة أم ناجي، لا ليست مكنسة الشاب عاطف صاحب النظارة التي لا تستقر على أنفه.

إنها مكنسة أمي المصنوعة من سعف النخيل وهي تزيح بقايا الخبز المحروق من على جدار التنور، نعم إنني أشم خبز أمي.. وأسمع صوت أمي تصرخ.. وحيد.. وحيد.

ولم أعد أشعر بشيء حتى الألم.. سأغفر لك يا موت.. سأغفر كل شيء..

سوى أني لم أسمع صوتك قادمًا حين الرحيل.

****

لولا الحزن الذي يعتصر قلوب من يحبوننا حقيقة، لكان الموت أجمل النهايات السعيدة للحياة. مر وقت طويل كأنه عمري الأربعين.. هل أنا على قيد الوعي؟

يبدو أن حادث وقع لنا حين سرقتني مني غفوة؟

هل هذا جسدي الممدد فوق روحي ثقيلًا يعجزني عن الحركة وحتى الأنين؟

هل هذه الحفرة في الرمال صدر أمي؟ هل هذا أنا من يحتضر وحيدًا في صحراء العمر والوطن؟ لم يحن الوقت بعد يا وحيد كي ترحل.. مازال في العمر أمور عالقة تنتظر قلبك الدافئ لا تجعله يصمت، هيا انبض يا قلب وحيد.

ليتني لم أعرف نفسي فإذا همت بالرحيل لا أفتقدها في هذه الصحراء.

«إني أتعثر بالموت يا أمي للمرة الثالثة، وحيدًا للمرة الثانية، ففي المرة الأولى كان صدرك قربي يبكي ويمدني بالنبض حتى أفاق قلبي من غفوته»

أنا ملقى على ظهري هنا فاغر العينين أرى النجوم كم تشبه كل أحبتي الراحلين، وجوههم تضيء عتمة الوطن وتثقل عتمتي بالشوق والحنين.

كلهم هنا، فخري، عمار، عيسى، حتى طارق، وأحمد النويرة، هل مات أحمد؟

يا إلهي يكفي الحنين لكل هؤلاء إنه يقتلني وليس حادثة الطريق.

ما كان أقربني من ذات حلم يبدو أننا لن نلتقي، سامحيني يا أمي فمنذ ولدت لم أزرع في عينيك سوى القلق وأخيرًا هذا الحزن بلا مدى. سامحيني يا رفيقة العمر سأترك لك حملاً يثقل القلب.

سامحيني يا عفراء يبدو أن حلم اللقاء أعذب مما قد يمكن أن يحدث.

سامحني أيها الوطن الجريح مثلي عجزت كعادتي أن أدافع عنك أو أصنع من أجلك مستقبلًا أو حتى أطهر جراح الماضي مما علق به. أنا بخير الآن.. كميت ترك الحياة وأوجاعها خلفه ورحل. وحيدًا هنا.. أنزف الحياة حتى تشرق الشمس.

لن أنجو يا إلهي مادامت السماء بعيدة كأمي النجوم وجوه رفاقي الراحلين.

حبات الرمال تبكي دمي، تبلل جراح عنقي النازف، قم يا أنا مازال في العمر أمور عالقة، كيف تموت وفي جيب صدرك قلب ينبض بالأمل؟

انتهى الجزء الأول بحمد الله.

لا أحـــد يريــدك كمـــا أنت؛

حتى الموت سيجردك من جسدك

ويصطحـب روحـــك فقـط.

(شـائـف)

وسط الصحراء بعيدًا عن الطريق الأسفلتي الذي أضاءت وضوح ملامحه كثبان الرمال وانتشار الحفر لمح «حمد» شبح السيارة المقلوبة على ظهرها كحشرة ضخمة من حشرات ليل البيداء الحالك. قال لرفيقه وهو يقود سيارتهما الصحراوية بسرعة:

ـ يبدو أنه صوت حادث آخر كما توقعت.

قُرب السيارة المحطمة جسد رجل مسجى بلا حراك قد انطفأ دفئه بسرعة الريح الساخنة في صحراء مأرب. فتشا السيارة وما حولها بحثًا عن أشخاص آخرين؛ لم يكن بالقرب أحد.

ـ هل تظن أن هذا الرجل هو السائق ربما كان لوحده في السيارة يا «حمد «؟

ـ لا أظن ذلك عادة لا يأتي إلى هذه الطريق شخص منفرد دون رفقة؛ لكنني أظن أنه لا يوجد أحياء؛ انظر إلى السيارة كيف صارت؟

لقد تعرضت لصدمة قوية بأحد الكثبان وطارت مسافة هائلة ربما حدث لها انقلابات مروعة. تعال نبحث في دائرة أوسع ربما تساقط ركاب أثناء انقلابات السيارة؛ انظر فقط إلى أي مدى انحرفت عن الطريق!

على ضوء الكشافات اليدوية المبهرة افترقا للبحث؛ كلٌّ منهما يرهف السمع فأذن البدوي بدقة بصره؛ هتف رشيد بصوت مزق ضجيج الصحراء:

_ يا حمد أسمع صوت أنين خافتًا يأتي من هذه الجهة. انطلق حمد صوبه وهو يقول:

_ ربما هي أصوات الليل أو خيالاتك ... لكن صوت رشيد يقاطعه:

_ هناك شخص بين الرمال.

وصلا معًا يسبقهما الضوء المبهر للكشافات يزيح الظلام عن الجسد المسجى في حفرة الرمل؛ وقف حمد عند رأسه يتفحصه فيما وقف رشيد عند قدميه محاولًا تحريكه وقد سلطا ضوء المصباحين على وجهه هتف حمد برهبة:

_ يا الله إنه حي.. ما زال يئن.. عيناه على أقصى اتساعهما نتيجة الصدمة؛ هيا انطلق لجلب المحفة بسرعة يا رشيد يجب أن نساعد رجلًا يريد أن يعيش رغم هول الحادث.

****

هل كان يحلم ...؟

يسمع ذلك الأنين المتصاعد بوضوح يصدر من حنجرته؛ لماذا يئن؟ لماذا لا يصمت حتى وهو يموت؟!! هل يسمع أنينه أحد آخر؟ لم يلتفت لأنينه في هذه الحياة أحد.

والده الشامخ كعمود خيمة في هذه الصحراء يقف عند رأسه في تلك الحفرة الرملية يبتسم بثبات حزين كما رآه لآخر مرة؛ والدته الوالهة تجثو عند قدميه تبكي بلوعة وكلاهما يشده إليه بقوه في اتجاهين مختلفين. «فخري» اليساري العتيد يصرخ فيه:

_ تحرر يا رجل؛ فهذه الحياة كريهة.

وأحمد النويرة يقف بعيدًا جسده يقطر عرقًا كحبات الياقوت الأحمر ويصيح ضاحكًا:

_ يبدو أني سأسبقك يا وحيد..

يختفي أحمد حين يلفّ جسده برداء أبيض فيخضبه اللون الأحمر المتقاطر بغزارة من جسده وهو مازال يردد ضاحكًا:

_ سأسبقك يا وحيد.

والداه يصبحان ضوءين مبهرين يغشيان عينيه أحدهما عند قدميه والآخر عند رأسه؛ ضوء مبهر لا تحتمله عيناه المتألمة فتتسع حتى المدى كأنها تحتوي ملامح وجهيهما قبل أن يتلاشيا كأحمد ليصبحا شمسين صغيرتين تحاول رفعه عن الأرض برفق.

ويغيب ليبقى الأنين الخافت كالنداء الأخير.

****

في مستشفى مأرب العام أجريت الإسعافات اللازمة لإنقاذ وحيد؛ فعل الأطباء كل ما بوسعهم؛ تعرض فخذه للكسر إثر السقوط أو الارتطام بالأرض؛ كان بحاجة إلى صفيحة تساند العظم المتفتت؛ لكن الخطورة في تلك الضربة القوية خلف رأسه والتي خمن الطبيب أن سببها ارتطامه بقوة بسقف السيارة أثناء تقلبها؛ فيما عدا ذلك فكل الخدوش والجروح يسيرة العلاج.

حين عاد حمد مع بعض الأشخاص لجمع المقتنيات المتناثرة حول السيارة مع أغراض الرجلين سهل عليهم معرفة شخصيته وحيد وآخر الأرقام التي تواصل بها. كان شائف آخر من اتصل به وحيد؛ وكان هناك في مأرب من أجل ملاقاته.

وصل شائف إلى المستشفى في حال من الكدر والحزن؛ فقد كان ينتظر وصول وحيد محملًا برائحة صنعاء وإب وكل ذلك العمر الجميل الذي قضياه معًا.

لم يصدق عينيه وهو يرى رفيق اختبائه في منزل «أحمد النويرة» كم غيره عامان من الهموم؛ شائف الذي كان يستنكر عادة التدخين عند وحيد خوفًا عليه.

ها هو يراه مسجي أمامه قد هده أكثر من الهموم والتدخين وجرح الوطن النازف.

خلال أيام من المراقبة والانتظار لتحسّن في حالة وحيد الحرجة انتابهم اليأس أن يفتح عينيه رغم استقرار نبضه وتنفسه؛ قرر شائف

أن يرحل بصديقه إلى المملكة عبر منفذ الوديعة القريب والذي ما زال يعمل في محاولة لإخراجه من غيبوبته وزرع صفائح لساقه المعطوب. رتب للسفر مع صديقه «حافظ» الناشط في المنظمة الوطنية للإعلاميين اليمنيين التي تأسست في مأرب من قبل مجموعة من الصحفيين النازحين والمطاردين والتي تسعى للدفاع عن حقوق الصحفيين والمختطفين منهم.

لحافظ أخ يدعى «صقر» يعمل في المملكة هو أحد الذين لجأوا للاغتراب من أجل الرزق. سبق وأن عاد إلى اليمن مع انطلاقة ثورة ١١ فبراير والحماسة تغمره لإزاحة

النظام صالح الذي يراه سببًا لغربته عن وطنه؛ عاد يحمل روحه على كفه في ثورة سلمية قتل فيها الشباب من حوله في «جمعة الكرامة» وتهاوت أحلامهم بعد ذلك بفعل السياسة المراوغة التي أجهضت الثورة وحولتها إلى فوضى أهدرت دماء رفاقه وتضحياتهم. في عودته تلك تعرف إليه شائف لتردده على خيمة المركز الإعلامي برفقة حافظ. يدرك شائف أن العودة إلى المملكة صار متعبًا لصعوبة الحصول على تأشيرة دخول لكنه لجأ إلى شخصيات كبيرة في حكومة الشرعية كي يمنح تأشيرة دخول له ولوحيد بغرض العلاج كما يحدث لجرحى الحرب.

كان شائف قد عاد إلى مأرب للاستقرار فيها ضمن الكثيرين ممن عادوا ا إلى الوطن بعد أن صارت مأرب قبلة للأحرار؛ عاد الكثيرون ممن نزحوا إلى الرياض عقب اقتحام المليشيا لصنعاء وبقية مدن

اليمن خوفًا من الاعتقال والتصفية ضد منتسبي حزبه وسواهم ممن ناهض المليشيا.

آخر لقاء جمعه «بوحيد الأمير» تلك الأيام التي قضياها معًا في منزل «أحمد النويرة» قبل دخوله المملكة؛ «وحيد» الآن مسجى أمامه على سرير المستشفى لا هو بالحي أو الميت و»أحمد النويرة» رهن اعتقال المليشيا قد انتابهم اليأس من إنقاذه ضمن صفقة تبادل أسرى.

****

بعد ساعات طويلة من سفر مرهق عبر طريق محفر وصلت سيارة الإسعاف التي تقل وحيد وشائف إلى منفذ الوديعة؛ ومنها إلى مستشفى شرورة العام في الأراضي السعودية؛ ليتم طلب طائرة إخلاء طبي أقلته إلى مطار الرياض وهناك استقبله «صقر» ومعه بعض أصدقائهم الذين علموا بالحادث.

أدخل وحيد مستشفى «سليمان الحبيب» في حي «العليا» مستشفى خاص اختاره شائف لشهرته رغم تكاليفه الباذخة.

ابتسم شائف برضا وطمأنينة ما إن دخل «وحيد» حجرة العمليات؛ شعر أنه أخيرًا استطاع أن يؤدي حق الصداقة التي جمعتهما؛ طوال الأيام الماضية وهو يخفي قلقه أن تنطفئ أنفاس وحيد بين يديه دون أن يتلقى عناية طبية متخصصة فإصابته قوية ومستشفى مأرب العام يزدحم بالجرحى وليس فيه الإمكانات التي تؤهله للعناية به لذا جعل الأطباء ينصحون بأخذه إلى مشفى أفضل في مدينة أخرى أو السفر به.

لم يقبل شائف نصح البعض أن يكون وحيد ضمن قائمة الجرحى الذين يدخلون إلى المملكة لتلقي العلاج خشي ألا يجد الرعاية والاهتمام الكافي فيكون الإهمال سببًا في موته أو خسارة ساقه كما حدث للكثير من الجرحى حين بترت أطرافهم بسبب إهمال العلاج وتأخره.

بعد ساعات من انتظار خروجه من حجرة العمليات وعمل صفائح معدنية لفخذه استقر وحيد في حجرة ناصعة البياض تحيط به أجهزة الإنعاش والتنفس.

وكما أخبر الطبيب شائف: وحيد يعاني غيبوبة تحدث كحالة نادرة؛ قد يفيق منها في أية لحظة وقد يتوقف تنفسه ونبض قلبه أيضًا في أية لحظة.

****

المعتقل ليس مشروع شهيد

بل هو روحٌ لشخص حرّ حق له أن يعيش.

(بن معوضـــة)

فتح بن معوضة عينيه في الضوء الخافت مازال شبح الليل قائمًا بين أزقة بيوت القرية كما خيل إليه. ابتهل في سره أن ذكرى البارحة مجرد كابوس جثم على صدره كجبل «ظفار» الرابض على صدر الأرض بصمت؛ لكن ساقيه المشدودة والألم الذي يلسع مؤخرة عنقه يؤكد أن ما حدث بالأمس كابوسًا مروعًا لكنه عاش تفاصيله حقيقة.

مكوثه لثلاث ساعات مشدود الأطراف بالحبال إلى طاولة خشبية وتدلي ساقيه على حافتها حتى فقد القدرة على تحريكها وهذا الألم المضني في عظام رقبته بعد أن بقي مضغوطًا عليها لساعات على حافة الطاولة القاسية في الجهة المقابلة كل ذلك يقول إنه معتقل لدى أقبح البشر.

تذكر قريبه الذي قتل في مواجهات بين شباب في القرية المجاورة لقريته وبين مليشيا الحوثيين عند اقتحامهم لتلك القرية.

كان قريبه يحاول التوسط بين الأطراف لتهدئة الوضع فقط؛ لكنه قتل أثناء الاشتباك برصاصة لا يعرف مطلقها وتحمل محمد دمه ظلمًا

لا يدري كيف؟ فلم يكن حاضرًا في الاشتباك حتى؛ إنما حضر موقفه الرافض لوجود المليشيا.

إلصاق التهمة أمر معد له من أجل الإيقاع به كمعارض لوجود المليشيا الغادرة ورفضه لبسط نفوذهم في قرى المنطقة بذلك الوجه السافر في الظلم والتجبر.

كان أحد أولئك الذين قاوموا هذا الوجود الغاشم لمليشيا الخراب بالتوعية ورفض وجودهم كبديل للدولة بعد فرض وجودهم بقوة السلاح والقتل.

يومها اتصل به قريبه والد القتيل وهو في منزله بين أطفاله الستة واتهمه بقتل ولده أثناء الاشتباك فطار صوابه صدمة وألمًا لما يقول. هو الذي لم يرفع سلاحًا في وجه المليشيا فكيف سيقتل به قريبه وابن قريته؟

أخبر الوالد المكلوم أنه على أتم الاستعداد أن يسلم نفسه لهم وأن يكون دمه بدم القتيل لو ثبت أنه تواجد في مكان الاشتباك أو أن له يدًا في قتل قريبه.

إصرار الكثيرين ممن تواصلوا معه على أن يقوم بتسليم نفسه لحملة الحوثيين القابعة على مشارف القرية في طلبه جعله يخضع لمطلبهم بعد أن أعطوه الوعود ألا يمس بأذى وأن يلاقي معاملة إنسانية وتحقيقًا عادلاً ينصفه ويثبت براءته؛ ووافق على تسليم نفسه وكانت هذه هي غلطته الموجعة حقًا..

ما إن وصل إليهم برفقة بعض وجهاء القرية حتى كبلوا يديه وعصبوا عينيه بشدة متعمدة حتى كادت عيناه أن تنفجر تحت العصابة الثقيلة وأصيب بضغط شديد في رأسه جعله بمرور الوقت يشعر بالدوار طوال الطريق وهم ذاهبون به إلى سجن لم يستطع أن يحدد موقعه أو المسافة إليه.. وهناك جردوه من ساعته الثمينة وكل ما يمتلك في جيوبه كعادتهم. بقيت العصابة كما هي حول عينيه ووجع رأسه يتفاقم مع قلق خفي مما ينوون فعله به. وعلى الفور مددوه على طاولة خشبية كانت أقصر من قامته وربطوا أطرافه بقوة حول الطاولة فبقيت ساقاه تحتك بطرفها الحاد وعظام رقبته من الخلف تكاد تنكسر ورأسه يتدلى رغمًا عنه. لساعات ظلت تُلقى عليه أسئلة لم يجد لها إجابة..

ـ من هم الذين يتزعمون مقاومة وجود أنصار الله في منطقتكم؟

ـ هل فلان من حزب الإصلاح هو زعيمكم؟

ـ ما الأسلحة التي تمتلكونها للمواجهة؟ ومن يمدكم بالسلاح؟

أسئلة غرضها تعذيبه ذهنيًّا ونفسيًّا وكأنهم متأكدون من عدم وجود إجابات لها ولا ينتظرون أن يتحدث حولها بل يتناوبون على تعذيبه في ذلك الوضع فقط.

كل من في قريته والقرى المجاورة يعلم أنه معلم وفنان يرسم الخط بمهارة ولا علاقة له بالسلاح أو الانتماء للأحزاب.

وأخيرًا بعد ساعات طويلة فكوا وثاقه وتم سحبه إلى زنزانة ضيقة (كونتيرة) ورموه على أرضيتها مباشرة ولشدة تعبه وألمه وذلك

الغضب الذي يحرق صدره نام كالقتيل حتى الصباح.

****

في الصباح عجز عن الوقوف بسبب التسلخات في باطن قدميه وساقيه ورضوض جسده التي انتشرت كالإبر تخزه كلما تحرك ولو أدنى حركة.

التفكير في عائلته ألم آخر ينغرز في صدره فهو يعلم أي ضغط نفسي سيواجهون بسبب اعتقاله. كثير ما يتعمد الحوثيون دفع ذوي المعتقل إلى حالة يأس من عودة معتقلهم حتى يتم دفع مبالغ طائلة من أجل إنقاذه.

لثلاثة أيام بلغ فيها الإرهاق والقلق والجوع مبلغه لا يلقى إليه سوى كسرة خبز في اليوم مع إدام لا يعرف له طعم واقتصر خروجه من زنزانته على مرتين إلى دورة المياه يصطحبه أحد حراس المعتقل.

يعلم أن أفراد المليشيا سيخبرون كل من يسأل عنه عن فداحة اعترافاته التي ستودي برؤوس كثيرة اشتركت في مقاومة حملة المليشيا كما هي طريقتهم سيصيب هذا عائلته بحزن وقهر لعجزهم عن إنقاذه أو إخراجه أو حتى رؤيته. في مساء اليوم الثالث دخل عليه أحد المشرفين وأمره بالخروج من الزنزانة طالبًا من الحراس ربط عينيه. فقال بن معوضة للمشرف:

_ أنتم تعلمون أن لا علاقة لي بشيء وأني بريء من أية تهمة ولهذا سلمت نفسي طواعية فلماذا تفعلون هذا ولماذا لا تطلقوني؟ فأجابه

المشرف بسخرية:

_ عليك أن تشكر الله أننا مازلنا نعاملك برفق بعد وجود أدلة مؤكدة أنك تقوم بالتحريض علينا ضمن مواقع التواصل التي تفسدون بها عقول الناس.

فقال محمد بحسرة غضب: أستحق ما دمت سلمت نفسي لكم.

فرد المشرف بسخرية أشد:

_ كنا سنفجر بيتك. فصرخ محمد بغضب أكبر:

_ فجروه.. لا يهمني ذلك؛ لن تغني أحجار المنازل عن حرياتنا التي تفجرونها؛ لماذا كل هذا الحقد؟ ما الذي يجعلكم تفجرونه وأية فائدة ستعود عليكم؟

لم يجب المشرف بل أمر أفراده أن يعصبوا عيني محمد بقوة ويخرجوه.

أخرجوه دفعًا من الزنزانة الترابية وأصعدوه إلى صندوق سيارة مكشوفة. وطوال سيرهم ومحمد يرهف السمع عله يميز الطريق التي تمرّ فيها السيارة والتي ظلت تسير لأكثر من خمس ساعات تعمد أفراد المليشيا ألا يتحدثوا بكلام يمكن أن يفهم من خلاله إلى أين يذهبون به. حين وصلوا مكان المعتقل الجديد تم تسليمه لشخص بانتظاره. كان متحفزًا رغم ألم رأسه بسبب العصابة السميكة والمربوطة بقوة؛ أدخله الحارس إلى حجرة متوسطة وفك عصابة عينيه وتركه يجيل النظر في الحجرة.

من كومة البطانيات والفرش والمخلفات الملقاة في أرضية الحجرة عرف أن نزلاء سابقين قطنوها قبله. ومن زجاج النافذة المتطاير في أنحاء الحجرة والثقوب التي ملأت الجدران وخزانة حديدية موضوعة في مقابل النافذة قد تلقت ضربة قوية بدا كأن الغرفة تعرضت لهجوم ما. التفت نحو الرجل وسأله بثبات؟

_ أين أنا؟ فأجابه الحارس بلؤم:

_ أنت في صالة استقبال «مريم» التي تؤيد قصفها لبلدك. فرد بن معوضة بحدة:

_ لعنة الله عليكم وعلى تحالفهم؛ كلكم تدمرون اليمن من الداخل والخارج.

فضحك الحارس بشماتة وهو يقول:

_ لهذا أنت هنا. وخرج مغلقًا الباب بقوة.

خلال أسبوع تشابهت فيه أيام المعتقل ظل محمد بن معوضة تحت قصف الطيران لذلك المكان. تخلل الأسبوع وجود نزلاء جدد يأتون ويذهبون ليقيموا في نفس الحجرة.

كانت ميليشيا الحوثيين تلتقط معتقليها من بيوتهم أو الشوارع بتهمة الداعشية والنفاق التي ابتكروها كعذر يرددونه في أعلامهم.

أحد النزلاء رجل مسن أطلقوا عليه الرصاص ثم اعتقلوه من المشفى وجلبوه إلى الزنزانة في حالة يرثى لها؛ إصابته فوق الكلى

مباشرة ولم تتماثل للشفاء بعد فما زالت قسطرة البول معلقة بجسده مختلطة بالدم. منذ وصوله وهو يتوجع حد البكاء من شدة ألمه حتى يبكي محمد لبكائه؛ أخبر محمد أن سبب اعتقاله هو مداهمتهم لمنزله بسبب بلاغ عن ذهاب ولده إلى مأرب ملتحقًا بالمقاومة والجيش الوطني.

قضى الرجل المسن أيامًا في الزنزانة مع محمد فريسة للحمى والألم وكثيرًا ما توسلا الحراس أن يعطوهما أي مسكنات أو مطهرات لجراحه حتى تم أخذه ذات صباح لا يدري محمد إلى أين أخذوه؟

سكن الزنزانة معه أيضًا أخوان مدرسان في إحدى المناطق البعيدة عن صنعاء تم اعتقالهما مع والدهما الذي بلغ من العمر عتيًا. أحد الأخوين مصاب بخراج في رأسه ويحتاج إلى عملية جراحية لشفط السوائل كل فترة لهذا قدما إلى صنعاء مع والدهم؛ وفي إحدى النقاط الحوثية تم تفتيش سيارتهم ليجد أفراد المليشيا بحوزتهم مبلغًا من المال يغري بالسرقة؛ تمت مصادرة المبلغ كاملًا مع السيارة واعتقل الأب المصاب بمرض القلب مع ولديه. ثم أطلق سراحهم وصودر مالهم وسيارتهم وحين عادوا للمطالبة بها تم إدخالهم المعتقل الذي فيه بن معوضة.

خلال أيام استاءت حالة الأب لعدم وجود الأدوية التي يعيش عليها أطلقوا سراحه وأبقوا على ابنيه كيلا يطالبان بأموالهم المنهوبة.

في اليوم الثالث لوجود بن معوضة في زنزانته عرف تحديدًا أين هو من أحد المعتقلين في زنزانة أخرى قدموا به إلى نفس الزنزانة فقد

كان نزيلًا قديمًا هنا. إنه أحد المعسكرات الموجودة في صنعاء والذي أصبح هدفًا لقصف المليشيا ومعتقلًا للأبرياء بعد أن كان مخزن أسلحة فقط.

****

في إحدى الليالي تم نقل محمد إلى غرفة أخرى تمهيدًا للتحقيق معه؛ بعد ساعة من دخوله الزنزانة أتى أحد الحراس وربط عينيه وأدخله غرفة التحقيقات؛ أجلسه على مقعد حديدي وأطبق عليه صمت الترقب قبل أن يأتي صوت المحقق سائلًا إياه؟

_ ما سبب وجودك هنا؟

_ سلمت نفسي طوعية بعد اتهامي بالمشاركة بقتل أحد أقربائي ظلمًا؛ والجميع يعلم أن لا علاقة لي بالأمر مطلقًا. وكأن المحقق لم يسمع سأله بصرامة:

_ قل الصدق. فرد محمد بن معوضة بثبات:

_ لقد قلت الصدق الذي يعلمه جميع أهالي القرية. فصرخ المحقق:

_ ستتعرض للصعق بالكهرباء الذي ينطق الأحجار ذاتها. فرد محمد بإصرار أشد:

_ افعلوا ما بدا لكم؛ أنا صرت بين أيديكم بمحض إرادتي وكان بإمكاني الهروب إلى أي مكان أو حتى دولة قريبة منذ قتل قريبي وحتى تسليم نفسي.

بدت دفاعه وتبريراته كأنها تخصه وحده وليس من يوجهون إليه الأسئلة؛ أشار إليهم المحقق أن يقوموا بعملهم المعتاد. أجلسوه على الأرض وأمروه أن يضع كفيه خلف ساقيه حتى تصل ركبتاه إلى ذقنه وربطوا يديه بقوة حتى صعب معه التقاط أنفاسه. قاموا بتعليقه بقضيب حديدي يمر تحت ركبتيه ويديه؛ ظل رأسه يتدلى في ذلك الوضع المؤلم وهم ينهالون ضربًا عليه بسلك مظفور أعد لهذا الغرض.

كانت الضربات تشمل جسده كله وتتركز على قدميه والمناطق الحساسة من جسده.

ولأكثر من أربع ساعات تناوبوا على ضربه وتعذيبه غاب فيها عن الوعي مرتين عمدوا إلى إيقاظه بصب الماء على فتحتي أنفه وضرب رأسه ببياداتهم العسكرية ضربًا مركزًا.

أربع ساعات كان محمد يفيق ليتمنى الموت فقط..

أربع ساعات تمزق جلده وتمزقت إنسانيته تحت وقع أسئلة تستخف به كي يطول عذابه تحت وقع ضرباتهم الحاقدة.. فقد إحساسه بما حوله حتى ضرباتهم التي انتزعت جلده؛ أنفاسه تتردد بصعوبة ورأسه المتدلي لساعات يكاد ينفجر من ضغط الدم. حينها فقط تم إنزاله من حيث علقوه؛ وتركوه بنفس الوضعية مربوطًا تختلط دموع القهر بالدم.

لا يدري كم بقي على هذا الوضع فاقدًا لوعيه والشعور بأطرافه؛ أتى اثنان منهم وفكا رباط يديه وأوقفاه بصعوبة بالغة؛ غير قادر على ضم ساقيه لشدة الألم بينهما وقد عجزتا عن حمله لتسلخ باطنهما.

أدخلاه الزنزانة ورميا به على الأرض جثة شبه حية.. بكى الأخوان شفقة عليه وعلى نفسيهما بعد أن شاهدا أثر التعذيب على كل جسده وصار شبح الاستدعاء للخروج من الزنزانة لا يعني إلا تعذيبًا يكون الموت أرحم منه. سيتذكر محمد أن نعمة الشعور بالشيء الحار أو البارد أو الخشن والناعم لن تعود إلى أطرافه إلا بعد ثمانية أشهر من اعتقاله.

ظل لأيام في الزنزانة يعاني آلامًا مبرحة أنسته كل يوم جميل مرّ في حياته؛ صار التفكير بعائلته وقلقهم عليه أخف هذه الأوجاع؛ والخوف ألا يلقاهم أكثرها تعذيبًا له. ما كان يمرّ في خاطره أن تصبح حياة الناس بلا قيمة هكذا بغياب القانون وحق الإنسان في أن يثبت براءته وكرامته. أن تتحكم بالناس وبحياتهم ومصيرهم عصابة إجرامية تدعي سلطة القانون والحق الإلهي!! ولا تجد من يوقفها عن ممارساتها ضد بشر لا يملكون لأنفسهم حولًا ولا قوة.

تناوشته الحمى فكان يغيب عن الوعي ويهذي بأسماء أطفاله وكأنهم حوله فإذا أفاق لم يجد سوى جدران الزنزانة التي انتشرت فيها الثقوب كعيون هؤلاء القتلة وهم يحدقون في عذابه وألمه بتشفٍ وقسوة.

في صباح أحد الأيام فُتحت الزنزانة وتم اقتياده بعنف من بين أيدي الأخوين من أجل نقله إلى زنزانة أخرى؛ لم يعد يهتم أين يذهبون به. لقد لاقى أقسى ما يمكن تخيله من معاملتهم. والموت في هكذا ظرف يعد رحمة فقط.

تم إنزاله إلى قبو المعتقل؛ المكان الذي حوى أصناف التعذيب والإهانة.

يمتلئ بالمعتقلين في زنازين انفرادية وجماعية. كان يوم عيد وهم بانتظار قصف صواريخ التحالف كهدية عيد كما أخبرهم المشرف الحوثي؛ لذا استقبله المعتقلون بالترحاب كهدية عيد مغايرة عما كانوا يترقبونها بقلق لا يوصف.

هناك تفاجأ بوجود الشيخ «قاسم» الذي يكن له احترامًا شديدًا؛ رجل ستيني عرف بنبله وسيرته المشرفة في منطقته والمناطق المجاورة؛ بكى من الداخل وهو يتعرف على المعتقلين: كرام الناس وشرفائهم هنا معتقلون وكل اللصوص والقتلة يسرحون ويمرحون في طول البلاد وعرضها!! ماذا حدث لهذا العالم الظالم؟!!

الشيخ القبلي سلم نفسه طواعية أيضًا كي يجنب أبناء منطقته حربًا مع جماعة الحوثي قد تؤول إلى نهايات دامية في كل بيت.

المليشيا في دأبها المعتاد وهي تفرض سلطتها ونفوذها الزاحف في أرجاء البلاد أصرت على فتح مكتب يمثلها في تلك المنطقة وإقامة مشرف مساند لهم هو الوحيد الذي استقبل حملتهم بالترحاب وقام بضيافتهم كي ينوب عن المليشيا في تلك النواحي؛ لكن أبناء المنطقة رفضوا جميعًا أي وجود يمثله مكتب للحوثيين. حينها تم استدعاء الشيخ «قاسم» وحين وصل إليهم سألهم:

_ ماذا تريدون من القرية وما المطلوب من حملتكم هذه؟

تجاهل المشرف الحوثي الشيخ تمامًا إمعانًا في الإهانة فعاد

الشيخ «قاسم» إلى منطقته مكروبًا يعلم أنهم يعدون العدة لشن هجوم ترهيبي مباغت. وبالفعل تفاجأ أبناء المنطقة في اليوم التالي بانتشار كثيف لمسلحي المليشيا ومحاصرة المنطقة بمختلف الأسلحة. حين وجد الشيخ «قاسم» أن اشتباكًا دمويًّا سيحصل مع لجوء أبناء المنطقة لأسلحتهم قرر أن يحقن الدماء ويعود إلى حملة الحوثيين عله يصل إلى تفاهم يرضي الطرفين. لكنهم اعتقلوه فور وصوله وتم نقله من معتقل إلى آخر.

سأله محمد وقد نسي كل آلامه في وجه ذلك الانكسار على ملامح الشيخ:

_ هل قاموا بتعذيبك شيخنا؟ هز الشيخ رأسه بأسى:

_ جسديًّا لا.. لكن ألم الإهانة والتعذيب النفسي أشد وجعًا يا محمد؛ إنه ألم يقتلك كل يوم ألف مرة ولا تموت.

_ يا الله.. نعم إنها الكرامة التي إذا مست كانت عذابًا أبديًّا.

ابتسم الشيخ في وجه محمد مواسيًا وهو يرى عيونه تغالب الدمع شفقة بسن الشيخ المتقدمة وسأله ضاحكًا:

_ وأنت ما فعلوا بك؟ جراحك وخطواتك المتوجعة تقول الكثير؟

سرد محمد تفاصيل اعتقاله باستغراب مما جرى له كمن يستعرض مشاهد خيالية كان بطلها الرئيسي. أحيانًا لا يهم وجود سبب يستحق أن تعتقل وتعذب لأجله فأحد المعتقلين الموجودين في القبو قصته أقرب

للمزحة منها للحقيقة فالرجل صاحب متجر متواضع في إحدى المدن كان ذاهبًا إلى القرية لقضاء إجازة بسيارته المتهالكة؛ رجل متواضع ولا علاقة له بالسياسة أو الجماعات أيًّا كانت. لكن حظه التعس جعله يقع فريسة للمليشيا في إحدى نقاط التفتيش حين استوقفوا سيارته لمعاينتها لكن مكابح السيارة لم تستجب لضغطه المتكرر فتجاوز النقطة بمترات قليلة جعلت أفراد النقطة يتحولون إلى كلاب مسعورة ويهجمون على السيارة بأكملهم وبعد إهانة وضرب وإصراره على أن مكابح السيارة هي السبب في عدم توقفه تم توجيه تهمة مساندته لتنظيم القاعدة وإلهاء النقطة الأمنية حتى تمر سيارة تخص التنظيم فيما هم مشغولون بملاحقة سيارة هذا التعس الذي اقتادوه ليقضي إجازته المرتقبة في معتقل المعسكر ذاته.

سائقو الحافلات أيضًا موجودون بين المعتقلين كمتهمين بنقل أشخاص للانضمام للمقاومة في مأرب. وأيضًا مجندون قدامى رسميون تكون مناطق خدمتهم خارج سيطرة الحوثيين هؤلاء يعملون بوظائف في الدولة يتم اعتقالهم كأعداء لمجرد أنهم مجندون.

ازدحم المعتقل بكل أصناف الناس هنا من بائع القات وحتى الدكتور الجامعي وخطيب الجامع والمدرس والطالب. وككل المعتقلين السياسيين لم يكن عليهم أي تهم بل هم مواطنون صالحون صحائف أعمالهم مشرفة لكن جريمتهم معارضة الانقلاب وهذه تكفي كي تلفق لهم التهم المختلفة بحسب الحاجة.

لم يكن هناك سوى اثنين من المعتقلين جنائيًّا أحدهما مشرف

حوثي قام بقتل أحد ضباطهم فأودعوه السجن دون أن يقوموا بأي تعذيب جسدي له أو حتى نفسي رغم أنه يشتمهم في وجوهم ويهددهم قائلًا كلما نشبت بينهم معركة كلامية:

_ أنتم من تصنعون الدواعش صناعة قسرية بأنفسكم؛ فمن يخرج من جحيمكم هذا ولو كان حمامة منتوفة الريش ثقوا أنه سينفجر في وجوهكم حممًا أنتم من ملأ بها جوفه. السجين الآخر حوثي أيضا؛ لا يزال أقرب لسن الطفولة قتل زميله أثناء مشادة على الغنائم وتم وضعه في زنزانة انفرادية كانت أفضل زنزانة موجودة في المعتقل لكنه ظل يبكي طوال الليل فأخرجوه ليكون في زنزانة جماعية وهم يسخرون من بكائه وأنه ليس رجلًا كفاية ليكون مجاهدًا.

غير هذين الاثنين لم يكن أحد من المعتقلين يستحق البقاء في هذا الجنتناموا المصغر ساعة واحدة تحت رعب قصف الطائرات وهم ينتظرون صاروخًا يطبق السقف على أنفاسهم.

المعتقل يقع داخل ثكنة عسكرية ومخازن أسلحة ولهذا هو أحد أهداف طيران التحالف. وأبرز التهم الموجهة لكل المعتقلين هو التأييد لتدخل قوات التحالف سواء كانوا من مؤيديه فعلًا أم ممن يرفضه.

كل رافض لوجود المليشيا وحليفها هو في نظرهم مؤيد لتدخل التحالف لذا يجدون موتهم على ذمة الطيران ضرب عصفورين بحجر واحد. التخلص منهم أولًا والتباكي عليهم واستغلال مصارعهم أمام الرأي العام.

مع قدوم الطيران يهرب جميع السجانين ويتحصنوا في أماكن بعيدة عن المعتقل في خنادق آمنة أعدوها لذلك تاركين إحساس الترقب المرعب للمعتقلين وهم يسمعون صوت الطائرة ينتزع قلوبهم من حلقوهم بكل تحليق قريب وقد فتحت مجال الصوت ففزعت أصواتهم بالدعاء والاستغفار.

في كل مرة يسمع فيه تحليق الطائرات يحاول البعض استرحام السجانين أو وعظهم بأن يخافوا الله من تعمد هذه الميتة لمعتقلين أبرياء ويذكرونهم بحرمة الدماء؛ لكنهم يردون بكل كراهية: موتوا يا دواعش أنتم تستحقون هذه الميتة.

لكن رحمة الله أو سخطه هو الذي جعل ضربات الصواريخ تقترب حد اقتراب الأرواح من حلوقهم ثم لا تصيبهم بغير ذلك الهلع الذي يفقد البعض صوابه.

الضربات لا تبتعد عن المبنى سوى أمتار قليلة فتتطاير الشظايا على الجدران عشرات القنابل الصغيرة مع امتلاء المكان بالغبار والحصى من فتحاته الضيقة والمرتفعة بحدود السقف والتي لا تزيد فتحتها عن ٣٠×٤٠سم.

أحيانًا يصطحبون بعض المعتقلين لتوزيعهم في أرجاء المعسكر لعل الطيران يصيبهم إن أخطأ آخرين منهم وبعد كل قصف ينجو فيه المعتقلون كانوا يقولون لهم بغيظ:

_ اطمئنوا فالعدوان المجرم لا يستهدف مرتزقته وأعوانه. حين

ينتقي الحراس بعض المعتقلين للخروج من القبو يسألونهم: إلى أين تذهبون بهم؟

فيردون بخبث: تم إطلاق سراحهم.

فيتبادلون التهاني مع بعضهم ويكون وداعهم مؤثرًا ويحمّلون من أطلق منهم أمانة التواصل بأسر بقية المعتقلين وطمأنتهم على ذويهم فأغلب الأسر لا تعرف أين معتقلهم ولماذا تم اعتقاله؟ يكتبوا أرقام هواتف أقاربهم على قصاصات من أغلفة زجاجات الماء أو عُلب الأغذية يخبئونها في شقوق ثياب من اختير للخروج وأحيانًا تكتب خلف ملابسه ذاتها. على أمل أن تلك الأسر المكلومة ستعرف أخيرًا أين أبناؤها مختفون قسريًّا ويتحركون لإنقاذهم بلا شك. وفي النهاية يعرفون عبر معتقلين آخرين أن من احتفلوا لإطلاقهم موجودون في المبنى ذاته في أماكن أخرى.

أحيانًا يقولون إنه تم نقلهم إلى مبني الأمن القومي لإثارة أكبر قدر من الرعب في قلوب المعتقلين على فرض أن ذلك المبنى يكون فيه تعذيب من نوع آخر. رغم أنه لم يعد هناك فرق بين أساليب تعذيب الأمن القومي وكل المعتقلات العسكرية التي تغيب المعتقلين فيها.

في أحد الأيام أتوا بمعتقل جديد حوله حراسة مشددة قد كبلوا يديه إلى الخلف بقوة حتى برز صدره النحيل؛ كان شابًا ذا لحية خفيفة ونظرات فيها هدوء وسكينة رغم أن الدماء تنزف من باطن قدميه وتملأ أرضية المعتقل مع كل خطوة.

أفرغوا له أسوأ الزنزانات الانفرادية والقوه داخلها بجراحه ودمه خاطبهم مشرف السجن: هذا إرهابي خطير من يحاول الحديث معه سأملأ بطنه بالرصاص.

ظل في تلك الزنزانة ما يقرب من الشهرين لم يكن يخرج إلا إلى دورة المياه تحت حراسة مرتين في اليوم؛ يدخلون له فتات الطعام من فتحة أسفل باب الزنزانة الثقيل دفعًا ليصل إليه كيفما وصل.

حاول بعض المعتقلين الحديث معه في غفلة من الحراس وعرفوا أنه من الريف تم اعتقاله وهو في طريقه لزيارة أخته التي تسكن المدينة بمناسبة العيد كان في أحد الأسواق الشعبية حينها لشراء بعض الأغراض كهدية حين قبض عليه على إثر شكوى كيدية بأنه أحد أبرز رجال حزب الإصلاح من قبل أحد أبناء قريته بسبب عداوات أسرية بينهم. أصبحت أكثر التهم التي تثير جنون المليشيا هو الانتماء لهذا الحزب فلا تأخذهم شفقة بالمعتقل.

ظل الشاب متنقلًا بين زنزانته وحجرة التحقيق التي تحولت إلى حجرة التعذيب يخرج منها محمولًا لشدة ما لاقاه في ساعات تمر كالأعوام.

ومن شقوق زنزانته يأتي صوته مصبرًا المعتقلين كلما أتوا للحديث معه يحدثهم عن الأمل بالفرج والثقة برحمة الله. يتناهى صدى صوته بقراءة القرآن خارج ظلمة الزنزانة فتنشرح الصدور خارجها ثقة برحمة الله وقدرته التي تعلو كل قدرة.

قضى أيامًا أخرى بعد تعارفهم به حتى أتى صباح أخذوه من زنزانته ولم يعد بعدها وتردد أنه تم نقله إلى السجن المركزي في صنعاء من أجل صفقة تبادل أسرى.

****

بين ساعات التعذيب التي تنهش أجسادهم أو تلك المعاملة المهينة التي تقضي على الإنسان روحًا وعقلًا تمر أيام الاعتقال وفيها يتجدد الرعب والألم والتعذيب ومخاطر أقلها وأهونها انعدام النظافة لشح الماء عمدًا من السجانين؛ فقد كان يسمح بوجود الماء لفترات محدودة في الأسبوع ومهما تم تعبئة أواني للاحتفاظ بالماء إلا أنه يظل قاصرًا على استخدامه للحمام والضرورة القصوى. أما الاستحمام فحلم عواقبه وخيمة يضطر المستحم إلى عذاب مسح أرضية المعتقل بجسده عقابًا له.

المعتقل جزء من جهنم حتى وإن لم يكن هناك تعذيب فأصوات التعذيب في غرفة التحقيق عذاب كافٍ؛ القلوب حينها تخفق في الحلق تمامًا. لقد تعمدوا ألا يغلق ملف التحقيق لأي معتقل حتى يظل رعب الاستدعاء إلى مكتب التعذيب أرق الليل والنهار.

في حالات نادرة يتم إغلاق ملف التحقيق حين يبصم المعتقل على اعترافات لا يدري ما هي أصلًا ويكون لون حبر البصمة أحمر. أصبح رؤية الحبر الأحمر على الإصبع يستحق التهنئة والاحتفال؛ حتى لو كانت البصمة على اعتراف يؤدي لقطع العنق.

محمد بن معوضة من أولئك الذين بقي ملف التحقيق خاصتهم مفتوحًا إلى ما لا نهاية ليظل قلق الاستدعاء شبحًا يلاحق خياله في كل حين؛ ليس قلقًا من التعذيب الجسدي بقدر ألم العذاب الحاصل من الإهانة وكسر النفس.

حولوا أوقات المعتقل إلى عذاب دائم حتى بسماع الزوامل التي تتوعد الدواعش والمرتزقة بالقتل والتنكيل ويقصد بهم المعتقلين وما في تلك الزوامل من إهانات ووصف الخيانة والنقائص وتعمد بثها بأعلى مستوى للصوت في كل وقت كجزء من التعذيب.

الدروس التي تلقى من ملازم السيد زعيمهم بشكل شبه يومي كانت عذابًا عقليًّا آخر.

حتى أسراب البعوض التي حولت أجسادهم طوال الليل إلى موائد عامرة بدماء الجروح كأنها جزء من العذاب.

أحيانًا يسمح للمعتقلين بشراء الأغراض الضرورية كالدواء وبطاريات الكهرباء اليدوية المكان معتم نهارًا أما الليل فحالك الظلمة.

مسئول السجن هو من يكتب قائمة الطلبات ويشتريها بنفسه من أجل المبلغ الكبير الذي يقتطعه في النهاية من كل سجين يصل إلى أكثر من النصف. وكثير ما كانت نقود المعتقل تنتهي ولا يجد ما ينفق على نفسه لو احتاج شيئًا ضروريًّا فتظهر صور التراحم والتكاتف في هكذا مواقف فأي سجين جديد لديه مبلغ مالي ينفق على نفسه وغيره من المعتقلين؛ هذا إن نجا أي مبلغ من أيديهم ولم يستولِ عليه السجانون.

قبيل الإفراج عن محمد بفترة وجيزة وصل إلى المعتقل ضيف جديد يبدو من الاهتمام المهلك الذي لاقاه أنه صيد ثمين في عيون مليشيا الحوثي فقد استقبل بكل أنواع السباب المقذع واحتفلوا به في حجرة التعذيب فور وصوله لساعات أطول؛ في البداية لم يكن هناك سوى تأوهاته الخافتة ثم علا صوته بالصراخ حتى انسكبت الدموع من بعض المعتقلين.

وبعد ساعات تعذب فيها من هم خارج حجرة التعذيب كما لو أنهم داخلها وعلى ظهورهم وقع السياط؛ سحل جسد الرجل إلى أضيق الزنزانات وأوصد عليه الباب مع التهديد للجميع بعدم التعاطي معه بحديث وإلا فالعقاب سيكون نثرًا للكروش كالعادة.

سبق أن جاء ذلك الشاب الريفي وكانت ذات التعليمات مع ذلك تدبروا حديثًا معه.

لكن التعذيب المتواصل والوحشي ضد هذا النزيل الجديد كان مروعًا بحق؛ لذا ما إن سنحت فرصة للحديث معه من خلف باب الزنزانة الحديدي حتى قفز الشيخ قاسم يسأله بعطف شديد:

_ أنت يا ولدي ما قصتك ولماذا يصبون حمم حقدهم عليك بهذه الصورة ومن أنت؟

فرد صوته الخفيض من التعب:

_ اسمي «أحمد النويرة». وتنهد بحرقة حتى ارتجت صدور من كان ملتصقًا بالباب الحديدي يلتقطون كلماته الواهنة.

ـ جرمي أني أحمل كل الصفات التي يكرهونها؛ فأنا من حزب الإصلاح وأنا من تعز وأنا جمهوري ضد الإمامة؛ اتهموني بمساعدة عدد من الصحفيين على الفرار من مدينة صنعاء التي حولوها إلى مستنقع آسن لطغيانهم.

كان يلفظ كلماته بمشقة فحاول الشيخ قاسم أن يوقفه رفقًا بما تبقى من قوته؛ لكنه أصر أن يسرد مشاهد من حياته وكأنه يسترجعها رغمًا عنه:

ـ لدي زوجة وطفلان صغيران أعدتهما إلى ريف تعز؛ رهف ورعد؛ لا أدري هل هم في أمان كافٍ هناك؛ وهل سيكتب لي أن أراهم في يوم ما؛ لدي أصدقاء رائعون لكنهم تقريبًا تشتتوا في أرض الله والبعض جمعتهم مأرب الخير. لست نادمًا أو آسفًا على كل ما فعلت من أجل أصدقائي ووطني وإذا كان هناك من ندم هو أنني لم أحمل السلاح في وجوه هؤلاء المسوخ؛ فكل فكر لا تحميه قوة باطشة ستقضي عليه أقدام الجهل.

****

في جوف الليل سمع الجميع الباب الحديدي لزنزانة «أحمد النويرة» يفتح ويضرب إلى الحائط بقوة أشد؛ ليس مستغربًا إفزاع النائمين بالأصوات العالية أو ضرب بوابات الزنازين؛ وليس بمستغرب في جحيم الأرض أن ينتزع المعتقل إلى حجرة التعذيب في أي ساعة من الليل؛ لكن قلوب جميع المعتقلين اشرأبت في قلق ونفضت النعاس فلا مجال للنوم مع أصوات الألم القادم.

صوت سحل أحمد النويرة بات مميزًا للجميع فقلوبهم جميعًا تنسحب خلف جسده الدامي في كل مرة. ما هي إلا لحظات حتى بدأ حفل الكلاب المسعورة حول جسده المنتهي. قبل الفجر بقليل أعيد مشوار السحل لكنه توقف في الباحة التي تفتح إليها جميع الزنزانات؛ وهناك ترك جسد أحمد النويرة يلفظ آخر أنفاسه غارقًا في دمائه وكسوره دون أن يحاول السجانون إسعافه أو إنقاذه؛ على الأقل كي يستمروا في تعذيبه بدعوى استجوابه.

رموه كخرقة مبتلة بالدماء حاولوا كثيرًا قراءة طلاسم الصبر فيها لكنهم جاهلون.

اندفع عدد من المعتقلين نحو الجسد الذي يرتعش في انتفاضاته الأخيرة وألسنتهم تدعو وتئن من وجعه؛ احتضن الشيخ قاسم رأسه النازف وهو يهمس:

_ أنت بخير يا ولدي؛ تماسك أعانك الله.

فيما اندفع آخرون يدقون البوابة الكبيرة مطالبين بإسعاف الرجل الذي يحتضر دون أن يلاقوا استجابة أو مساعدة. عاد الشيخ قاسم يهتف في أذن أحمد:

_ أحمد.. تمالك نفسك من أجل من ينتظرك في تعز؛ رهف ورعد.

فتح أحمد النويرة عينيه بصعوبة وقد لوثتهما الدماء وكأن ذكر الاسمين الصغيرين انتزع ما تبقى فيه من شعور بالحياة وهو يحشرج:

_ «وحيد الأمير «.. وحيد صديقي الصحفي من مدينة إب؛ نزح إلى مأرب؛ أخبروه أن يعتني بأبنائي وألا يتركهم؛ أوصيكم أن تخبروا «وحيد» هو صديقي الأقرب.

وشملت جسده رعدة جعلته ينتفض انتفاضات متلاحقة فينقطع صوته ويصدر عنه أنين متحشرج. حاول محمد معوضة ومن بجانبه أن يضموا جسده المنتفض بالبطانيات أو يضمدوا جراحاته بمزق الأقمشة؛ لكن كسور العظم وتشوهات التواء ساقيه وذراعيه أعجزتهم عن أي تصرف.

مع أول خيوط الفجر كان جسد أحمد النويرة قد انطفأ تمامًا بعد أن فاضت روحه المشتعلة بالحرية.

****

في الصباح دخل السجانون وحملوا جثمان «أحمد النويرة» ملفوفًا بذات البطانية التي حاول رفاق المعتقل أن تدفئ جسده المرتعش من شدة الألم فكانت قبرًا له في النهاية..

علا الوجوم والحزن كل المعتقلين؛ لقد حفر موت هذا الشاب ألمًا في نفوسهم رغم كثرة الراحلين ورغم أن الموت يتهددهم كل لحظة تحت التعذيب أو تحت أنقاض المعتقل حين تضربه صواريخ التحالف. الشيخ قاسم أكثرهم حزنًا يشاطره بن معوضة ذات الحزن والوصية. قطع الوجوم بينهما هامسًا:

_ كلانا يحمل في عنقه دينًا وصية هذا الرجل يا محمد فإن

خرجت أولًا عليك أن تحرص أن تصل إلى الصحفي «وحيد الأمير» في مأرب وتخبره بوصية صديقه والأمانة التي تركها على عاتقه؛ وإن خرجت أنا سيكون هذا أول ما أفعله لأني سأنقل رحالي إلى مأرب إن كتب الله لي عمرًا.

ـ بإذن الله يا شيخ قاسم يكون لك فرج الخروج من هنا أولًا وتخبرني بما يجد عليك إن كتب الله لي خروجًا وعمرًا جديدًا.

ولعلها خطوات القدر الرحيمة فعند المساء تم الإفراج المفاجئ عن الشيخ قاسم فلم يتمكن المعتقلون من كتابة قصاصات التواصي المعتادة أو حتى الاحتفال بخروج الشيخ المسن بما يليق بصبره وأبوته للجميع. اعتنقه بن معوضة بفرح شديد وهو يقول:

ـ من رقبتي إلى رقبتك يا شيخ قاسم وصية «أحمد النويرة» ولا تنسى أن تطمئن أهلنا وتدعو لنا بالسلامة والفرج.

****

حـزن البعـض كـأعمارهـم

يكبر كل يوم إنما لا يشيخ أبدًا

يموتـون.. فيوسـدهم القبـر.

(وحيــــــد)

أحمد.. أحمد.. أراك تقترب مني يا صديقي وأنا في هذه الحفرة المظلمة!!

ما زلت تقطر ياقوتًا أحمر؛ تجلس على حافة الحفرة مادًا كفًا مخضبًا بالحناء القاني وتتحسس نبض صدري؛ وتهمس في أذني:

_ قم يا وحيد أنا أحتاج إلى معونتك هذه المرة؛ أحتاج أن تخرجني من هذا الجحيم.

إنهم يزرعون في كل خلية من جسدي ألما مميتًا ولا أموت؛ ليست سياطهم تلك التي تنهش لحمي إنه حقد عجيب؛ اللحم يتناثر مع الصديد مع كل جولة تعذيب وكل تلك الحمىّ التي تعقبه تسقط عني الشعور بالمزيد من التفتت؛ أنا ألتحم بتراب الزنزانة قبل الموت. انظر يا وحيد ماذا تبقى من أطرافي؛ لقد انتزعوا أظافري واحدًا تلو الآخر تلك الأظافر التي نصر على أن قصها من الفطرة السليمة لقد نزعوها بفطرة حيوانية وحشية. لم أعد قادرًا على الوقوف يا صديقي فقد حطموا ساقي بهراواتهم فأين كتفك تسندني حتى ينتهوا مني؟ حتى

إنهم لا يرغبون أن ينتهوا مني!! يريدون أسماء كثيرة لم تعد هنا؛ الكثير منها قتل صاحبه أو هرب قبل أن تصل كلابهم إليه. لكنهم سيلتقون بهم حيث لا صوت يعلو فوق صوت الرصاص والانتقام. سألوا عنك يا وحيد وقالوا لي أين تخفي صاحبك اللعين؟ أين أنت أيها الوغد العزيز؟ لماذا لا تعود كعادتك؟ لقد سبق وأن واجهت الموت مرتين وعدت إلينا. هيا عد يا وحيد.

_ أحمد.. أحمد يا صديقي لم يعد لدي حتى صوت كي أجيبك؛ هل تسمعني آه يا عجزي الذي يبدو كجبال بلادي ثابتة لا تنتهي سلاسله إلا إلى صحراء عجزي الكبير؛ أنت يا منقذي الدائم كيف تستجير بي؟ كيف تطلب مني عونًا وأنا الذي كنت سببًا في أسرك لطول ما ساعدتني. هذا الجسد صار قيدًا يضاف إلى قيودي يا أحمد أنا هو الأسير في وطن أسير. لطالما كان هذا الجسد عائقًا للروح.

يخيّب أمل روحك الجميلة تشوهًا ما في هذا الجسد فتتعثر به حزنًا كل العمر. تظل روحك شابة طيلة عمرك لكن جسدك يخذلك فيتقدم في العمر سريعًا. تتمنى روحك ما يفوق قدرات جسدك وما يؤهله أضعافًا فتلاحقك الحسرة كظلك..

تتوق روحك لدفء الشمس لكن هذا الجسد يخذلك بلسع حروقها حين تتوهج كأجمل ما يكون. تعبر روحك كل حدود ويظل جسدك بين جدران أربعة ومع ذلك يردها إلى الحفرة مرغمة. تخاطبك روحي وجسدي مسجون في العجز.. أنا عاجز بي يا أحمد. هل ترى كم أن هذا الجسد عائق يا صديقي!!

****

(عفـــــراء)

حبيبي وحيد. حين أرسلت لك رسالتي الأخيرة: أنا في عدن فهل أراك؟

لم تجب؛ خمنت أن الأمر كعادتك حين لا تعرف الإجابة؛ لكنك كنت تعرف هذه المرة وتنوي فعلًا ألا تأتي ولو بالقول كذبًا.

عدت إلى عدن من أجل أبي الذي تمنى أن تكون أيامه الأخيرة في وطنه ومدينته التي يعشق؛ لم يرغب أن يموت في الشتات كما عاش فيه. مات أبي؛ مات الرجل الذي كنت أثق أن لا شيء سيحرمني حنانه ووجوده قربي سوى الموت؛ مات الرجل الذي أحبني حقيقة منذ ولدت وحتى غاب.

تمنيت أن آتي إليك حيث أنت وأكون قربك في محنتك؛ لكنني بقيت في عدن كي أهتم بأبي في مرضه؛ أنا عكاز والديّ الذي لا يفارقهما. أبي الذي عشق وطنه حتى توسل للموت أن يمهله كي يعود إليه ويحيا فيه يومًا واحدًا ليتنفس هواءه ويراقب أمواج بحره؛ الموت لا يتأخر عن موعده؛ وها أنا أترك أبي جثة تلتحم بأرض الوطن الذي أحب. عدن التي عادت تحت الوصاية مجددًا لم تكبر كفاية كي تتحمل قرارها فتناقلتها الأيدي كي تدير شئونها كما تشتهي تلك الأيدي لا كما تشتهي عدن.

احتلال مبطن بالإنقاذ وعمليات قتل لا يذهب ضحيتها إلا من أنقذ عدن في حربها.

الجو فيها خانق يتربص الخوف والقلق في أزقة المدينة التي هتكت حوادث الاغتيال غلالة الجمال والأمان فيها. كل شيء يوحي بالضيق في نفسي حتى تلك النافذة الواسعة التي تبتلع نصف المدينة وجزءًا هائلًا من السماء لا تكفي لالتقاط نفس واحد نقي يملأ صدري.. الهواء الذي يصلني عبرها يكون مزدحمًا بالتأوهات واللعنات وكثير من الدموع التي أخفاها أصحابها فنشرتها الريح كاشفة الأسرار..

مثلك أحب النوافذ الواسعة وأتمناها عوضًا عن الجدران الأربعة؛ حتى إني أريدها سقفًا أيضًا لكن النوافذ لا تصبح سقوفًا أبدًا؛ ولم تعد تطل إلا على الحزن.

يمكننا أن نخرج رؤوسنا من نافذة محطمة؛ لكن السقف سيهشم هذه الرؤوس لو سقط محطمًا بقصف الأصدقاء. في هكذا حال يمرّ على الإنسان شعور بأنه وصل إلى عنق الزجاجة اختناقًا؛ فإما أن يخرج من هذا الاختناق وإما أن يهوى إلى نقطة البداية. المهم هل لديه النية في الصعود مجددًا للمحاولة كمرة أخيرة كما يقول لنفسه كل مرة؟ أم يصل إلى القاع ميتًا إحباطًا لا يتنفس. آه ما أكثر الخواطر التي تجيّش الحزن في القلب!! الأفكار التي تحزننا وتهرس قلوبنا المنهكة من ثقل الوجع؛ يجب أن نصرفها جانبًا؛ نضعها بعيدًا كالخرق القديمة مثل ثيابنا المهترئة التي لا تستر عورات أجسادنا.

هكذا الأفكار الحزينة تعري ضعف أرواحنا فنبكي في خوف وصمت.

كم حاولت أن آتي إليك لكن ألف سبب يحتجزني فأخاف من العواقب.

ما أكثر الأمور التي يقنعوننا منذ الصغر إنها لا تحق لك؛ ويمضي العمر ونحن وقوف على أبواب الأمنيات نخشى اقترافها.

****

(حاتـــم)

«لا شيء عادل البتة! حين تتحطم السفن يغرق الضعفاء والعاجزون عن التشبث في الحطام، وينجو الأقوياء والحقراء ليجدوا فرصة للبكاء على الضحايا بأنهم كانوا رائعين لولا حظهم العاثر في الحياة. الحياة التي تعتصر الجبل حتى تحيله إلى كومة تراب «يحدث «طالب» نفسه بصوت مسموع منذ ترك قاعات المحاضرات مع انقطاع أجور المعلمين ودكاترة الجامعات في موجة إضراب يرفضها ضميره إنما لا حل غيرها مع بداية عام دراسي بلا أجور.. متى سيؤدي الجائع ومسلوب الإرادة والحق عملًا متقنًا؟!!

ترك قاعات المحاضرات وصار يلقي على نفسه كل ما تعلمه طيلة حياته من معاني القيم ربما تساعده على الصمود في وجه الحياة الشرسة.

تنقل في مهن كثيرة مثيرة للشفقة حتى يعيل أسرته الكبيرة؛ وأخيرًا استقر على صندوق في أحد شوارع العاصمة صنعاء يصلح الساعات للمارة بأجر زهيد؛ وكلما أمسك ساعة بين أصابعه تمنى لو استطاع أن يدير عقاربها إلى الوراء قبل أن يجتاح مغول المليشيا البلاد وتنفجر فيها حرب لا تفرق بين الضحية والجلاد؛ يتمنى لو أدار عقاربها إلى الأمام كي يرى هل سيتغير هذا الحال المزري يومًا إلى الأفضل؟

هل ستفتح المدارس في هذا الوطن الذي يربض تحت أطنان الجهل؟ هل سيعود ابنه «حاتم» لإكمال دراسته الثانوية؟ يردد بحسرة:

«يا إلهي إنه وحيدي بين خمس بنات كل ما أتمناه أن يتعلم ويصبح رجلًا يمنحني السعادة بنجاحاته».

بدأ العام الدراسي في مناطق من اليمن وفتحت المدارس الخاصة أبوابها وأغلقت مدارس التعليم الحكومي في وجه الفقراء كي يتجهوا إلى جبهات القتال فلا وقت للتعليم أو الحياة. هذا ما تدعو إليه قيادات المليشيا بكل وضوح فليتوجه الطلاب مع معلميهم إلى ثكنات القتال وليس إلى المدارس والجامعات.

هذا الوضع الشاذ جعل «حاتم» يصر على مساندة أبيه في كسب الرزق الذي شحّ كثيرًا على الفقراء ومن كان ميسور الحال؛ واقتنع الأب أن يبقى قربه يبيع للمارة البيض المسلوق مع الفلفل المطحون كإحدى أكلات الشوارع في اليمن التي يترزق منها الكثيرون. يكفي «طالب» أن ولده تحت بصره طوال النهار وفي آخره يعودا معًا بما جاد به الحال. قانع قلب الأب رغم بؤس الحياة ولكن القدر يكون أحيانًا أكثر قسوة بتصريفه لشئوننا؛ فعلى الرصيف الذي يعد منطقة آمنة للسير تقع أقسى حوادث الصدام.

أحد «أطقم الميليشيا» المجنونة كالعادة يقفز على الرصيف ليهرس ساقي «طالب» ويحولهما إلى شيء واحد مع الصندوق المعدني الذي أمامه؛ وليبدأ فصلًا أشد معاناة ووجعًا مع الإعاقة والألم وعجز الفقر.

****

فتح «حاتم» ابن الخامسة عشرة عينيه على مسؤولية ينحني تحت ثقلها أعتى الرجال في وضع معيشي أقل ما يوصف بالمروع؛ فوالده الذي أصبح فجأة قعيدًا عاجزًا عن الحركة وطلب الرزق يحتاج إلى مقعد متحرك كأدنى ما يمكن لكي يخرج ويمارس إصلاح الساعات.

أثقلت معالجته كاهل الأسرة بالديون وبيع كل ما هو ثمين وعجزت في النهاية عن شراء مقعد متحرك فظل حبيس زاوية الحجرة يذوي حزنًا وحسرة وألمًا على طفله الذي تحمل مسؤولية إعالة الأسرة بدلًا من الالتحاق بالتعليم الثانوي.

جالسًا على الرصيف مطأطئ الرأس من ثقل الهموم يلمح عاقل حارتهم «قايد» يترجل من سيارته ويسير بخيلاء على الرصيف المقابل؛ «قايد» رجل وغد كما يقول أبوه؛ وغد فعلًا فقد منحه المشرف الحوثي سيارة بحالة جيدة لأنه يرفد جبهة القتال بالكثير من الشباب في المنطقة كلها؛ ووغد أكثر كون أبنائه يدرسون خارج البلاد فيما هو يسوق أبناء الفقراء إلى الموت. وكأن «قائد» استشعر نظرات «حاتم» فتوقف برهة يحدق فيه مليًا قبل أن يتوجه نحوه بخطوات ثابتة كمن يعرف هدفه:

_ كيف حالك يا حاتم يا بني؟ وكيف أبوك؟ انتصب «حاتم» واقفًا بتأدب وهو يقول:

_ بخير يا عم قايد.. وأبي كما هو في ركن الحجرة عاجز عن الحركة.

_ هل تحتاجون إلى أي شيء يا بني؟ قل لا تخجل أنا مثل أبيك تمامًا؟

فكر «حاتم» شتان أن تكون كأبي؛ فأبي أستاذ جامعي هده الفقر والحاجة وأنت الجاهل لديك كل شيء وسيارة فخمة.

_ حاتم هل تسمعني يا ولد؟ قلت لك هل تحتاج مالًا؟

_ لا يا عم قايد.. نحتاج مقعدًا متحركًا لأبي لو تعرف أحد المحسنين يعطيه لنا كي يساعدني أبي في العمل. ابتسم « قايد» بوداعة وهو يقول:

_ هذا واجب عليّ وأكثر يا حاتم؛ وزيادة عليه راتب أيضًا من «أنصار الله».

_ راتب؟!! كيف ومقابل ماذا؟ سأعمل أي عمل تطلبه مني.

_ لالا.. فقط نسجل اسمك كمجند وتتسلم راتبًا وأنت مرتاح في بيتك.

دق ناقوس الخطر في رأس «حاتم» وتذكر تحذيرات والده حول «قائد» عاقل الحارة الوغد. « كيف يا عم قايد أسجل مجندًا في البيت؟

أطلق قائد ضحكة ممجوجة وهو يقول بلطف زائد:

_ كثيرون يفعلون هكذا ببساطة.. نذهب أنا وأنت لنسجل اسمك لدى المشرف في المعسكر كأحد مجندي أنصار الله ثم تعود إلى بيتك؛ ولا داعي حتى لأخبار أبيك فعودتنا سريعة ونشتري له مقعدًا متحركًا في طريق عودتنا.

فكر «حاتم» الفكرة مغرية.. لن يرغمه أحد على الذهاب إلى أبعد

من صنعاء وسيعود محملاً بأمنية أبيه التي تعادل أمنيته بأن يكمل حاتم تعليمه.

_ حسنًا يا عم «قائد» على أن نعود ظهرًا حتى لا يقلقوا في البيت.

أحتار في طبق البيض الذي ما زال مليئًا بين يديه فطلب من عاقل الحارة أن ينتظره حتى يضعه عند صاحب البقالة القريب من الرصيف الذي يجلس عليه عادة.

وحين عاد وجد عاقل الحارة ينتظره داخل السيارة؛ أشار إليه أن يصعد وانطلق على الفور.

****

في معسكر داخل صنعاء لا يعرف «حاتم» حتى اسمه أو موقعه وجد الكثير مثله وفي سنه هناك يقفون تحت أشعة الشمس في الحوش الواسع بانتظار تسجيل أسمائهم في كشوفات يكتبها شخصان كل منهما على طاولة في ركن في الحوش.

كانت الزوامل الحماسية تصدح في أرجاء المعسكر بصوت عالٍ يجعل الدماء تغلي في العروق لا يدري هل هذا بفعل حرارة الشمس أم الحماسة التي تبثها فيهم تلك الزوامل.

بعد نحو ساعة وقف فيهم شخص بدين تدلى كرشه أمامه وأخذ يخطب في الجمع عن الجهاد في سبيل الله ويدعو للسيد ابن رسول الله الذي سيطهر اليمن من اليهود والأمريكان. وجلجلت الساحة بالصرخة المقدسة.

وقف «حاتم» مبهور الأنفاس من صدى حماسة المحيطين به وهم يرددون صرخة الشعار؛ كان الجو مشحونًا بالصراخ والزوامل. لم يعد يرى قايد بين الجموع حوله! أين اختفى ومتى؟! لكزه أحدهم بقسوة حين لاحظ أنه لا يردد شعار الصرخة وحدجه بنظرة غاضبة في استنكار؛ فما كان عليه إلا أن رفع صوته مرددًا لها بخوف.

لم يعد يسمع ما يقال حوله أو يعرف كيف يتصرف؛ هل يخبرهم أنه يريد العودة إلى البيت حيث أمه تنتظره على الغداء؟ سيسخر منه كل هؤلاء الصغار الذين يتصرفون كالرجال..

وصلت صناديق يحملها بعض الرجال وخلال دقائق وجد نفسه يحمل سلاحًا بين يديه بل عتادًا لا يعرفه أو سبق أن أمسك مثله قبلًا.. هل يرفضه ويطلب منهم أن يتركوه كي يعود إلى بيته حيث تنتظره أمه؟! سيسخرون منه..

لن يبدو رجلًا مثلهم أبدًا؛ سيرونه كالنساء يخاف السلاح؛ تم توزيعهم إلى مجموعات كل مجموعة تتكون من سبعة إلى تسعة أشخاص؛ اختلط فيها صغار السن بالكبار؛ كل مجموعة استقلت إحدى السيارات المكشوفة والمرصوصة في الحوش؛ وجد نفسه مدفوعًا بأيديهم يعتلي السيارة محملًا سلاحه الثقيل؛ زائغ النظرات يدرك أنه وقع في فخ «قايد» فهل يبكي كالأطفال رافضًا هذا المصير؟!!

لا لن يبكي.. همس لنفسه مخنوق العبرة.. أنا رجل. وسأعود إلى أبي بمقعد متحرك.. ولن أقاتل.. ولن أموت. سقطت دموعه رغمًا عنه فمسحها بكم قميصه المهترئ قبل أن يلمحها أحد؛ فيما انطلقت السيارة مسرعة على وقع هتافات الشعار ونواح الزوامل.

****

في أول استراحة لقافلة السيارات لم يسمح لأحد بالنزول منها؛ أحضر المشرفون أكياسًا بلاستكية فيها الرز والإدام والخبز وتحلقت كل مجموعة في صندوق السيارة بمشقة وحين سأل أحد المجندين: لماذا لا ننزل لنأكل على الأرض.

أجابه المشرف: لا وقت لدينا للراحة. بعد ساعات منهكة غافل النعاس فيها «حاتم» مرات وصل الموكب إلى معسكر آخر تناثر على ساحته كثير من الشباب اليافع الذي يبدو من حركاتهم أنهم يتعلمون استخدام السلاح كما يتلقون تدريبات عسكرية.

أدخلوهم إلى قاعة واسعة؛ كالعادة أصوات الزوامل تصدح بقوة وأشخاص يقفون في صف طويل للترحيب بالمجاهدين الجدد وجد نفسه يصافح أشخاصًا كثيرين لكنه تماسك كي يبدو رجلًا ولا يخذل نفسه بمخاوفه.

وقعت نظراته المتجولة في المكان على ولد في مثل عمره؛ نظراته تحمل ذات القلق والخوف وإن حاول أن يتجلد ويضحك لنكات يطلقها الكبار قد لا يفهمها..

حتى إنه وضع في فمه كتلة من البردقان الأبيض مقلدًا لهم في حماسة واضحة التصنع.

اقترب «حاتم» منه وقد شعر أن بينهما رباط الخوف الذي يجمع القلوب حين الخطر.

سأله بعد برهة صمت نكس كلاهما رأسه خوفًا من مجابهة الاعتراف بهذا الخوف:

_ ما اسمك؟

_ أنور.

_ أنا «حاتم» من أين أنت؟

_ من الحدأ من ذمار وأنت؟

_ من صنعاء لماذا أتيت إلى هنا؟

أطلق «أنور» ضحكة حاول جاهدًا أن تبدو أكبر من ضحكة طفل:

_ كي نقاتل الدواعش وإسرائيل وأمريكا.. والسعودية.

_ كل هؤلاء سنقاتلهم نحن؟

_ نعم السيد قال (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة).

_ أنا لم آتِ إلى هنا بإرادتي؛ لقد أخذني عاقل الحارة بخدعة حقيرة؛ أبي كان يقول إنه وغد وهو وغد فعلًا. تنهد «أنور» بضيق وهو يقول:

_ أنا أيضًا أتيت لأن كل الشباب في منطقتي ذهبوا للقتال؛ الكثير من أسرتي ذهبوا وعادوا وأحيانًا لا يعودون؛ كان يجب أن أذهب ولو لمرة واحدة؛ إنهم يسخرون مني؛ يقولون إنني ابن امرأة.. أبي توفي وعمي جعل أولاده كلهم جنودًا في أنصار الله.

_ هؤلاء أنصار الموت والسرقة..

_ اسكت يا غبي سيقتلونك لو سمعوا وصفك هذا؛ أنت لم تتلقِ دروسًا بعد من ملازم السيد كنت ستفهم أننا نجاهد مع ربي؛ وكل ما

نستولي عليه من بيوت المنافقين وجيوبهم هو لنا غنيمة وليست سرقة؛ كل شيء ملك للسيد وأتباعه علينا نحن أن نسترده فقط؛ ومع هذا أنا أيضًا لا أريد أن أقاتل ولا أريد أن أموت؛ لندعو الله أن لا يدفعوا بنا للمواجهة في مقدمة الصفوف كما يفعلون دائمًا بصغار الحطب.

ـ إنهم لصوص.. يسرقون كل شيء في طريقهم ويتاجرون بكل شيء حتى أرواحنا؛ لقد سرقوني من أهلي.. أليس خطفي بهذه الطريقة سرقة؟

ـ كل شيء فداء للسيد؛ أنا وأنت وما نملك؛ هذه حقيقة يجب أن تفهمها؛ ولن تنال خيرًا إن لم تؤمن بها.

لفهما الصمت والوجوم برهة.. عاد «أنور» يهمس في أذن حاتم بصوت خفيض:

ـ يجب ألا تبدو خائفًا هكذا!! أنت رجل وأنا أيضًا على صغر سننا؛ أبقى معي وسأعلمك كيف تتصرف حتى تكتب لنا النجاة؛ سنكون حماية لبعضنا من وحوش هذا العالم والعالم الذي سنذهب لقتاله.

ـ أريد أن أطمئن أهلي وأخبرهم أين أنا؛ كيف أتصل بهم؟ أين يمكن أن نجد هاتفًا في هذا المكان؟ إنه يبدو كصحراء..

ـ هذا مخيم تدريب خارج مدينة «عمران «الكثير حدثني عنه قد لا نبقى فيه كثيرًا قبل أن يذهبوا بنا إلى مأرب أو تعز حيث جبهات القتال؛ لن نجد هاتفًا عموميًّا أبدًا؛ ولن يسمحوا لك بأي تواصل خارج

هذا المكان؛ أرى أن تنام كي ترتاح فغدًا يوم شاق وطويل ستنسى فيه أين ولدت.

في الصباح الباكر تم إيقاظهم من مهاجعهم المزدحمة ليبدأ يوم مخيف واجه حاتم السلاح لأول مرة في حياته وجه لوجه..

****

لثلاثة أيام و»حاتم» ذاهل تمامًا ينهشه القلق والحزن على والديه وأخواته الخمس؛ يتخيل مشهد أبيه العاجز وهو عاجز فعلًا عن البحث عنه؛ يتخيل والدته التي لا تخرج من المنزل إلا لمامًا وهي تجري في أزقة الحي تسأل عنه أبناء حيهم؛ سيخبرها صاحب البقالة وهو يناولها طبق البيض: أن «قايد» عاقل الحارة أخذه في سيارته في الصباح الباكر وستذهب هي إليه وتسأله عن حاتم وأين ذهب به؛ وسينكر معرفته وقد يتهم والدته بقلة الحياء لمقدمها إليه..

حين يصل إلى هنا في خيالاته تحرق الدموع عينيه فيطأطئ رأسه بين ركبتيه محاولًا إخفاء نشيجه الصامت فيلكزه «أنور» قائلًا:

_ كفّ عن التفكير بأهلك فهم بخير؛ وأنت ستكون بخير ما دمت معي ثق بي يا صديقي.

يهز «حاتم» رأسه في دهشة لصلابة «أنور» لقد عاش في أسرة كلها تقاتل في صف جماعة الحوثي؛ شاهد الكثير ممن عرفهم يعود قتيلًا وشارك في دفن الكثير؛ لم يعد طفلًا يبكي لحضن أمه فقد رأى أحضان الموت أكثر.

في اليوم الثالث تمت مراسم مهيبة لتوزيع مفاتيح صغيرة على المجندين مع بعض الأوراق المغلفة بعناية على وقع خطبة مجلجلة عن قداسة هذه المرفقات لكل مجاهد؛ البعض ربطها حول عنقه والآخر حول معصمه؛ التعامل بقداسة مع تلك المفاتيح وبعض الأوراق المغلفة أثار استغراب حاتم فسأل أنور بعجب:

_ هل حقًا تصدق أن هذه المفاتيح لدخول الجنة؟ أو أن هذه الأوراق ستفعل لك شيئًا. رد أنور بثقة: «هذه الأوراق هي «حروز» الحفظ من السيد مشمولة ببركته ورعايته ويجب أن تعامل بقداسة وأن نثق في قدرتها الخاصة على حفظنا. فرد حاتم مندهشًا:

_ لكن الذين حملوها قبلنا قتلوا ولم تتكفل بحفظهم من الرصاص كما يقولون؟ ضحك أنور وهو يهز رأسه بلا اهتمام:

_ نعم قتلوا.. ودخلوا الجنة بهذه المفاتيح؛ أظن الجنة أفضل من الدنيا على كل حال.

قُسم المجندون إلى مجموعات كل مجموعة استقلت سيارة عسكرية مكشوفة وتحرك الموكب باتجاه جبهات القتال.

حرص «أنور» أن يكون برفقة «حاتم» جنبًا إلى جنب كل منهما يعتنق سلاحه الثقيل وقلبه يحمل خوفًا أشد ثقلًا؛ لم يعلق في ذهن «حاتم شيء مما تدرب عليه خلال ثلاثة أيام. بالكاد أروهم كيف يقومون بحشو الرصاص وإطلاقه..

قال «أنور» وهو يحاول أن يبدو صوته ثابتًا:

ـ لم نتلق تدريبًا كافيًّا؛ ولا يهم في نظرهم إن تدربنا؛ يبدو أنهم يعانون نقصًا كبيرًا في الأفراد لهذا يذهبون بنا دون تدريب؛ أبناء عمومتي ظلوا في هذا المعسكر لثلاثة أشهر تدربوا كثيرًا حتى أجادوا القتال.. لكنهم قتلوا في كل حال.. لذا لا فائدة. وأطلق ضحكة مفتعلة وهو يلكز «حاتم» بكتفه:

ـ هل ما زلت تذكر كيف يطلقون الرصاص يا بائع البيض الساخن والبسباس؟

ضحك «حاتم» بشرود ففي ليالي المعسكر المظلمة لم يكفان هو وأنور عن الحديث حول حياتيهما.. كأنما يشعران أنها حياة بعيدة.. بعيدة وقد لا تعود أبدًا.

الموكب يلتهم الطريق والقلق يلتهم أفئدة الجميع.. إنه السفر إلى الموت والقتل.

كل من في هذه الموكب حملته الحماسة لشيء مبهم يخفيه عمن حوله؛ البعض ذاهب ليقاتل بكل إخلاص من أجل الدفاع عن الوطن ضد عدو خارجي وقد تناسى عدو الداخل؛ البعض يرى السيد هو الوطن؛ والبعض يرى الزعيم صالح هو الوطن..

والبعض يرى كسرة الخبز هي أجمل الأوطان.

****

دفع المشرف على المجموعة «حازم» أمامه في الطريق وهو يقول مشجعًا بضحكة هازئة:

_ تقدم يا بطل؛ لا تخف نحن لا نزرع الألغام هنا بين الصخور كما أن مرتزقة العدوان لا يزرعون ألغامًا في أي مكان.

الطريق شديد الوعورة على طفل نما في أزقة صنعاء المرصوفة؛ إنما لم تكن وعورة الطريق ما يقلق حاتم ويجعله يتلفت خلفه مع كل خطوة ولا هي كلمة الألغام المرعبة؛ أقلقه أن أنور يبدو بعيدًا في نهاية سرب المقاتلين الذين يصعدون أعلى الربوة إلى حيث المتارس لاستبدال مقاتلين آخرين؛ بقاؤه مع أنور الذي يشبهه تمامًا يشعره بالقليل من الأمان والراحة؛ إنه تقريبًا لا يتحدث مع أحد سواه. لا يحتمل أن يكتشف الآخرون مدى خوفه وحزنه. إذا كان ينبغي أن يموت فليمت كرجل..

وصلت المجموعة إلى الثكنة وتم تبادل الأماكن مع من هناك؛ بحث حاتم بعينيه عن أنور؛ كان الظلام شبه حالك إلا من مصابيح يدوية ضئيلة الإنارة في أيدي المشرفين.

شعر بقبضة أنور على كتفه؛ رآه واقفًا خلفه وقد تدلى سلاحه وتدلت معه كتفاه بإنهاك شديد؛ أنور يرتدي الثوب اليمني المعروف مع حزام على خصره يبدو كرجل صغير في تصرفاته وفهمه للأمور حوله؛ بخلاف حاتم الذي صادف أنه يرتدي بنطلونًا من القماش قد تغير لونه بفعل القدم؛ يرتجف كفتى مدينة لم يغادر أحضان والدته.

جلسا على الأرض بصمت؛ كلاهما يعلم الآن أن الرصاص يمكن أن ينهمر من التلة المقابلة وتبدأ معركة شرسة تنتهي بموت الكثير من الطرفين؛ همس حاتم برهبة:

_ أنور.. إذا قتلت هل تعدني أن تذهب إلى أبي وأمي وتطلب منهما أن يسامحاني. ضحك أنور بسخرية مخنوقة:

_ لن تصاب بسوء ولا أريد منك أن تذهب إلى أحد لتطلب منه السماح لي لأني لن أموت؛ ما زلت أريد أن أحيا وأسافر أماكن غير ذمار المليئة بالقبور؛ دعنا ننام قليلًا قبل أن يبدأ الحصاد؛ وابق قربي فمن هنا ليسوا ملائكة؛ إنهم شياطين بشرية؛ ويرون صغار السن منا لقمة سائغة لعبثهم الماجن بعد أن تتغلب عليهم الحشيشة.

همس حاتم بصوت مرتعش: ماذا تعني؟ لست أفهم. انحنى أنور مقربًا رأسه من رأس حاتم وهو يهمس:

_ هناك من قص لنا حكايات عن اغتصاب للمجاهدين صغار السن في ثكنات الجهاد من قبل المجندين فيما بينهم؛ إنهم يستفيدون من أجسادنا لمتعتهم ودروع لمتاريسهم وأخيرًا أرقامًا لضحاياهم؛ ما زلت أذكر ذلك الولد من قرية قريبة منا حين فضل أن يموت في المعركة مختارًا على أن يعود بعار اغتصابه من قبل وحش بشري يدعي الجهاد في سبيل الوطن.. يتعاطون المخدر والسحر ليتحولوا إلى وحوش تقتل وتنتهك الأضعف. وأطلق ضحكة اشمئزاز خافتة وهو يستطرد:

_ اغتصاب قبل الاستشهاد. احم نفسك يا صديقي فالقتل الذي يوجع هو أن تقتل رجولتك وينتهك شرفك.

احتضن أنور سلاحه واتكأ إلى حجارة المتراس وأغمض عينيه منهيًا حديثًا يجمع المخاوف كلها ولا يبددها؛ لحظات وقد غرق في

النوم كطفل أرهقه أن يكون رجلًا طوال اليوم. لم يستطع حاتم أن يغمض عينيه من شدة قلقه وخوفه؛ خيالات والديه تطيّر النوم والراحة من عينيه؛ قطع عليه حبل خياله الذي يوثق عنقه بقسوة الفقد مجيء مقاتلين اثنين جلسا جوارهما خلف المتراس؛ كان أحدهما يملأ فمه بأوراق القات وعيناه متسعة حتى آخرها إنها تلك النظرة المصاحبة للمخزن حين يصل إلى ذروة الكَيف؛ الآخر يحشو شفته السفلى بالبردقان نوع آخر من الكَيف أشد قرفًا.

كلمات أنور تطن في رأسه كرجع الصدى.. كم تبدو أشكال هؤلاء الرجال مخيفة بالقياس لتسميتهم برجال الله أو المجاهدين!!

ضمّ ركبتيه إلى صدره أكثر فيما ترك السلاح يترنح واقفًا قربه وقد نسي وجوده؛ سقط الكلاشنكوف على جانب رأسه فنبهه لوجوده فضمه بجوار ركبتيه النحيلة.

ضحك الرجل الذي يحشو فمه بالبردقان فبدا فمه الملطخ بالسواد من خلال ضوء البطارية اليدوية أشد رعبًا.

تسمرت عينا حاتم من الخوف؛ يحاول جاهدًا ألا يغمضهما؛ أحيانًا لا يصدق أنه هنا مع هؤلاء الذين لا يربطهم به شيء؛ لا قرابة ولا هدف.

يا لها من ليلة تختلف عن ليالي منزله وهو محاط بحنان البيت كله.

بدأ الترقب.. يصاحبه خدر يزحف ببطء في جسد «حاتم» وسقط في النوم أخيرًا.

****

أصوات الرصاص تأتي من بعيد مصحوبة ببكاء والدته وهي تسأل أولاد الحي:

ـ هل رأيتم حاتم.. ابني حاتم.. حاتم.. حاتم..

ـ استيقظ يا حاتم وخذ سلاحك كي تدافع عن حياتك.

ضوء الفجر رافق الرصاص الذي ينهمر كالمطر؛ يسمع أزيزه واصطدامه بحجارة المترس خلف رأسه؛ أصوات الرصاص الذي يطلقه الرجال حوله مهولًا طار له لب حاتم فالتصق بالحجارة خلفه وهو يضم سلاحه إلى صدره. صرخ فيه أنور بصوت غطاه صوت الانفجارات البعيدة:

ـ إنهم قريبون؛ لقد تسللوا بغتة منا؛ أعد سلاحك للإطلاق؛ إذا وقعنا في الأسر فنحن محظوظان. ظل «حاتم» مسمرًا بلا حركة أو كلمة يخشى أن يرفع رأسه فتصيبه رصاصة؛ يخشى أن يختلسه الموت ولا يعرف كيف؟

أنور لا يتوقف عن الحركة محاولًا أن يطلق الرصاص من فتحات وشقوق المتراس؛ كأنما غادره خوفه كله دفعة واحد وأخذته الحماسة للمشاركة في تبادل إطلاق الرصاص بلا توقف.

شعر حاتم بمدى جبنه وخوفه؛ لو رأه والده هكذا هل سيرضى بحاله هذا؟!! تمالك نفسه رغم ازدياد حدة الضرب والتفت إلى أنور:

ـ أنور لا تطلق رصاصاتك في الاتجاه الخطأ؛ لن أقاتل في صف الحوثيين حتى لو قتلت على أيدي مقاتلي الشرعية. أطلق أنور ضحكة متشنجة وهو يقول:

_ سيقتلوننا إن لم نقاتل.. قم يا حا... وانقطع نداءه وهو يصرخ بأعلى صوته مرتميًا على ظهره.. لقد أصابته طلقة رصاص في صدره؛ كان جسده ينتفض بقوة وهو يصيح:

_ أصابوني يا حاتم.. لقد قتلوني.. أسعفني يا حاتم لا أريد أن أموت.. لن أموت.

جن جنون حاتم وهو يرى صديقه مصابًا والدماء تنبثق من صدره بقوة؛ اندفع منحني الظهر باتجاه المترس القريب وهو يصيح:

_ ساعدوني أنور أصيب في صدره؛ ساعدوني..

صوت الرصاص يطغي على كل صوت؛ البعض ينسحب هاربًا من الثكنة والكثير سقط بين قتيل وجريح. لم يعد يشعر بالخوف من أزيز الرصاص الذي يمر من جواره؛ أصبح كل خوفه أن يموت صديقه أنور.

عاد إليه زحفًا على ركبتيه وهو يطلق لدموعه العنان بلا خجل؛ كانت الدماء تنبعث من صدره كنافورة صغيرة؛ قد شخص بصره وفمه يرتجف فيما استحال لونه إلى بياض بارد. همس بصوت لا تكاد تلتقطه مسامع حاتم:

_ لا أريد أن أموت يا حاتم..

لم يتمالك حاتم نفسه فانفجر بالبكاء مطلقًا صرخات هستيرية وقد فقد زمام نفسه؛ احتضن رأس صديقه الذي شهق بقوة قبل أن تهمد حركة جسده المرتعشة.

****

وجوه كثيرة تحدق به..

بعضها يبتسم مطمئنًا والآخر يتنهد مشفقًا؛ كان يرقد في سرير معدني؛ ذراعه النحيلة يعتقلها أنبوب رفيع يمده بالدواء عبر قربة معلقة على حامل يقف عند رأسه.

تختفي كل الوجوه؛ ليطل وجه امرأة تشبه أمه.. لا.. لا تشبهها.. لكنها امرأة تبتسم بحنان وتمسح على جبينه المتسخ بتراب المعركة.. المعركة؟!! هل انتهت المعركة؟ أنور.. يا الله أنور.. لقد قتل أنور..

رائحة ثيابه المتيبسة من أثر الدم الذي نزفه أنور وهو يحتضنه تزكم أنفه وتيقظه من غيبوبة وعيه. انفجر حاتم بالبكاء حين وصل وعيه إلى مشهد صديقه أنور قتيلًا بين ذراعيه وهو يردد: لا أريد أن أموت. احتضنته المرأة بحنان وهي تهمس الكلمات المطمئنة في أذنه:

_ أنت بخير يا بني؛ أنت بين أهلك؛ سيكون كل شيء على ما يرام. هل تريد أن تطمئن عائلتك؟ هل تحفظ رقمًا لهم؟

عائلته؟!! أزاح مشهد والدته الباكية كل غبار الحرب والدماء والأشلاء المتناثرة في الجبل؛ همس بصوت مبحوح لا يعرفه:

_ هل تسمحون لي بذلك؟ هل يمكنني أن أحادث أبي وأمي؟

_ بالتأكيد يا بني أنت هنا في مأرب مع الجيش الوطني الذي يحميك كما يحمي الوطن؛ قلت الكثير في هذيانك؛ أعطني الرقم كي أبلغهم أولًا واسترح أنت حتى أعود. يمكنك أن تغير ثيابك بنفسك وتغتسل. ابتسمت بشفقة وهي تستطرد:

حاولت مساعدتك لكنك كنت خائفًا ولم تترك لي فرصة لنزع ثيابك المليئة بالدم والتراب.

لا يتذكر شيئًا.. خائفًا من كل شيء؛ الآن صوت المرأة وهي تحادث عائلته يأتي إليه كحلم مثل كل الأحلام التي رآها ولا يصدق أنها حدثت فعلًا.

هاتفت سماح العائلة وكما توقعت لم تكن تدري بمكان ولدها الذي اختطف على يد عاقل الحارة؛ انهارت الأم باكية وهي تتوسل إلى سماح أن يهتموا بابنها وألا يؤاخذوه فما هو إلا ضحية بريئة. شرحت لهم ما تعرض له من صدمة عصبية ونفسية حين قتل صديق له بين يديه؛ وأنه يخضع الآن للعلاج وستسافر به بنفسها إليهم حال تماثله للشفاء وسيحدثهم الآن بنفسه هاتفيًّا كي يطمئنوا.

تركت له الهاتف وخرجت من الحجرة تغالب الدموع ألمًا على طفولة أبناء هذا الوطن..

أخبرها الرجال الذين جلبوا حاتم إليها كي تقيد حالته ضمن المنظمة التي تهتم بشأن الطفولة؛ إنهم بصعوبة شديدة فكوا ذراعيه التي تتشبث بجثة صديقه؛ كان يصرخ في حالة انهيار عصبي ونفسي رافضًا ترك أنور وهو يردد:

_ لا تقتلوا أنور.. لا تقتلوا صديقي إنه لا يريد أن يموت.

****

الصمت احتجاج أقوى من الصراخ

فخلف الصمت تنمو الكراهية.

(سميــــرة)

دخل مراد على والدته الحجرة وهو محتقن الوجه بشكل أخافها، صلى العصر قربها بسرعة خاطفة والتفت نحوها قائلًا: قد أتأخر اليوم مساء يا أمي. قالت وهي تتفحص عيونه المحمرة بقلق:

_ لماذا؟ ما بك يا مراد؟ هل كنت تبكي؟ ارتجفت شفته السفلى وهو يغالب البكاء وهمس: صاحبي مات. شاهر قتل في الجبهة. وانصرف مسرعًا قبل أن تطلق والدته شهقة خرجت منها موجوعة من القلب.

«شاهر» الشاب الذي يسكن في حارتهم مع عائلته القادمة من «القفر» الشاب الضاحك الذي يعرفه زوجها وحيد منذ كان صغيرًا.

تتذكره حين ساعد أبناءها في نقل قطع الأثاث عندما نزحوا من صنعاء عائدين إلى إب، وكم أحبه أبناؤها الأربعة لشهامته وطباعه المحببة. لكن «مراد» رافقه كثيرًا، أكثر من «ماهر» الذي في مثل عمره؛ كم خشيت هذه الرفقة حين أصبح «شاهر» في اللجان الشعبية لمليشيا الحوثي. كلما عاد من جبهة «صرواح مأرب» ازداد قلقها من لقاءاته

بولدها الثاني، لم تخبر وحيد أنها رأت مراد يقلد شاهر في حمل السلاح لأكثر من مرة والتقط له صورًا عديدة بتلك الهيئة. ولم تخبره عن تلك الجلسات المطولة في بيت «شاهر» والتي يحضرها مراد خلسة منها وكانت تعلم بها في النهاية؛ لم تخبره عن ولع ولدها بالزوامل الحماسية لجماعة الحوثيين التي صارت موضة بين شباب هذا الجيل الذين وجدوا أنفسهم في وجه الحرب. أخفت قلقها كله من تصرفات ولدها وتأثره بكل ما يفعل صديقه.

لكنها لن تخفي حزنها على شاب ظن أنه يقاتل العدو الخارجي حتى آخر لحظة. حزينة على شبابه الغض وحزينة على حزن ولدها ودموعه الغزيرة..

حزينة لهذا الحال كثيرًا، كيف ذهب شابًا ممتلئًا حيوية وحياة وعاد مجرد صورة ستعلق في مدخل الحارة على عمود يقابل منزلهم ككل الصور.

هناك على امتداد أطول شوارع مدينة إب وعلى مسافة متقاربة كل بضعة أمتار شنقت على أعمدة الإنارة المظلمة لوحات لأربعة وجوه، تلك الوجوه مكللة بالورد الأحمر ومطوقة باللون الأخضر الرسمي لجنتهم.

لم يتبق من أولئك البشر سوى وجوهٍ لصورٍ مرسومة كانت أرواحًا تدب على الأرض تحمل شقاء العبيد حين يساقون للموت قربانًا.

كأن أعينهم المفتوحة تحدق في المدى الواسع لشارع لن يعود بهم إلى البيوت أبدًا.

نظراتهم تحمل ابتسامة ميتة تراقب الذاهبين في الطريق أحياء والعائدين جثثًا ليصبحوا صورًا جديدة تزين بها شوارع مرت عليها مسيرة الخراب.

لعلها الحرب المقدسة الوحيدة التي خلفت وراءها أكبر ألبوم صور لأطفال قُصر تحت مسمى شهداء مجاهدين تقام لصورهم معارض فخمة. إنها مسيرة حرب زرعت في أرض الوطن أقبح ما سيذكره التاريخ في حقبتها السوداء. زرعت بشرًا في عمر الزهور في مزارع القبور الهائلة لتنبت صورًا جامدة، زرعت ألغامًا بأعداد بذور القمح كي تحصد الحياة معاقة أو ذبيحة. زرعت أحقادًا لا تطفئها سنوات من التأهيل بين أبناء وطن واحد. زرعت طائفية وعنصرية ستمتد آثارها كالنار في هشيم هذا الوطن. زرعت فوضى عارمة في كيان وطن بلا دولة أو سلطة بل في قبضة عصابة وقطاع أرزاق. هذا زرعها الأسود مهما لطخته باللون الأخضر أو بكل ألوان قوس قزح.

يستدرج إعلامها الشباب المتحمس مثل شاهر من أجل صد العدوان الخارجي ويتناسون أن الموت لا يرى إلا مصوبًا من الداخل بشتى الطرق.

يغالطون بإطلاق كلمات رنانة عن الحرية والكرامة ويتجاهلون أنهم من أهدروا الحريات والكرامة والوطن؛ يبهرون الشباب ببث عمليات خارقة أسطورية تضاهي عمليات الرجل الوطواط والسوبر مان عبر قنوات كثيرة تحاصر العقول.

والشباب تواق إلى بطولات مخدرة على العدو كي تنسيهم

وضعهم المعيشي البائس يتناقلون عبر وسائل التواصل مقاطع بسالة اليمني المحفوظ بحرز السيد ومفتاح الجنة في مواجهة العدوان المدجج بأحدث الأسلحة الحديثة فتشتعل قلوبهم حماسة ليكونوا هم الأبطال في ميادين القتال.

مقاطع مفبركة تمثل بصورة أقرب لإتقان الحقيقة وإطلاق شائعات منظمة وتصريحات أقرب للسخرية عن غزو الفضاء بأسلحة غير مألوفة لصناعة لم توجد عند أهل الأرض بعد؛ وزوامل حماسية تخرج الشباب من جلودهم يتقافزون في حماسة. كلها هلوسات سحر عصري تستهدف عقول الشباب وحماسته؛ ولا تختلف عن ممارسات أجدادهم للسحر والشعوذة.

يؤلمها حزن ابنها كثيرًا، وتؤلمها نظراته المصدومة غير المصدقة. هي أيضًا لم يغادر خيالها وقفة ذلك الشاب أمام مدخل عمارتهم حين يتجمع شباب الحارة يتجاذبون أطراف الحديث، مازالت ابتسامته عالقة في خاطرها رغم همسة من بين دموعها:

«ماذا فعلت هذه الجماعة العنصرية بأبناء الحي الواحد يا إلهي؟!

رغمًا عنها تمنت أن يكون موت «شاهر « ذلك الدرس القاسي لولدها «مراد» فقد استهوته كثيرًا قصص البطولات الكاذبة:

«ما أشد قبح هذه الحرب التي يسمونها أهلية!! وما أبشع هذا التصنيف المهذب!! يسمونها أهلية لأنها تنشب في أهل وطن واحد.. بين أهالي حي واحد!! أتذكر في الطفولة حين كانت الحرب لعبة

للصغار يلعبونها في أزقة الأحياء؛ الآن حين شبوا صارت حرب حقيقة يلعبها الكبار ليموت فيها الصغار دائمًا. لماذا سيفنى شبابنا بين قاتل ومقتول ومن سيحكم وطن بلا شعب؟ وطن كله مقابر وأحزان»

شاطرت ولدها حزنه الذاهل بصمت.. تفكر كيف ستنام وبين عينيها ذلك الشاب الذي ترك ابتسامته خارج ثلاجة الموتى وحيدة، باردة تلك الابتسامة لشاب ساقته الحماسة والفقر كي يموت بلا ثمن. يا له من مساء حزين؛ صارت السعادة تأتي مبتورة والحزن يأتي دائمًا مكتملًا.

سعادتها بنجاة زوجها «وحيد» من فاجعة الاعتقال نسفتها حادثة الطريق لتعتقله غيبوبة لا تعلم هل هي بسوء المعتقلات هنا؟ حين سمعت قصة «وليد» صديق زوجها فرحت برحيل وحيد لكنها الآن لا تدري أيهما أفضل حالًا؟

«وليد» اعتقلته ميلشيا الحوثي قبل شهور؛ وخرج من المعتقل قبل أيام؛ الحقيقة أن ما خرج هو ما تبقى منه فقط. والدته صديقة أثيرة لأم وحيد. أم ملتاعة تروي قصته لكل من دخل دارهم زائرًا ومواسيًا؛ تخبر صديقتها تفاصيل اعتقاله حين زارتها برفقة سميرة مرددة ذات الكلام من بين الدموع:

_ انتظروا وليد بعد صلاة المغرب حين عاد إلى البيت؛ انقضوا عليه بأسلحتهم وكراهيتهم وربطوا عينيه بعد تكميم فمه، كان فزعًا من خشونة تعاملهم وعلى فجيعتنا لكنهم أخبروه أن «المشرف أبو العباس» يريد رؤيته فقط.. كلنا نعرف أن «المشرف صار اسمًا مكروهًا

لكل شيء يحدث في البلد؛ هو القاتل والفاسد واللص والمنتهك لكل حق في كل منطقة يعين فيها هذا المشرف. حين أوصلوه إلى مبنى الأمن لاقى هناك صنوف التعذيب والتنكيل التي يعاني منها كل مختطف في سراديبهم المغلقة والغامضة. لم يكن يعلم أية تهمة وجهت إليه رغم أنهم أعدوا قائمة من التهم الجاهزة.

طلبوا منه أن يعترف أنه «داعشي» هذا اللفظ الذي أصبح معلقًا على مشجب الاتهام لكل من لا يعجبهم، طلبوا منه أن يذكر لهم أسماء شباب قام بإرسالهم للقتال ضدهم في مأرب. ومن هي القيادات التي يتواصل معها من أجل إعداد متطوعي المرتزقة والخونة. ثم تجهش بالبكاء.

_ نعم أصبح الوطنيون خونة والشرفاء الحفاة في جبهات المقاومة مرتزقة» هكذا تنقلب الصور لتصبح قاتمة السواد حين يرسمها لصوص البلد. همست سميرة مواسية أم وليد.

_ لقد عذبوه كثيرًا بالضرب على مناطق في جسده بشكل مستمر حتى أصيب بشلل في ساقه اليسرى، تقيحت جراحه وانتشرت أوجاع جسده وروحه وفشلت كل مناشداتنا لإخراجه؛ ثم نقلوه من معتقل إلى آخر أشد قسوة وسوءًا وفي كل مرة يعاد التحقيق معه والتعذيب بطرق وحشية؛ في النهاية فقد النطق مع ابتلاع الشلل لنصف جسده؛ صار كومة ألم ولحم فاسد يعجز عن الحركة أو الاحتجاج لا تنطق فيه سوى دموع صامتة ترفض السقوط فكل شيء حولنا ساقط وظالم. عندما قرروا الإفراج عما تبقى منه؛ اتصلوا بنا كي نأخذه فقد انتهوا

منه؛ طلبوا منا مبالغ مالية هائلة دفعناها مجبرين من أجل أن يخرج ولدنا.

والدته لا تكف عن البكاء عند رؤيته يعاني الحياة أكثر من معاناة الموت نفسه؛ أصبح معتقلا مدى الحياة للعجز الجسدي والنفسي. قالت سميرة:

_ البلد كله سجل لقصص مروعة تحيط بنا أينما ذهبنا؛ قصص فاجعة لا تمت لطبيعة اليمنيين بصلة. وأضافت بأسى: سمعت قصة شخص يدعى «آدم « قتلته زينبية ملقبة بأم المجاهدين؛ اغتالته في أحد شوارع مدينة إب بعد أن عجزت دوريات الحوثيين عن النيل منه؛ حاصرت المليشيا المكان الذي يقطن فيه؛ لكن الزينبية اقتربت منه بحيلة لئيمة كأية امرأة تعبر الطريق؛ طلب منها أن تبتعد عن المكان خوف الإصابة بعد حصار المليشيا له؛ لكنها أطلقت عليه وابلًا من الرصاص من خلف ظهره حتى انتثرت أحشاؤه على مرأى من الناس في الحي. لا أحد يصدق أن هذه أفعال نساء يا أم وليد. قصص تنتشر كالدود في مجتمع أصابه المرض؛ لم نشهد وحشية كهذه من قبل؛ انتهاك لكل الأعراف القبلية التي كانت درعًا يلجأ إليه العقلاء في نزاعاتهم واستهانة بالأرواح البريئة.

****

وكأنما أجهز خبر الحادث الذي وقع لولدها على ما تبقى من قوتها وصلابتها؛ استسلمت أم وحيد لشيخوخة طالما أنكرتها فأتت كلها دفعة واحدة بعبارة وصلت إلى هاتف ولدها الأكبر ذات صباح لم تشرق فيه شمس في عينيها.

في الأيام الأولى قيل لها إنه بخير فيما عدا رضوض قليلة وسيتحدث إليهم هاتفيًّا..

كانت الرسائل تأتي مطمئنة وتؤكد على سلامته؛ ٠وخلال أسبوع مر عليها كدهر قررت السفر فيه إلى مأرب رغم كل صعوبات التنقل؛ حينها أتى خبر سفره إلى المملكة لتلقي العلاج هناك. هبط عليها الخبر كأنه حادث آخر ذلك الذي أصاب قلبها الملتاع.

تلاشت ثقتها بسلامة ولدها كما يحاولون إقناعها. طرقت كل السبل كي تصل إلى ولدها الراقد في أحد مستشفيات المملكة.

سعت إلى كل من له علاقة بوحيد ويمكنه أن يساعدها بالدخول مع زوجته وأولاده؛ لكن الرد كان استحالة الدخول بعد منع تأشيرات دخول اليمنيين الذي تكاثر عددهم هناك وبدأت المملكة بسن قوانين ترحل المغترب العامل قبل أن تعيد اللاجئ السياسي والهارب من قبضة الحوثي.

كان النزوح واللجوء كبيرًا في بداية الحرب لكن مع بدايات عام ٢٠١٧ صار الترحيل والعودة هو الغالب عند من لا يجد عملاً يعتاش منه.

البعض حاول إقناعها بالدخول بمفردها لحج ذلك العام؛ لكن تكاليف الحج كانت باهظة وسفر الحجيج محدود؛ ولم يطاوعها قلب الأم أن تذهب بمفردها مخلفة أبناءه الأربعة. تفاقم وجعها وحزنها على إصابة ولدها وهي تحاول الصمود من أجل الصغار؛ ترى فيهم وحيد فتشتاق إليه وتكابر من أجلهم في وجه كل ذلك الضعف الذي اعتراها بعد خبر الحادث. منذ رحيل زوجها قبل سنوات طويلة صارت الأم والأب لأولادها وبناتها وكان قلب وحيد هو أمها وأبوها. هو الأكثر حنانًا ومساندة لها؛ يحاول جاهدًا أن يسعدها ولا يوجع لها قلبًا؛ كان سندًا لها حتى في سنوات عمره الفتية. كم تخشى رحيل هذا السند مرتين لتبقى وحيدة في وجه الحزن دون وحيد. هدها الوجع من الداخل فتآكلت مرضًا صامتًا لا يشكو إلا لله.

ومع بداية موسم الحج الذي تمنت أن يكون لها نصيب فيه سقطت طريحة الفراش مسلمة جسدها للمرض انتظارًا للرحيل.

جمع مرضها كل أبنائها وأحفادها حولها؛ لكن نظراتها تعلقت بأبناء «وحيد» فهم الفقد مرتين. وذات غروب حزين أسلمت روحها للموت وهي تهذي باسم وحيد.

****

ويحـــدث أن تبهـت ألوانـي وأنـا
أرســـم وجهًـا لـك أيهـــا الغـــد
فيغدو وجهـك جزءًا من هذا الليل.

«عفـــــراء»

عزيزي وحيد.. حين يغيب عنا من نحب نلجأ للبحث عنه في كل ما مضى؛ يؤلمني ألا أعرف برحيلك إلا وأنت على سرير مشفى يبعد عن قدرتي في الذهاب إليه مهما فكرت أن أذهب. الآن أبحث عنك في رسائلك يا وحيد؛ تلك التي تبدأها حبيبتي «عفراء» فهل من الحب أن تقتلني برحيلك؟!! بالأمس فكرت في قراءة رسائلك القديمة؛ وكانت فكرة غبية جدًا. لكن الأغبى منها هو أنا؛ لقد كان فيها أشياء مؤلمة لم أكن أفهمها؛ والأكثر ألمًا هو شعوري وأنا أقرؤها في تلك اللحظات؛ وأنت مغيب على الأقل عن عيوني أنا.

كنت تتجه نحو البعد تمامًا ولم أعِ ذلك وقتها؛ كنت تعدني باللقاء وأنت تنوي رحيلًا أبعد؛ تبيع ما تبقىَ من عمرينا من أجل وهم إقامة وطن على أرض حرب وخراب.

كنت نويت البعد؛ وسافرت حتى دون أن تخبرني أو تودعني. ليتك أتيت إلى قبل أن تخطفك غيبوبة موت؛ وليتني اختطفتك قبلها.

تبًا للأدباء حين يكتبون عباراتهم هذه «يلوك الوجع» "ويمضغ

الألم ويبتلعه» إنه يلوكني فعلًا وأبتلعه أنا فتمتصه كل خلية من جسدي وتئن. تئن بوجع الصمت يا وحيد.

هل هناك أكثر وجعًا من أن تفصلني عنك غيبوبة حياة أعيشها أنا وغيبوبة موت تعانيها أنت؟!! يا لهذا الحب ضاربة جذوره في عمق القلب كشجرة معمرة بألف عمر..

من أين لعواصف البعد والحزن أن تقتلع تلك الجذور الممتدة كأوردة الحياة في كل الروح؟ لها أن تكسر خطواتي المتعثرة نحوك؛ ولها أن تبعثر أوراق الشوق وتهشم أغصان توسلاتي التي أمدها إليك.. لها أن تجتث كل شيء فوق الأرض ولتبقى أنت في عمق القلب روحًا لن تُنزع مني فحتى الموت سيحيل جسدي لحبك مجرد قبر.

تبًا لقلبك الذي كلما اقتربت ظل يبتعد.. وتبًا لهذه الحرب التي مزقتنا في أصقاع الأرض؛ ليحول بيني وبينك أكثر من كل تلك المساحات التي بين شمال وبين جنوب؛ بين رجل مشرد مطارد في وطنه وبين امرأة عاشقة. أنت الباقي في قلبي يا وحيد كمرض يلازمه منذ الطفولة؛ يضعفه حد الموت وينعشه حد البعث. ستبقى لأني جمعت فيك سنوات عمري كلها كحصالة أخفي فيها لحظة وعد أن نلتقي أستيقظ فيها من حزني وتستيقظ أنت من غيبوبة حادث لن يأخذك مهما كان الأمر. يا لهذا الأسى حين يصرّ كل شيء حولك على حرمانك مما تتمنى!!

كل شيء يحرمني منك؛ غيبوبتك السادرة عن الشعور بما حولك فلا تناديني. وهذه الحرب التي تمزق وتشتت ولا تجمع إلا الضحايا في أرقام وأرصدة معونات.

هذا الوضع من التزامي بأم مريضة يحرمني أن آتي إليك حيث أنت فأجد ذاتي التائهة عندك وأتشبث بروحك التي تسكنني كي لا ترحل مني؛ ربما تصل إلى مسامعك نبضات قلبي فتوقظك؛ لا أصدق أن كل هذا الزمن مرّ دون صوتك وكلماتك.

صوتك الذي يكفي لإحلال الربيع في شتاء عمري فتقصر لسماعه مسافات الاشتياق.

ماذا يفعل بي غيابك يا وحيد؟! كلما رأيت أثره على ملامحي كرهت نفسي وكرهتك؛ أتساءل ماذا لو كان رفضًا منك لي إلى أين ستذهب نفسي التائهة الممزقة بي في دروب الألم؟!! دائمًا ما يكون النوم وسيلتي للهروب من الحزن؛ لكن ماذا عن هروبك في غيبوبتك هذه هل هو الهروب الكبير؟ النوم ليس هروبًا من واقع فقط بل هو السعي لحلم ربما يكون أجمل. أتساءل هل يحق لي أن أعذب نفسي بك؟ من أجل ماذا كل هذا وإلى أين أصل بهذا الشعور؟

كأن الزمن توقف في لحظة غيابك عن الإحساس بما حولك؛ حتى الهواء أثقل مما كان صرت أسحب أنفاسي من ثقب يمتد من هنا وأنا في عدن حتى سريرك هناك في ذلك المشفى عبر آلاف الكيلو مترات التي تفصلنا؛ كل شيء لا ينقضي أو ينتهي؛ لا هذه الحرب ولا هذا الحب الذي يكبر في داخلي.

متى تعود فعودتك ستكون ميلادًا لكل شيء حولي فكل شيء ميت بغيابك؟

آه يا وحيد طوال هذا العمر الذي قارب الأربعين وأنا أسعى إلى حرية لا يدركها الكثير؛ حرية مكمنها الداخل وليس قيود الخارج أو تلك الأسوار التي يضعها كل ما حولنا.

حرية القلب حلمي فلا أكون مملوكة لشعور يتسلط علي ليسوقني بين شعاب الرضا والسخط. حاربت مخاوفي فأزلت كثيرًا من قيود الحياة؛ وعجزت أمام قلبي حين أسلمني لحب كالسراب؛ لم تنفع مجازفاتي أو جنوني؛ بل زادت حياتي شقاء لأول مرة.

في غيابك أكتب كعادتي قصصًا عن هذا الواقع انتزعها من جوف الخيال؛ أتقيأ كل الألم داخلي كلمات يقرأها الناس بسعادة وربما بألمٍ؛ فما نكتبه لا يعدو سوى سجل لخيباتنا الكبرى؛ نكتبها وجعًا ونزفًا ويقرؤونها متعة وتسلية.

لا يهم كيف نكون؛ ما يهمّ هو أن نكون بخير بالقدر الذي يحتاجه من حولنا منا؛ وليس بذلك القدر الذي نحتاجه لنتوافق فيه مع ذواتنا.. نكتب الوجع؛ رغم أن هناك أوجاعًا لا تحكى أبدًا للآخرين؛ فلا غرابة أن يتهلل قلبي فرحًا حين أستطيع الصراخ من وجع دون أي لوم. لن يشعر بك إلا من كان مثلك وغير هذا فادعاء للألم وإهانة لوجعك.

أنا أكتب ذلك الذي لا يحكي لك؛ أكتب كل يوم وأخبرك كم أن غيابك أوجعني وكم أن الانتظار لا ينتهي. أنا أنتظرك ككل الأشياء التي فات موعدها؛ أنتظر لأن الانتظار صار جزءًا من رحلتي إلى النهاية.

****

ماتت والدتك..

أبلغتني صديقتي «أروى» بذلك؛ أروى تعلم قصتنا؛ وعرفت بموت والدتك بالمصادفة فمدينتك الصغيرة لا يختفي فيها خبراً مؤسفًا كهذا.

قررت أن أذهب إلى مدينتك الخضراء وفاء لك كي أعزي غيابك

في والدتك التي أحببتها أنت كأول أنثى عظيمة في حياتك؛ عشقك لتلك الأم التي ربتك وحيدة دون أب جعلك تحترم كل نساء الأرض.

مجيئي إلى عزاء عائلتك قرار صعب عانيت في اتخاذه؛ ولولا أن أقرباء لي في طريقهم إلى صنعاء لبيع عقاراتهم هناك؛ وفكرة البقاء بضعة أيام في إب التي راودتهم لما عزمت على المجيء وترك أمي في منزل أخي. وكأني سألمحك في أزقة المدينة طفلًا أسمرًا بعيون واسعة.. وأنا أخطو في أزقة حيّك ألمح طيفك داخلي في كل الوجوه؛ أطرق باب منزلك وجزءًا حميمًا منك سيفتح لي الباب؛ سأعانق أجسادًا طالما عانقتها أنت بحب فكأني أعانقك رغمًا عن الغياب. كان بقائي في العزاء خاطفًا؛ خشيت أن تفضحني نظراتي ولهفتي وأنا أتأمل طفليك الصغيرين فهما جزء منك يحملان وجهك والشوق لك.

لا حيلة لي في قلبي الذي أحبك مع كل احترازاتي بسبب عائلتك؛ تعرف أن القلب هو الثائر المناهض لسيطرة وسلطة العقل. أرى طيفك في أرجاء البيت؛ أمسك مقبض الباب وأنا أثق أن يدك أمسكته بنفس الطريقة؛ أسند ظهري إلى الجدار وأنا أشعر أنه أسند ظهرك يومًا. أرى مجلسك في كل ركن وأتنفس الهواء وأجزم أن أنفاسك عالقة فيه؛ هذا أنت في عيوني كل شيء أمامي وحولي.

وأنا أتأمل زوجتك أيقنت أنها محظوظة كونها لا تعلم بالذي بيني وبينك. لكن أنا أعرف جيدًا الذي بينك وبينها؛ أراه في كل شبر من جسدها؛ أرى بصمات أصابعك ظاهرة لي خلف ثيابها؛ أرى ملامحك التي أفتقدها في وجوه أطفالك الذين أتوا من رحمها هي..

يا لهذا الامتزاج بينك وبينها كم يجعلني أتشظى غيرة أنا الغريبة عنك.

****

وأجمـــل ما فيـــك يا وطنـــي..
مقدرتك على إبقائي على قيد العيش!
كلما أوشكت أن ألفظ أنفاسي يأسًا،
أمددتنـــي بجرعـــة بقـــاء.

«وحيـــــد»

لأسابيع طويلة وجسد «وحيد الأمير» ممددًا على سرير المشفى الأبيض يراوح بين الحياة والموت؛ معلقة أنفاسه بجهاز تنفس صناعي. تمنى البعض أن يقضي عليه الموت فيستريح؛ وتمنى المحبون أن تنتفض فيه الحياة من جديد طاردة شبح الموت المخيف من ملامحه الصامتة. راوح بين الحياة والموت الذي خطف أرواح الكثيرين من المقاتلين في الجبهات؛ وأرواح المئات من الأطفال في اليمن؛ ولم يأخذ روح وحيد الساكنة كالقبر.

الموت ذاته ذلك الذي اقتنص روح والدته حزنًا عليه دون أن تلقي على ولدها نظرة تطمئنها أو يحالفه الحظ بوداعها كابن بارٍ بها.

اعتاد شائف في زيارته لصديقه أن يحدثه بأمور تحدث في عالم الأحياء ربما قد يهتم ذلك المتشبث بسرير العجز. يحاول أن يبدد كآبة الغرفة الناصعة البياض كصفحة لم يكتب فيها القدر فرحًا؛ يخلق جوًا من المرح في روح جسد هامد إلا من نفس ضعيف.

ذلك الصباح تثاقلت حتى خطواته؛ جلس على حافة السرير وقبض كف وحيد بين يديه كأنما يوصل له الحديث بأكثر من طريقة؛ وبدأ يتحدث بحزن تسلل إلى كلماته دون شعور: «كل الأخبار من الوطن لا تضيف جديدًا يا وحيد؛ الناس ينتظرون الفرج؛ يشبهونك في رقدتك هذه.. أحياء.. إنما يرفضون أن يستيقظوا مثلك تمامًا.

رحم الله والدتك ربما تمنت كثيرًا أن تكون مكانك هذا على أن تراك بهذا الحال؛ وأطرق مردفًا: رحمة الله عليها. وانتفض شائف؛ خيل إليه أن كفّ وحيد ينقبض!! هل حقًا تحركت أصابعه المتيبسة منذ أسابيع طويلة؟!!

هتف بانفعال وهو يترك كفّ وحيد من بين أصابعه ويطوقها ببصره فقط:

_ هل فعلتها يا صديقي؟ هل قررت أن تعود؟ حرك يدك مرة أخرى كي أصدق أنه ليس حزني من صنع هذا الفرح الكبير.

كاد أن يتعثر بالأجهزة المتصلة بجسد وحيد حين احتضن رأسه وهو يرى كفه ينقبض ببطء للمرة الثانية انقباضة لا يلاحظها سوى قلب صديق.

أخذ يحمد الله وهو يدعو الممرضة لإحضار الطبيب الذي ألقى نظرة فاحصة نحو الأجهزة والتفت بدهشة نحو شائف: «معجزة يبدو أنه يستيقظ من تلقاء نفسه»

كانت عودة وحيد إلى وعيه بطيئة تمامًا كفترة غيابه التي قضاها في غيبوبة صمت وعزوف عن الحياة؛ بطيئة لكنها انتهت بفتح عينيه ليرى نور الحياة من جديد.

ولم يكن وحيدًا كعادته.. لقد كان هناك من ينتظره بكل الشوق والحب.

****

أخيرًا عيناه تبتسم..

صاحب الابتسامة الأجمل والعيون المضيئة كسراج في عتمة الحزن ابتسمت عيناه فقط؛ ضوؤهما الخابي يزفر دمعة من أطرافهما كأنما صدمته ذاكرته بأحداث غاب عنها طويلًا؛ اقترب شائف مادًا كفه لمسح الدمعة الهاربة وهو يقول بحنان الأب:

_ حمد لله على سلامتك يا صديقي؛ قوي وصبور كعادتك يا وحيد؛ محنة أخرى تضاف إلى رصيد خبرة الحياة لديك؛ وانتهت بمنحةٍ عمرٍ جديد من الله تعالى لك.

انفرجت شفتا وحيد كأنما يهمّ بالحديث؛ وعاد ليطبقهما بقوة حتى ابيض حولهما؛ يخشى أن يسأل ماذا حدث فتؤلمه الإجابة. أطبق الصمت على الجميع كفم متعب إلا من ابتسامات فرح حزين.

«منذ متى تخاف المواجهة يا وحيد؟!! أنت الذي تعشق مصادمة كل شيء يقف في طريقك للوصول إلى الحقيقة؛ وتدرك أن ما سينكسر هو وهمّ قابل للزوال فقط. عاد ليهمس بصوت بدا لأذنيه غريبًا:

_ اقترب يا شائف.. وجودك يقول إن ما حدث كثيرًا؛ أخبرني كل شيء.

_ أرى أن ترتاح لبعض الوقت عدت إلى وعيك قبل ساعات فقط بعد غياب أسابيع طويلة. هتف وحيد بصوت مرهق:

_ أسابيع؟!! يا الله.. كيف أمي يا شائف؟ ابتسم شائف بفتور وهو يضفي المرح على صوته: أمك الآن في خير حال ما دمت أنت بخير؛ قد عدت لأهلك ولنفسك؛ أيًّا كان الأمر يا وحيد نحن نرضى بقدر الله؛ ونعلم أن كل قدر خير؛ والحمد لله على عودتك.

أغمض وحيد عينيه بقوة؛ مازالت ذراعاه ثقيلة عاجزة أن تزيح الدمع الذي انهمر من عينيه؛ تيقن أن والدته لن تنجو من حزنها عليه؛ لقد رأها في منامات كثيرة تبكي..

_ آه يا أمي يا لي من بائس صرت ذلك الطفل العاق في النهاية؛ رغم حرصي كل حياتي أن تكوني سعيدة بي إلا أنني قتلتك حزنًا علي في النهاية. كما أنت يا أمي دائمًا. وهبتني الحياة واستبدلك الموت بي كي أعيش. يا أم وحيد اغفري لي رحيلك دون وداع أو تحقيق سعادة أخيرة لك بنجاتي.

****

المقابر لا تحمل رائحة الموت إنما رائحة أولئك الأحبة الذين دفنا أجسادهم وتبقت رائحتهم عابقة عالقة على جدران المقبرة وترابها وشواهد القبور الصامتة.

حواسنا تتجه صوب قبور أحبتنا تجذبها الرائحة كل مرة نزورهم كي نبكي بقاءنا دونهم.

«آه يا أمي المقبرة التي تضمك هي وطني وأنا البعيد في غربة؛ كل الذين خلفتهم ورائي هم الوطن؛ زوجتي وأولادي؛ كل أهلي وأصدقائي؛ وعفراء وأحمد..

أحمد النويرة.. يا صديقي روحك لم تفارقني للحظة في غيابي عن الحياة. كنت معي كما كنا دائمًا؛ روحين لم تفترقا؛ الآن فقط أشعر أني تخليت عنك لحياة هي بدونك الغربة المرة فعلًا؛ خذلتك يا صديقي وخذلني جسدي ومازال يفعل ترى أين أنت الآن ومتى يجمعنا وطن آمن من جديد «

مازال جسد «وحيد» متصلبًا لطول رقدته في المشفى؛ البقع الداكنة على ظهره لا تظهر لعينيه لكنها أشد وضوحًا في ذاكرته التي تتفتح تدريجيًّا؛ كلما تذكر أمرًا أو شخصًا هب صارخًا متسائلًا أين وماذا حدث له في غيابه.

ينعش ذاكرته بأحاديث شائف عن كل الذين غابوا استشهادًا في المعارك؛ أو تشردًا في أصقاع الأرض؛ عن سير القتال في جبهات التحرير وحلم استعادة الوطن الذي يراوح مكانه بين تقدم وتقهقر؛ عن ضحايا التحالف الذين تساووا بضحايا المليشيا الحوثية.

عن مجازر الأسواق ومواكب الأعراس وقاعات العزاء التي تقصف بصواريخ التحالف نتيجة خطأ تقني لن يفهمه كل أهالي الضحايا ولن يحاكمه التاريخ أو تقم ضده الدعاوى القانونية للمقهورين. فالضحايا من البسطاء لا يعرفون أخطاء التقنية لكنهم يعرفون أن الدعاء يصيب الهدف عاجلًا أو آجلًا.

حدثه عن الطفلة بثينة ذات الخمسة أعوام الناجية الوحيدة بعد أن قصف التحالف المبنى التي تقطن فيها عائلتها في صنعاء؛ حين ضج ضمير الإنسانية لمشهد بث لها وهي تحاول فتح عينها المصابة

كي ترى ما حل بها في هذا العالم القاسي؛ لتصبح شاهدًا موجعًا على جرائم الأخطاء الوحشية؛ جريمة عادلت في صداها جريمة قصف صالة عزاء آل الرويشان في أكتوبر ٢٠١٦ التي بلغ ضحاياها ما يقرب من سبعمائة شخص.

في إحصائية تقريبية مؤلمة حتى هذا الوقت من الحرب أكثر من ألفي طفل فقط هم ضحايا لقصف الطيران الذي يرى المنازل الدافئة ثكنات عسكرية ويرى الأسواق المزدحمة بالناس عروضًا عسكرية؛ يرى مواكب الزفاف فيقلبها إلى جنائز في لحظات حين تتناثر أجساد النساء مخضبة بالزينة والموت الغادر؛ حين يترك أهداف المليشيا ليقصف المقاومة؛ تُحدد له الأهداف فيضرب ما جاورها في حَوَل أخلاقي ليس إلا.

ما أكثرهم ضحايا البسطاء وما أغفل العيون عن القتلة وهم يسرحون في طول البلاد وعرضها.

****

_ عفراء..

_ .....

_ عفراء.. هذا أنا وحيد..

_ وحيد.. وحيد؛ اندفع صوتها بشهقة بكاء متقطعة؛ تخشى أن تصدق قلبها فكذبت أذنيها.

_ نعم وحيد؛ أرجوك أن تهدأي؛ أسمع تنفسك المتهدج الذي يوقظ حتى الموتى..

أجهشت بالبكاء فاقدة قدرتها على النطق سوى ترديد اسمه بلهفة.

_ أنا بخير يا عفراء؛ كيف حالك أنت؟

لم تسمع إجابته ولم تقل شيئًا؛ لقد تداعى جسدها أرضًا وبكت كل أيام الصبر والتحمل؛ أخرجتها شهقات متقطعة ودموع أغرقت الهاتف الذي سقط من يدها المرتخية سعادة لأول مرة من عمر طويل.

كانت تتذوق بكاء الفرح كم هو لذيذ؛ وحين عاد رنين الهاتف حاملًا رسالة من وحيد هذه المرة: (سأعاود الاتصال بك حين تهدأين؛ لا تبكي كثيرًا.. فأنا مشتاق لعينيك الصافيتين) تناولت الهاتف بلهفة مرتعشة وكتبت: أين أنت؛ سآتي إليك أنا ما زلت في صنعاء. عاود الاتصال بها هذه المرة ردت بشوق يجرف أمامه كل شك أنه خيال أو حلم؛ تكومت حول نفسها في ركن الحجرة كمن يخشى أن يستيقظ من حلم:

_ أخيرًا يا وحيد؛ حمد لله على سلامتك؛ كم كرهت الحياة في غيابك. لن أسامحك..

أطلق ضحكة متعبة وهو يقول: كان الأولى ألا أعود إذًا..

_ أرجوك لا تقل ذلك؛ قد لا أسامحك على غيابك كل هذا الوقت؛ لكنني كنت لأقتلك إذا لم تعد» عاد ليضحك بصوت أعلى لكم يعشق جنونها الدافئ هذا؛ هي القادرة على انتزاع ضحكاته وهو في أشد حالات كربه:

_ ما كنت لأتركك لأحد يا عفراء؛ كنت أنوي أمرًا وكان قدر الله النافذ علينا والحمد لله.

حدثيني عنك؛ عن كل شيء.. ابتسمت لنفسها قائلة:

_ أنا أحدثك كل يوم.. كل يوم أرسل لك كل شيء أريد أن أقوله لك؛ إذا فتحت بريدك ستصل إليك كل رسائلي؛ كلها تقول أمرين: إني أحبك.. وإني أنتظرك. قل لي أنت كيف هي صحتك؟ أما زال هناك ما يؤلمك؟

_ ليس في هذا الجسد الكثير مما يؤلم يا عفراء؛ ساقي فقط أستخدم لها عكازًا؛ يؤلمني أكثر أن لا شيء تغير في حالنا.

_ سيتغير يا وحيد؛ كل شيء سيتغير يومًا ما؛ لا شيء يدوم أو يبقى ثابتًا حتى الجبال؛ كل شيء في صنعاء يقول إنها ستنفجر. ثلاثة أعوام مرت من روح هذا الشعب ولابد أن يعرف قريبًا طريقه.

_ سيعرف يا عفراء إنما وقد بلغت خسائره كمًا لا يمكن أن ينسى.

****

طلب وحيد من شائف أن يخبر زوجته وأخوته أنه أفاق من غيبوبته وأصبح قادرًا على محادثتهم هاتفيًّا؛ يخشى إن تفاجأوا باتصاله؛ أن يبكوا أو يؤلمهم الفرح فالفرح الغائب دومًا يصبح مؤلمًا كالحزن تمامًا حين يأتي بغتة بلا مقدمات تبشر به؛ ربما هي قلوبنا التي لم تعد تحتمل إلا ما اعتادت عليه.

اغرورقت عيناه بالدموع وهو يتخيل والدته هي من ترد على مهاتفته كما اعتاد فيما مضى؛ تذكر حين طلبت منه رقمًا لهاتف ثابت يبقى في حجرتها كي ترد على اتصالاته وهو يقيم في صنعاء؛ تذكر

رفضها للهاتف المحمول وإصرارها على الهاتف الثابت قائلة إنها تشعر أنه في طرف الخيط الآخر مثلها حين تحادثه. كيف تبدو مدينته دون هذه الأم؟!! بل كيف سيأتي يوم يعود فيه إلى منزل لا تستقبله أمه بعطر حنانها فقط؟!!

غالب دموعه وهو ينتظر صوتًا في الطرف الآخر؛ ردت زوجته «سميرة» بفرح كما تعودها قوية رابطة الجأش في أحلك الظروف؛ أتاه صوتها: وحيد؟ همس بصوت مخنوق العبرة:

_ نعم يا سميرة كيف حالكم جميعًا؛ اشتقت إليكم؛ واختنقت كلماته..

_ نحن بخير.. كلنا؛ حمد لله على سلامتك؛ نحن بخير ما دمت عائدًا إلينا بخير.

اختنقت بالبكاء فتخاطف الأولاد الهاتف من يدها؛ كلما نطق وحيد باسم أحدهم رد آخر قد سلب الهاتف من أخيه؛ ضحك وحيد لزقزقة أصواتهم ولهفتهم؛ السعادة التي تشع من أصواتهم بثت فيه الحياة كأنما عادت إليه الروح لتوها.

_ رحمة الله عليك يا أمي.. أثق أن هؤلاء الصغار ملأوا فراغ غيابي في حياتك قبل رحيك.

****

مـن يمـوت لا يحـدث ضجيجًـا.

النائحـون لخسـارتهم فقـط

مـن تعلـو أصواتهـم بالبـكاء.

(صنعــاء)

في صباح اليوم الثاني من ديسمبر لعام (٢٠١٧) دخل شائف الحجرة التي يرقد فيها وحيد في منزل صقر كان طلق المحيا لا تُخفى سعادته وهو يقول:

_ الأخبار من صنعاء مفرحة يا وحيد لقد انتفضت مدينة القبور؛ أشعلها «صالح» ضد حلفائه بعد أن ارتوى مهانة منهم؛ أترى يا وحيد لعل الله أراد لهذا الوطن الفرج؛ لقد دفع الناس الخوف عن صدورهم وخرجوا يهتفون في الشوارع: لا حوثي بعد اليوم.

شبع الشعب جوعًا وقتلًا ومرضًا وقرر أن يصنع غده وينتفض.

ابتسم وحيد بتعب قائلًا:

_ كنت لتوي أتصفح أخبار مواقع التواصل؛ لكنها لهول الكذب والمبالغة فيها لم تعد محط ثقة أبدًا؛ أصبح الخبر الصادق فيها كالشعرة البيضاء في الثور الأسود كما يقال.. قال شائف بحماسة:

ـ لا عليك من هذه المواقع يا وحيد فكلنا نعلم أن هذا العالم زائف في كل شيء؛ الأخبار تأتي من مأرب ومن داخل صنعاء المحاصرة نفسها؛ لن يعدم الناس طريقة لإخراج ما يجري. بغض النظر عن كل ما أقترف هذا الرجل أتمنى أن يصمد في وجه هذه الجماعة وأن يلتف جماهيره حوله. أطلق وحيد ضحكة خافتة وهو يقول:

ـ أي جماهير؟!! هذه الجماهير بالذات صنعها للمهرجانات وليس للقتال؛ التي للقتال سلمها للحوثيين منذ ثلاث سنوات وقد أبيد منها الكثير.

نهض وحيد من فراشه بصعوبة؛ لم يعتد بعد على الوقوف والسير بدون عكازه ومازالت ساقه أضعف من أن تحتمل جسده الثقيل؛ عاد ليقول:

ـ رغم كل ما صنعه «صالح» في هذا الوطن من إذكاء الخلافات إلا أن خطر الهاشمية السياسية على هذا الشعب وتماسكه أشد وأنكى؛ لقد ربى أفاعي الطائفية المذهبية وستلتهم رأسه قريبًا؛ الحوثية لا تقبل أي شريك يؤمن في قرارة نفسه بسلطته هو وليس بولايتهم هم؛ انظر إلى أتباعهم أي ولاء يحملون لفكرة السيد وحق الولاية. شيء أقرب إلى الخيال كأنما يمارس فيهم شيئًا كالسحر أو غسيل الأدمغة.

رد شائف بغرابة:

ـ لقد ثبت هذا فعلًا؛ دعك من نظرتك المجردة للأمور؛ قد لا تؤمن أنت أو تصدق لكنهم فعلًا يقعون في شرك السحر والسحر حقيقة ثابتة؛ أنت بفكرك الواقعي تؤمن فقط بما تريد؛ تؤمن بالتنويم

المغناطيسي ولا تؤمن بالسحر؛ منذ القدم والسحر الأسود والشعوذة وسيلتهم لفرض سلطتهم.. شيء توارثوه كوسيلة للسيطرة على العقول؛ حدث أن الخميني ذاته استخدم هذه الطرق في حرب العراق.

_ لا ..ليس الأمر إيمانًا أو إنكارًا؛ إنما كيف سيخضعون كل هؤلاء البشر للسحر؛ الأمر أكبر من هذا؛ أنه الجهل من يتحكم في عقول كل هؤلاء الذين يندفعون إلى الموت بشراهة عجيبة؛ البعض مؤمن كإيمان أم «يحيى» التي ترجموا خطبتها الشهيرة وهي تقف على أشلاء ولدها إلى اللغة الفارسية؛ كانت تودعه برباطة جأش وتوصيه أن يبلغ أجداده الحسن والحسين ومحمد بن عبدالله السلام منها؛ وأن مفتاح الجنة في يمينه ما دام قاتل المنافقين الذين هم نحن؛ هذا الشعب المنكوب بمزيد من الجهالات والضلالات؛ نقصته مظلومية كربلاء التي لا يعلم نصف الشعب اليمني عنها شيئًا وما الذي حدث فيها. ما يحدث للأتباع هو غسيل أدمغة ممنهج باسم الدين وقداسة السلالة الهاشمية. أطلق شائف زفرة محرقة وهو يقول:

_ أتفق معك في هذا؛ إنه الجهل مرتع الضلالات الخصيب؛ وهو للأسف مقرون بالإنسان اليمني الذي صار ضحية الأئمة منذ أكثر من ألفٍ ومئتي عام؛ لقد حرصوا على بقاء عنصر الجهل كأقوى أسلحتهم من أجل حكم اليمن جيلاً بعد جيل وهاهم عادوا كأشد ما يكون الضلال والاستبداد.

****

قُتل «عفاش»؛ قَتل الحوثيون الزعيم صالح وانطفأت انتفاضة صنعاء.

سيتطرق التاريخ يومًا لذكر تلك المشاعر المتضاربة التي اجتاحت اليمنيين حين شاهدوا جثمان الزعيم «علي عبد الله صالح» حين تناقلت وسائل الإعلام ومواقع التواصل مشاهد مقتله بالصور ملفوفًا في بطانية ملوثة بفتات من أشلائه فأنكرها محبوه وأعداؤه غير مصدقين أنها له؛ حتى ألحقت بمشاهد فيديو إمعانًا في الإثبات وتحطيمًا لانتفاضته الصالحية من أجل قصوره وأمواله وكرامته التي ديست مرة بعد مرة. عمّ الحزن والصدمة قلوب مناوئيه ومحبيه على حد سواء لخبر مقتله بتلك الطريقة السهلة كأنه لم يكن حليفًا لهذه الجماعة الفاشية.

اقتحموا منزله بعد محاصرته وتم قتله ونهب كل ممتلكاته وكل ما احتوى القصر من نفائس وحتى الملابس. حزن حتى مبغضوه؛ حزن أولئك الذين تمنوا أن تعلقه أكفهم على حبل المشنقة بعد محاكمة عادلة لجرائم ارتكبها في حق اليمنيين طيلة سنوات حكمه المظلمة؛ وجرائم ثورة الشباب في١١ فبراير التي أزهقت أرواح الشباب المسلمين في مخيماتهم حرقًا وقتلًا؛ وجريمة تسليم الوطن إلى جماعة الحوثي المتطرفة التي قتلته في النهاية. أحدث مقتله رهبة مخيفة انقبضت لها الصدور كأنما كان عصيًّا على الموت وهو الذي أذاقه للكثير. إنها تلك الميتة السهلة على أيدي الرعاع الذين أمسكوا به حيًّا بعد أن أعطوه الأمان للتحاور معه.

قتل عفاش الدم ولا يهم بأية طريقة شنيعة قتل ما يهم هو أن تتلاشى بمقتله جميع التناقضات والفوارق بين الشعب ويجمعه طرف واحد هو الوطن في مواجهة عدو واحد هو الحوثية الفاشية التي لم تراعِ أي عرف أو قيم.

أطل وجه صقر من باب الحجرة وهو متهللٌ فرحًا كأنما انقشع عنه كل اكتئاب الغربة وتعبها؛ رفع شائف بصره نحو صقر وهو يقول بضيق:

_ السعادة تنطق من كل خلية وحركة في جسدك. أطلق صقر ضحكة مجلجلة وهو يقول: «أنا لست كائنًا طيب القلب مثلك؛ أنا أحقد سريعًا وكثيرًا بذلك القدر الذي أحب فيه أيضًا؛ لا أحب الغفران ولا أسامح؛ وأناصب العداء كل حقراء الأرض حتى من لا أعرفهم. رغم أني أعرفهم منذ أول وهلة في أول لقاء؛ كل محاسن الأنذال لا تغفر لهم لحظة نذالة منهم؛ كيف نغفر دموع سفحتها نذالتهم وهم يعبثون؟! نعم أنا سأحتفل لموت طاغية فاسد قتل على يد طاغية أشد فسادًا؛ فبسبب سياسة هذا الرجل قضيت نصف عمري في غربة عن أهلي ووطني. ما لا أفهمه هو كيف تحزن أنت لمقتله؟ أليس هو من تسبب في خراب الوطن وتشريدك أنت وكل أعضاء حزبك في المنافي؟ أليس هو الذي صنع حليفه الذي اعتقل شباب حزبكم ورماهم في السجون وأزهق أرواحهم تحت التعذيب؟

نهض شائف من الأرض وهو ينفض ثوبه الذي تجعد من طول الجلوس وقلة الاهتمام وقال بزفرة محرقة:

_ لست حزينًا عليه وإن كانت نهايته مؤثرة وفيها عبرة لكل ذي عقل؛ لكنها بفضل الله أتت على يد حليفه ولم تأتِ على أيدي شباب ثورة ١١ فبراير؛ ما يؤلمني ويجب أن يؤلمك هو ذلك الأمل الذي انطفأ في انتفاضة صنعاء؛ الخوف الذي زرعه في قلوب الناس أثمر حين احتاجهم؛ لم تخرج كل تلك الحشود التي كان يجمعها كالحاوي في ميدان السبعين حتى للمطالبة بجثمانه ليدفن كرئيس دولة لثلاثة وثلاثين عامًا؛ حتى إن النساء هن من خرجن للمطالبة بدفن الجثمان بعد أن خاف الرجال؛ هل تدري ماذا يعني هذا؟ أنه يعني أن هذا الشعب ماتت فيه الرغبة في الحياة أو المقاومة من أجلها.

أطلق صقر ضحكة أخرى إنما بسخرية أشد وهو يقول:

_ وكأنك ترى الشعب هو حزب صالح وصالح هو الشعب؟!! الذين سيحررون صنعاء وكل اليمن هم أولئك الشرفاء الذين لم يسلموها لمليشيا الحوثيين بتحالفهم معها؛ لقد تلوثت أيدي حزب صالح بدماء أطفال تعز وتقيأت أفواههم بمناصرة هذه الجماعة الفاشية. ولن ينال شرف الحرية إلا الشرفاء.

وضع شائف كفه على كتف صقر المشدود من الانفعال وهو يهمس بصوت ضعيف:

_ عودة الوطن يا صقر تحتاج لنا جميعًا؛ كل اليمنيين دون حزبية وانتماءات إلا لهذا الوطن؛ أنهكت الحرب الناس وأتعبهم الفقر والتشرد والقتل الذي يطالهم من الأرض ومن السماء هذا الشعب مهدود لا تنقصه الأحقاد والتصنيفات؛ إذا لم يتحد الجميع لن ننتصر.

لهذا مأرب تفتح ذراعيها لكل من أتى مواليًا للشرعية من أجل استعادة الوطن؛ وكل من يفكر بالتمرد على شرعية الدولة يتجه نحو متمردي المجلس الانتقالي في عدن مطالبًا بتدمير الوحدة أيضًا. إنه فرز مؤلم في كل حال.. لكم تمنينا أن نجتمع تحت راية واحدة لا تعبث بها أهواء خارجية؛ لكنه عشق السلطة واطماع الدول من تفرض سياستها رغمًا عنا.

****

الأيام التي تلت الثاني من ديسمبر كانت فاجعة بحق.

خلال أسبوع واحد سقطت أحلام صنعاء أرضًا كما تسقط صواريخ التحالف على مبانيها؛ سقطت وتشظت كسفًا موجعة في كل بيت فقد تحولت المليشيا إلى قطيع مسعور يسوقه الانتقام من هذه الانتفاضة الهوائية.

داهمت عشرات المنازل واعتقلت المئات من منتسبي حزب الرئيس الراحل بعد تصفيته بتلك البشاعة؛ اعتقل المئات لمجرد الاشتباه؛ وازدحمت السجون مع أسوأ معاملة وهدر للكرامة. ضاعت حرمة البيوت بعد ابتكار جيش نسائي هن «الزينبيات» مهمتهن الفتك بالنساء في بيوتهن في ظاهرة لم يعهدها المجتمع اليمني المحافظ.

قتل ما يقرب من ألفي شخص شاركوا في انتفاضة هشة غلبتها انتفاشة مليشيا لا تقيم للعهد والتحالفات أي وزن. اللافت للانتباه في تلك الأيام السوداء هو غياب أي توثيق لاستباحة صنعاء ومنازلها بأي

شكل فقد تم حجب كل وسائل التواصل عن اليمن وعزلها عن العالم بذات النهج التي مارسها الأئمة قديمًا..

حتى الأرقام المهولة للقتلى تسربت قصص مروعة دون جثث أو مقابر أو جنائز.

قصص يرويها شهود عيان كيف داهمت المليشيا حتى المستشفيات وسحبت أجساد الجرحى من على أسرتهم إلى أماكن مجهولة.

زينب أحد الشهود على حقبة الفاجعة تلك؛ ممرضة تعيل طفليها وتنتظر زوجها المعتقل في سجون الحوثيين. في أحد الصباحات المروعة كانت زينب في مناوبتها للعناية بالمرضى والجرحى الذين امتلأ المشفى بهم من جنود وضباط الحرس العائلي لصالح أثناء مواجهاتهم مع الحوثيين.

هجم المسلحون على المشفى مع قيادي حوثي؛ كانوا يفتحون حجرات المرضى ويقتادون الجرحى من على أسرتهم حتى أولئك الذي في العناية المركزة وجراحهم تنزف أو الذين تقرر بتر أجزاء من أجسادهم. وقفت زينب في حجرة العناية المركزة للاهتمام بمرضى العمليات الجراحية؛ ترتجف كورقة في مهب الريح خوفًا من بطش المسلحين الذين علت أصوات صراخاتهم وهم يقومون بسحل الجرحى. أحد الضباط على سريره أبعد جهاز التنفس عن وجهه وهو يصيح:

_ أتوسل إليك لا تتركيهم يأخذوني؛ اقتليني أنت ولا تتركيهم يأخذوني» بكت لبكائه فهي أعجز من أن تساعده؛ طلب منها الماء فقالت له بشفقة:

_ شربك للماء سيقتلك لتوك خرجت من عملية جراحية؛ ستنتفخ بطنك وتتسبب بهلاكك» توسل إليها مرارًا كلما تعالت الأصوات خارجًا وهو يقول:

_ الموت بهذه الطريقة أشد رحمة مما ينتظرني. ناولته قنينة الماء فتجرعها كلها بسرعة. اقتحم المسلحون الحجرة وسحبوا الضابط أمام عينيها الذاهلة:

والضابط يصيح: « سأموت أيتها الممرضة أليس كذلك؛ ليقتلني الماء عوضًا عن الجحيم الذي ينتظرني» بكت بخوف فنهرها أحد المسلحين صارخًا:

_ ما بك يا امرأة؟ هذا أحد الخونة ومطلوب للعدالة.

ممرات المشفى اختلطت بالأنين والصراخ وأثر الدماء التي سالت من الجرحى في طريق الناس وهم يتجنبون المسلحين في غزوتهم ضد الجرحى العزل. كانت أيامًا حالكة استبيحت فيها صنعاء للسلب والقتل وليس الأمر بالجديد.

صنعاء تقفز إلى ما قبل ثورة السادس والعشرين من سبتمبر ووعد الزعيم صالح بأن يحول اليمن إلى أفغانستان أخرى تحقق فعلًا. فالجماعة التي تعهدها برعايته صارت غولًا تبتلع كل أثر للحياة في طريقها كالوباء.

هل له لون هذا الحزن؟

هل له طعم أو صوت أو رائحة؟

لماذا صار يشبه الماء في وطني؟

يمطر غزيرًا وتنفجر منه صخور القلوب.

«عفـــراء»

البرد يأتي من الداخل؛ لا علاقة للشتاء بالأمر؛ الشتاء كبقية الفصول كما أتى سيذهب. البرد يأتي من أعماقنا الفارغة؛ وهذه الرعشة التي تجتاح البدن بفعل ريح الخواء التي تجوب جنبات الروح المنطفئة بلا جمر الأمل أو توقد الهدف أو اشتعال الأحلام؛ بارد هذا القلب كشارع فارغ ذهب العابرون منه وبقيت الأرصفة مليئة بالوحشة. كمدينة عامرة كان هذا الداخل؛ فطاف عليه شبح الحرب فصار خرابًا.

يا لهذا البرد حين يأتي من الروح.. وقد صارت مكسورة الشق بلا دثار.

يا لبرد الذكريات فيك يا صنعاء بعد كل هذا الخراب والوحشة الممتدة في شوارعك الحزينة. أنا في صنعاء بعد غياب يزيد عن ثلاث سنوات عن مدينة طالما شعرت أنها نصف روحي الثاني كما هي عدن نصفها الأول؛ صنعاء ليست مدينة يا وحيد..

صنعاء هي اليمن؛ كل اليمن. لكنها أسيرة الآن وككل الأسيرات يستباح فيها كل شيء حتى الهواء الذي تتنفسه؛ وجوه الناس لم تعد هي؛ الحرب تصنع وجوهًا مختلفة للبشر لا تشبه وجوها صنعها الحب يومًا. أجوب شوارعها الخالية من رائحة الحياة والأمان كأني أبحث عن جزء مفقود من حياتي لا أدري كيف غيبته ثلاث سنوات فقط.

كل شيء بدا باهتًا في مدينة جميلة كللها سواد الإمامة بنسختها المطورة والأشد قتامة. وكأني لا أبحث فيها سوى عن رائحة لقاءتنا القليلة في مكتبك؛ عشاءنا الصامت الخجول ذات مساء في أحد المطاعم رغمًا عنك؛ وقبلتنا الوحيدة التي فرقت فينا أكثر مما جمعت بيننا من تنافر الأفكار.

أطوف مدينة الحب التي صارت مدينة السلاح والأشباح؛ رغم أن هناك احتقان غضب تنطلق شراراته في الهواء وتمتصه سياسة الرئيس السابق «صالح» كيلا ينفرط عليه زمام الأمر داخل مدينة كان يحركها بإشارة من إصبعه قبل أن يسلمها إلى مليشيا الحوثيين بيده. لكنه انفرط في مصادمات مباغتة من أجل الاستيلاء على جامع الصالح تلك التحفة المعمارية التي بناها تخليدًا لاسمه فانتزعته مليشيا الحوثي كسبب للإطاحة بحياته كلها. توترت صنعاء كلها مع زخات الرصاص وتوسعت الاشتباكات وشارك طيران التحالف في قصف أهداف كعادتها لا تصيب إلا الخطأ.

الرصاص الذي انهمر على جدران المنازل حاصر أسرًا كثيرة علقت داخل اشتباكات دموية بين المليشيا والقوات الموالية لصالح. أيام قليلة صيرت صنعاء مدينة منكوبة بحرب الشوارع والتصفيات.

كان علينا العودة إلى إب فصنعاء على فوهة بركان ومنزل الرئيس السابق محاصر مع بيوت أقاربه؛ عدت إلى إب بعد شهر في صنعاء بدا لي كعمر طويل من الذكريات والألم بدده فرح عودتك إلينا من غيبوبتك.

لم تواتني الشجاعة كي أزور عائلتك حين قررت العودة إلى عدن؛ خشيت أن تلتقط حاسة الأنثى في زوجتك هالة الحب التي تربطني بك وتسيرني إليك؛ ولا تقل إنها مبالغة.

كلا يا وحيد إن للحب تلك الهالة العجيبة التي يستشعرها أشخاص معنيون؛ ولا أظن أن هناك شخصًا معنيًّا بك كزوجتك؛ أشعر أني لو نطقت اسمك أمامها فستعرف أن حروف اسمك هي مدارات كوني كله.

سأترك إب وفي نفسي ذلك العجب منها ما كل ذلك السلام أو الاستسلام الذي فيها؛ كأن أحداث صنعاء الدامية لا تعنيها؟!! حتى مقتل الزعيم صالح الذي هتفت له جموع المدينة زمنًا طويلًا «بالروح بالدم نفديك يا علي..»

إب هذه كجمر دافئ تحت رماد الفساد وبيع الضمير جمرها يبعث الدفء والخدر في الأجساد ولا يحرقها فتشتعل ثورة ضد هذا

الرماد الثقيل. إذا كانت صنعاء أخت القبور فإب هي القبور بذاتها؛ لكنها قبر للجمال؛ بل هي قبر لكل شيء جميل.

في عودتي إلى عدن رافقتني صديقتي «أروى» وأولادها؛ أروى زميلة الدراسة وربيبة العمر؛ أولادها في مثل عمر أولادك يا وحيد ولو كنت أنا أنجبت من زواجي السابق لكان لي أولاد في مثل عمرهم.

لا أشعر بمدى مرور العمر وخسارات الحياة إلا حين أرى رفيقات الدراسة وصديقات العمر وقد قطعن أشواطًا كبيرة في الحياة وأنا التي أنتظرها وقد لا تأتي..

فرق كبير بين شخص يعيش بما تأتى له؛ وبين شخص ينتظر العيش الذي يريد؛ الأول عاش الحياة فعلًا والثاني سيموت قبل أن يعيش فهل سنلتقي أخيرًا يا حياتي التي أريد.

****

وصلنا مدخل مدينة عدن.

تم إيقافنا مع عشرات المسافرين الذين يتكاثرون مع مرور الوقت في نقطة «مصنع الحديد» على المدخل الشرقي للمدينة. قوات الحزام الأمني تخضع الجميع للتفتيش والتأكد من هوياتهم؛ سمحوا لي بالدخول وبقيت أنتظر السيارة التي تقل صديقتي وأولادها؛ كان الوقت مبكرًا فقد سافرنا عقب صلاة الفجر؛ إنه شهر ديسمبر قارس البرد في الجنوب ولا يحتمل في الشمال؛ لولا أحداث صنعاء الساخنة بالرصاص والانفجارات لماتوا بردًا قبل الموت. أما إب فقد تجمد

كل شيء بردًا حتى الرغبة في الثورة. كنت أعرف أن قوات الحزام الأمني تقوم بإيقاف الشماليين أثناء دخول عدن وتتعنت في معاملتهم دون أسباب واضحة؛ لكن ما يحدث مؤخرًا جعلني أشعر أنني على أحد معابر فلسطين وليس نقطة مرور داخل دولة واحدة.

تعرقل مرور صديقتي أروى وأولادها ساعات طويلة مرهقة في الشمس؛ البعض يردد تصريحًا لأحد المسؤولين بأن هناك أوامر من قوات التحالف يمنع دخول الشماليين إلى دولة الجنوب.. فهل التحالف أتى لإعادة الشرعية إلى البلاد أم لتحقيق الانفصال لم نعد نفهم!!

معابر الفرز والتصنيف التي تضيق الخناق على المسافر وتجزأ الوطن إلى أشلاء؛ تعثّره في حله وترحاله وكأنه عدو أو متسول لحقوقه.. إنه الشعور الأقسى من غربتك في بلاد الآخرين. صار الرعب أن تعيش فيه هكذا وطن مجزء؛ والخوف أن تبعد عنه قسرًا سياط ينخلع لها قلبك كل وقت.

ليست نقاط الحزام الأمني فقط من تهين الإنسان البسيط بالذات؛ هناك نقاط الحوثيين على كل الطرق المؤدية إلى مأرب؛ فهناك تتم تجارة البشر على أوسع نطاق ومن لم يفتدِ نفسه بمبالغ مالية يتعفن في السجون لفترات زمنية طويلة.

بعد محاولات مع رجال الأمن على معبر منطقة «الحديد» سمح للعائلات بالمرور والدخول إلى عدن نظير مبالغ مالية تافهة. وطوال الطريق وأروى تردد ببحة متشنجة:

_ الحمد لله.. الحمد لله. أنهم هنا يقبلون مبالغ صغيرة لن تصدقي يا عفراء ماذا يحدث في نقاط الحوثيين في الطريق إلى مأرب بالذات؛ إحدى قريباتي اعتقل ولدها في نقطة «أبو هاشم» الشهيرة في رداع؛ هناك يفرزون البشر كمواد للتجارة؛ بعد أن علموا أن والده مغترب في المملكة طلبوا من أسرته مبلغًا كبيرًا لإطلاقه إنهم يبتزون المغتربين بمبالغ مهولة ويوقفون الجميع بدون أسباب مقنعة؛ بل ويودعونهم سجن القلعة أو سجن الميدان لفترات زمنية طويلة حتى يطالب بهم أهاليهم. لا أظن أننا سنصل إلى حال أسوأ من هذا أبدًا. قلت لها:

_ منذ إقامة ما يسمى بالمجلس الانتقالي في عدن والأمور تزداد سوءًا؛ أيدٍ خفية تعيث فسادًا في هذه المدينة الساحرة؛ تغتال فيها خطباء المساجد وتقيم المعسكرات المتمردة ضد الشرعية. هناك ما هو أسوأ؛ صارت فكرة انفصال الجنوب شماعة اللصوص والخارجين على الدولة تساندهم مطامع في التحالف باتت معروفة للناس.

لن ينفصل الجنوب رغم تكراره أسطوانة الانفصال منذ الوحدة؛ ذلك لأن الانفصال ورقة بيد الفاشلين دائمًا؛ يلجأون لأسوأ أساليب التعبير عن رفضهم لوحدة صارت حقيقة وهم مزيفون.

يا لهذا الجنوب الذي عجز عن الانفصال مثلي!! وكم أشبه مدينتي.. أفكر بالانفصال والابتعاد عنك وكل ذرة في روحي هي جزء منك.

****

تتضح حجم المأساة بعد أن يعم الصمت وتنقطع أصوات المدافع حينها لملموا أشلاء هذا الوطن وادفنوه سريعًا.

(زينب)

في الثالث عشر من ديسمبر لعام ٢٠١٧ قصف مبنى الشرطة العسكرية بقرابة تسع غارات أسفرت عن مقتل العشرات من المعتقلين المختطفين الموجودين في سجن المبنى كدروع بشرية في منطقة عسكرية مستهدفة من طيران التحالف.

تم قصفهم بعد أن تم نقلهم من السجن المركزي وسجون أخرى لهذا الغرض.

وضع الحوثيون أكثر من ٢٤٠ معتقلًا عرضة للموت بأشنع الطرق؛ تركوا لتقتلهم طائرات التحالف. أكثر من ٢٤٠ معتقلًا انتظروا الموت برعب أصم؛ حاول الكثير الفرار وقت القصف لكن شهود عيان نقلوا أحداثًا تشبه الخيال عن مسلحي المليشيا الذين أعادوهم بالرصاص إلى داخل مدرسة الشرطية العسكرية كي يواجهوا الموت قصفًا. ليست المرة الأولى التي يضرب فيها التحالف المعتقلات التي أنشأها الحوثيون والتي جمعوا فيها مختطفين أغلبهم من كوادر حزب الإصلاح المعارض فمجزرة «هران» ليست ببعيدة. ولعل هذا يسمى العمل المشترك لتحقيق الهدف.

(محمد القطوي) نائب رئيس فرع الإصلاح في منطقة «بعدان» و»أمين الظبياني» مثالان صادمان لمآل من يعتقل بلا جرم سوى الانتماء أو القرابة لمنتمي؛ القطوي اختطف من قريته وأودع أحد معتقلات مدينة إب ليتنقل بعدها من معتقل إلى آخر حتى وصل أخيرًا إلى معتقل مدرسة الشرطة بانتظار التصفية ولتخضع جثته للاعتقال من جديد من أجل المقايضة بأسير حرب للمليشيا لدى الجيش الوطني.

«أمين الظبياني» كانت جريمته أن أخاه محمد الظبياني يعمل في قناة تليفزيونية معارضة للانقلاب؛ اختطف من مقر عمله وظل عامًا كاملًا تحت سياط التعذيب حتى قتل ضمن شهداء قصف المدرسة العسكرية.

سينسى الناس مشهد المذيع «محمد الظبياني» وهو يتلو نبأ مقتل أخيه ضمن شهداء القصف في نشرة أخبار يومية تعدد أوجاع اليمنيين؛ ستنسى دموعه حين نعى أخًا له آخر سبق أن استشهد في مقاومة الجيش الوطني في العام الفائت؛ ينسى البشر وذاكرة هذه الأرض لا تنسى؛ فهذا الموت الذي ابتكره شياطين المليشيا مختلف؛ يموت فيه المعتقلون مئات المرات وتموت أسرهم في المنازل خوفًا وهلعًا على أبنائهم كلما تجدد القصف على تلك المناطق المرصودة كأهداف عسكرية.

إنه الموت الذي تترقب فيه الموت حين يهبط باتفاق بين شياطين الأرض وطيران الأشقاء.

****

بعد أشهر طويلة أيامها الحزن ولياليها القلق وساعاتها الدموع وثوانيها الدعاء ستلتقي زينب زوجها أخيرًا من وراء السياج إنما لن تفصل روحهما قضبانهم أو طغيانهم.

أخيرًا وجدته بعد بحث طويل وآمال كلما رفعت سقفها هدمتها الأخبار الكاذبة والمعلومات الزائفة ومماطلات المليشيا التي لا تنتهي.

ما إن ميزت صوته قادمًا من بعيد حتى تلاشت معاناة تلك الشهور الطويلة؛ نسيت حين نزعها أهلها من بيتها في صنعاء وعادوا بها إلى ذمار محاولين إقناعها بالانفصال عن زوجها؛ نسيت ذلك الهلع الذي يعاني من تبعاته صغارها حتى اليوم؛ نسيت حتى ضيق الحياة بمجرد تردد صدى صوته فقط. يا الله.. هي لا تصدق!!!

هل هذا هو.. زوجها.. كأنه هو..

يقترب بطيئًا على ضربات قلبها المتسارعة، فوق بساط نظراتها الملتاعة والخائفة..

إنه هو.. من ينتفض لخطواته المتعثرة نبض قلبها حزنًا ومساندة.

لقد أخذوه ذات صباح من بين أطفاله بقوة السلاح وجبروت الطغاة؛ لم يراعوا بكاء طفليه وتشبثهما بساقي والدهما ولم يراعوا أنه مستسلم لإرادتهم دون مقاومة خوفًا على طفليه من فاجعة اختطافه أمام أعينهما بكل تلك الوحشية والهمجية.

لأشهر وهي تبحث عنه.

الآن ماذا تبقى من رفيق الدرب سوى بقايا محطمة؟!! يحاول الابتسام في وجهها عبر السياج والقضبان والإحباط والألم؛ همس بوجع وهو يرى عيونها الدامعة وصدمتها لرؤية هيئته المزرية:

_ أنا بخير يا زينب لا تحزني.. كيف أنت والأولاد؟

أجابته بفيض الدموع لعلها تكفي مشقة الحروف وتصف خوفها وألمها مما يلاقيه في سجون الاعتقال.. كل شيء فيه يقص حكاية تعذيب لا يحتمل هنا؛ جسده الذي تعرى من تمزيق الضرب لا تستره إلا الجراح؛ يرتدي دماءه فقط كسوة تيبست عطشًا للراحة من العذاب. نحل جسده وبهتت عيونه انتظارًا للفرج؛ وظمأت روحه للحرية فذوت عطشًا من وعود الشرعية والجلاد. همس بثقة محاولًا تخفيف صدمتها:

_ كفكفي دموعك من أجلي وتجلدي من أجل الصغار؛ سيفرجها الله؛ ثقتي به ليس لها حدود» ابتسمت برضا لكلماته المتفائلة؛ من أجل هذا اختارته بعد أن خيرها أهلها بينهم وبينه؛ تركت أهلها بعد أن رفضت إصرارهم على فكرة الطلاق منه وعادت إلى صنعاء وحيدة إلا من أملها أن تعثر عليه في أحد السجون وأن تعيّن محاميًا في محاولة لإخراجه. بحثت عن عمل تعيل به نفسها وطفليها في حياة لا يلتفت فيها أحد إلى هموم الآخرين لثقل الهموم التي طحنت البلد كله.

حاولت البحث عن أي عمل في المدارس الخاصة التي فتحت أبوابها فلم تجد من يقبل مؤهلها التعليمي كخريجة ثانوية عامة؛ لجأت إلى خبرتها في التمريض ووجدت أخيرًا عملًا في أحد المستشفيات كممرضة مناوبة وشعرت بنفسها محظوظة لهذا كثيرًا.

تحاول أن تبقى قريبة من زوجها بعد أن عرفت أنه في السجن المركزي في صنعاء حتى تستطيع متابعة أمر الإفراج عنه.

في كل زياراتها المتباعدة كانت تجتهد في حمل بعض الأكل والمستلزمات التي يحتاجها رغم أن إدخالها إليه في صعوبة إخراجه هو من المعتقل.

طالت فترة اعتقاله ولم يكف دخل عملها لمتطلبات الحياة وبدأت تبيع كل ما يملكان من أثاث البيت لم تعد في زياراتها اللاحقة تحمل له سوى القليل من الأكل؛ أصبحت تعاني وضعًا ماديًّا صعبًا يزداد كل يوم بؤسًا وترديًّا بلا سند أو معونة من قريب أو بعيد. طرقت كل الأبواب التي قد تمنحها أملًا بخروجه أو مساعدتها على البقاء قوية..

كل الأبواب تغلق إما عجزًا أو ازدحامًا بمن هم مثلها يبحثون عن مساندة؛ لم يعد هناك سوى باب الله لن يغلق في وجه دعاء المقهورين.

في آخر زيارة قامت بها زينب لزوجها أخبرها أنهم ربما ينقلونه من السجن المركزي إلى سجن آخر.. يحاول أن يوقد الأمل المنطفئ في عينيها حين تراه بحال مزري فيهمس:

_ ليس بعد هذه الشدة إلا الفرج.. ثقي برحمة الله.

وعادت إلى رحلة البحث عن مكان اعتقاله؛ علمت أنه تم نقله إلى سجن المدرسة العسكرية؛ فانقبض قلبها هلعًا لأن هذا المكان يعد منطقة عسكرية ضمن أهداف طيران التحالف لكنها تأملت بقرب الفرج. كان العمل في المشفى مرهقًا بدوام طوال اليوم لكنه أصبح

مرعبًا عقب أحداث الثاني من ديسمبر؛ حيث ازدحم المشفى بالجرحى والقتلى من جنود الحرس. وزاد في أوجاعها أنهم في معتقل المدرسة العسكرية يمنعون الزيارة عن أهالي المعتقلين؛ تبخر صمودها الذي كانت تستمده من رؤية زوجها صامدًا. ولم تعد تثق أن يأتي اليوم الذي يعود فيه إليها معافى.

في أوج الأحداث الدامية التي تلت الثاني من ديسمبر التي نشبت في صنعاء كانت موزعة بين القلق على أطفالها والخوف على زوجها وإرهاق عملها. تتجرع مرارة الصبر عسى أن يأتي اليوم الذي يعود فيه زوجها وتنتهي كل متاعبها بين يديه.

لم تكن تتخيل في أبشع كوابيسها أن تستدعيها سلطات المليشيا كي تعيد زوجها إلى البيت. إنما جثة هامدة بعد أن قصف التحالف معتقل سجن مدرسة الشرطة العسكرية والذي قتل فيه أكثر من أربعين معتقلًا.

****

عادت إلى ذمار إنما جثة بلا روح ككل الجثث التي تعود إلى هناك من جبهات القتال؛ عادت إلى «ذمار» مدينة المقابر التي تمتد حتى ابتلاع كل الأحياء.

عادت لتبكي حزنها مع مئات الأمهات والزوجات الباكيات الثكالى؛ الباحثات عن انتقام من عدو اخترعه «السيد» ليداري جريمته في إبادة أبناء ذمار في حروبه المقدسة ضد الحياة التي لا تقبل ولاية الموت والجهل والخراب.

ما أكثر الراحلين من هذه المدينة إلى جبهات سيد الكهف كي يعودوا جثثًا هامدة ثم لا ينتهون؛ في يوم واحد دفن عشرون قتيلًا أتوا بجثثهم من المعارك الدائرة في «بيحان»؛ وفي يوم واحد دفن أربعة من أسرة واحدة أخوة وأبناء عمومة.

لا يحظى كل مقاتلي جماعة الحوثي بقبر أو يهتم رفاقهم بانتشال جثثهم في مناطق الاشتباك؛ كثيرًا ما يترك أبناء القبائل للكلاب تنهش جثثهم في الجبال حين يعجز رفقاهم عن انتشالهم وتكون الأوامر بانتشال قتلى السلالة.

تقام الجنائز الفخمة لأبناء الهاشميين؛ حتى في الموت والدفن تحت التراب خلقت هذه الجماعة عنصرية بغيضة ستحرق شجرتهم المقدسة قبل أن ينتهي آخر اليمنيين البسطاء في أتون معاركها. صارت ذمار مقبرة كبيرة؛ لا يخلو أي بيت فيها من مأتم.

كم يتمنى قلب زينب المفجوع أن يتشفى أو أن تطلق الزغاريد كلما أقبلت جثثًا جديدة لمليشيا الجماعة؛ تريد أن تتشفى لمصارعهم لكنها ترى وجوه الأمهات الثكالى فيهدها التعاطف والحزن. كيف ستربي ولديها في هذه المدينة القائمة على فوهة الموت؟!!

وأين يمكنها أن تفر بهم كي لا يكبروا على مشاهد الدفن وتأليب الصغار للقتال؟

إنها من أسرة ولائها للسيد ومعارك السيد وولاية السيد؛ أخوها يمسح على رأس طفلها اليتيم مطالبًا إياه أن يكبر كي يذهب لقتال آل سعود!! تصيح به قائلة:

ـ بل يقاتل من اعتقلوا أبوه وكبلوه بالحبال كي يموت بقصف طائرات آل سعود.

ينظر إليها أخوها شزرًا وهو يقول للصبي:

ـ منذ متى يسمع الرجال كلام النساء؟!! ثم يضع عينيه في عيني طفل في العاشرة قائلًا:

ـ «لا ترد ظهرك لامرأة ولا تكنن تحت شجرة» لا تسمح لأمك التي غسل أبوك الداعشي دماغها ستجعلك أضحوكة بين الرجال؛ إذا لم تأخذ بثأر أبوك من آل سعود بقتالهم فأنت امرأة ابن امرأة فعلًا «

هكذا تستمر معاناة حياتها داخل أسرتها؛ وما تزرعه مساءً من فهم في عقلي ولديها يقتلعه أخوتها صباحًا حتى المساء. أين تذهب وهي «المكلف» العاجزة عن مجابهة الحياة بلا محرم وعائل؛ أين تذهب بطفلين يحتاجان إلى غذاء وكساء وإلى معيشة طبيعية بعيدًا عن التشرد والتسول؟!

لقد ماتت همتها في مجابهة الحياة حين قتل زوجها؛ كانت تستمد قوتها من صموده في زنازين الاعتقال والتعذيب؛ الآن هي عاجزة حتى عن الصياح في وجه أخوتها أن يتركوها كي تربي أطفالها بطريقة تحفظ إنسانيتهم. فكرت أن تهرب بهم.. لكن إلى أين؟!! إلى الضياع. لقد عايشت في حياتها قصصًا مخفية عن الرصد أثارت رعبها؛ عن نساء اضطرتهن الحياة إلى منح الجنس مقابل الغذاء؛ ممارسة الدعارة بدعوى الفقر والحاجة. زميلتها في مهنة التمريض «سالية» قصت عليها حكايات نساء لجأن إليها من أجل الحصول على موانع حمل خشية الافتضاح؛ لم تنس قصة تلك المرأة التي أتت إلى «سالية» راغبة

في الإجهاض بعد تورطها بحمل غير شرعي؛ تذكر ذلك اليوم المروع حين اقتحمت عليها «سالية» حجرة التمريض الفارغة وهي ترتجف وترتمي أرضًا كصخرة ثقيلة وهي تهذي لنفسها:

_ ماتت المرأة.. لم يحتمل جسدها الضعيف كل ذلك النزيف؛ الأمر ليس بيدي.

اقتربت منها زينب وجلست أرضًا قربها وهي تتأمل ملامحها الذاهلة هاتفة بقلق:

_ من هي يا سالية التي ماتت؟

رفعت سالية نظراتها المصدومة وكأنما أدركت لتوها أنها ليست في الحجرة لوحدها فقالت بصدمة أكبر: «امرأة لا أعرفها؛ أتت إلى وهي تنزف.. كانت قد أجهضت.

_ هل تعرفينها؟ كثيرًا ما تموت النساء في حجرات الولادة فما بك؟ لماذا تبدين ملتاعة هكذا؟ ليست مشكلتك أنه قدرها وسيتفهم زوجها ذلك.

ردت سالية بهدوء وقد استجمعت رباطة جأشها: ليس لها زوج.

شهقت زينب برعب هذه المرة وهي تقول بخوف: أليس معها أحد؟ كيف أتت ومن قام بإجهاضها؟ أنت يا سالية؟

أومأت سالية باستسلام: أنا أحاول مساعدتهن فقط؛ شفقة بهن أن يجتمع فقر وفضيحة؛ لقد أتت معها رفيقتها فيما يقمن به؛ سيتدبرن

الأمر.. المهم أن نتعاون في إخراج جثتها دون أن يعلم أحد. صرخت زينب بهلع:

_ نتعاون؟!! من تقصدين بنتعاون؟!! لا علاقة لي بهذا الأمر أبدًا.

انتصبت «سالية» كوتد وهي تقبض على ساعد زينب النحيل هامسة بصوت خفيض:

_ لا علاقة لك فعلا؛ لكنك عرفت بالمصادفة فلا تفشي سري هنا.

بعد تلك الحادثة أصبحت «سالية» ترى في زينب كرسي اعترافاتها ففي كل مناوبة ليلية تحكي لها مزيدًا من القصص الخفية في مجتمع ينزلق إلى قبح الفقر والحاجة.

لعل تركها لعملها في المشفى بعد مقتل زوجها نقطة بيضاء في أيامها الحالكة؛ كم كرهت كل تلك القصص السوداء المؤلمة التي تناقض قصص البطولات الشامخة خلف أسوار المعتقلات؛ كم كرهت أن يحدث هذا لنساء كان يمكن أن يعشن عفيفات فاخترن طريق الرذيلة وكان الموت جوعًا أشرف الطرق كلها.

لقد كان الاعتقال الحقيقي لمن هم خارج أسوار السجون؛ فالسجن الحقيقي هو سجن الروح بفكرة سيئة تقضي على إنسانية البشر. لقد فضلت أن تبقى بين أخوتها على وحشيتهم عوضًا أن تقذف بها الحياة إلى وحوش ينتهكون شرفها قبل حريتها.

****

في أحد صباحات أواخر يناير ومن مدرسة قريبة كان صوت مندوبة الحوثيين يأتي رخيمًا ومؤثرًا وهي تقول للتلاميذ المتسمرين بردًا وإنصاتًا:

_ ستكون كلمة اليوم عن العدوان السعودي الظالم ضد وطننا الآمن.

واندفعت بفصاحة تحكي ماذا صنع العدوان من دمار لهذا البلد الذي كان يعيش في رخاء وسلام قبل إقدام الجارات على الفتك بسلامه وأمنه؛ وتشيد بثناء باذخ تضحيات الجيش واللجان الشعبية بقيادة السيد للدفاع المستميت عن الوطن.

وضعت زينب كوب القهوة من يدها لا تدري أين استقر؛ كانت تتخيل نفسها معلمة في مدرسة تزورها مندوبة كهذه تقلب حقائق الواقع في عقول الصغار بمجرفة الكذب والتباكي الزائف. أيقنت أنها لا تلوم كل تلك الرؤوس الكبيرة من المثقفين التي زارها «الصماد» ليمرغ جمهوريتها في وحل الإمامة؛ إنه ذل الضعف أمام جبروت الهمجية والسلاح. هو انكسار السنابل المثمرة أمام آلة حصد وهرس صماء لا تعقل أو تفهم.

لا يتألم المشاهد لحال تلك الرؤوس التي امتلأت بفهم الواقع ومتغيراته وعرفت الحقائق والتدليس عليها فصمتت مؤمنة بقوة الخوف أو معتنقة أضعف الإيمان وهو احتجاج القلب. ما يؤلم حقًا هي تلك الرؤوس الصغيرة البريئة التي تقف في البرد تلملم على أجسادها ثيابًا لا تقي البرد لتفتح عقولًا لا تملك الوعي الكافي بما يلقى إليها من حقائق كاذبة هي أشد وطأة من برد الشتاء في صباحات غابت عنها الشمس.

هل سيزيف الحوثيون التاريخ؟!! تساءلت زينب بحزن لتجيب على نفسها: بالطبع فالتاريخ يكتبه الأشد وقاحة والأكثر مقدرة على الكذب. وكل هؤلاء الصغار سيكبرون ويتحدثون عن العدوان السعودي وحلفائه على اليمن الآمن..

لكنهم لن يعرفوا مع كمية التعبئة الخاطئة الكاذبة التي يتربون عليها أن هذا العدوان أتى في عملية إنقاذ عاصفة لما تبقى من اليمن بعد أن اجتاحتها مليشيا الحوثيين كطوفان يأكل الأخضر واليابس؛ الجمادات والأحياء. وما نتج عن هذا الإنقاذ العابث من دمار واحتلال لأجزاء من هذا الوطن هو نتيجة لما قام به الحوثيون من خطف وتدمير للبلاد ومقدراتها. زفرت بضيق:

ـ نحن بكل بساطة أمام قصة مضحكة مبكية تقول إن لصوص الوطن هم حماة الوطن؛ في حين انقلب حماة الوطن إلى مرتزقة وعملاء. وهكذا يكتب التاريخ في عقول الصغار في مدارس يؤججها الجوع والجهل وتحتاج إلى مشجب تتجه إليه أصابع الاتهام بقسوة هذا الحال. إنهم أطفال يقاسون ضراوة العيش؛ ومشاهد شقائهم ارتبطت بطيران العدوان؛ جوعهم ومرضهم وإغلاق مدارسهم وبؤس معلميهم كل شيء يشير إلى العدوان؛ هكذا يطبعه الحوثيون في الأذهان. إنه العدوان على التاريخ؛ العدوان على الحقيقة.. العدوان على وعي أبنائنا.. أي عدوان أكثر من هذا يمكنه أن يحدث علينا وعلى عقول أبنائنا!

وإن تجزأت روحي قطعًا صغيرة؛

يظل حبك جامعًا لأجزاء روحي..

(وحيـــــد)

لم تكن مصادفة أن تقررت عودة «وحيد» و»شائف» إلى مأرب اليمن في أول أيام عام ٢٠١٨ شائف العقلاني بمثالية كبيرة لا يخلو من مسحة عاطفية خيالية في تفكيره قال باسمًا وهما يستقران في حافلة النقل الجماعي لرحلة العودة:

_ يوم هو الأول من أول شهر لهذا العام تاريخ ميلاد جديد لك يا وحيد؛ أنت الآن وحيد جديد لعمر جديد أليست هذه عبارتك القديمة؟ كل عام وأنت روح الوطن وصوت الناس كما عهدتك يا صديقي» التفت وحيد إليه وأحاط كتفه بذراعه وهو يقول بتأثر:

_ الفضل يعود إليك يا شائف؛ هذه البداية على يديك أنت أيها الطيب.

ربت شائف على فخذ وحيد برفق وهو يقول:

_ ما كنت لأفعل أكثر مما كنت لتفعله أنت يا وحيد؛ نحن أصدقاء فكيف نتخلى عن بعضنا في الملمات. غامت عينا وحيد وابتسامته تتسع لخيالات الأمل..

«ها قد عاد الحلم كبرعم نبت على شجرة اجتاحتها عاصفة؛ عاد حلم الوطن الذي تتمناه وتسعى إليه كل عمرك يا وحيد؛ أنت في الطريق من جديد إلى مأرب؛ وهذه المرة أنت تسند جسدك إلى رفيق الكفاح صاحب القلب النقي شائف؛ ستكونان معًا تشقان طريقًا لهذا الحلم بلا حوادث طريق موجعة »

تنهد وحيد بسعادة وهو يتخيل وجوه أطفاله الذين ينتظرونه هناك في مملكة سبأ «مأرب» التي اكتظت بعشاق الحرية والجمهورية..

مأرب التي تقاطر إليها كل المقهورين كجزيرة ناجية من غرق؛ حتى أولئك الذين شيطنوها قدم الكثير منهم إليها فرارًا من بطش مليشيا الحوثية بعد مقتل الزعيم والتنكيل بهم بعد أحداث الثاني من ديسمبر. مأرب التي ظلت في عيون البعض صحراء وأهلها بدو يقطعون خطوط الكهرباء والغاز ويخطفون السياح صارت جزيرة النجاة لهذا الوطن. تزدهر بالعمران وبناء المرافق التي تزداد كل يوم؛ جاء اليوم الذي تشرب فيه مأرب الكابيتشينو.. وتعيد حضارة الأجداد. الآن هي الأمل ونواة البناء للمستقبل..

مأرب اكتظت فجأة بما يقارب اثنين مليون نازح استوطنوها على شحة من الإمكانات جعلها هذا كعنقاء استيقظت وفردت جناحيها بين رمال الصحراء.

يزداد البناء كل يوم؛ وتتفرع الشوارع كشرايين في جسدها الفتي القوي؛ تكبر في قلوب اليمنيين كما يكبر حلم الدولة الحرة.

لأيام قلائل تذوق وحيد معنى العودة إلى حضن وطن آمن؛ فيه أهله وأولاده وأحبائه ورفاق كثر تقاطروا إلى منزله للسلام عليه وزيارته وتهنئته بعودته معافى إلى حيث اختار وتمنى. كلما أقبل عليه صديق قديم امتلأت روحه بالسعادة لكونه هنا بخير. لقد أصابه اليأس زمنًا طويلًا لكثرة ما رحل من الرفاق بين شريد وقتيل ومعتقل.

لكثرة الفقد من حوله صار يحصي تلك الأشياء؛ الأشخاص؛ الأماكن التي يخشى فقدها وليست تلك الأشياء التي فقدها.

نحن كبشر نشعر بالرضا والسعادة لما تبقى فكل شيء نفقده بفعل القدر لا نملك حياله إلا الرضا سلاحًا نشهره في وجه اليأس والقنوط. في أحد صباحات الرضا تلك طرق الشيخ «قاسم» منزل وحيد. كان الشيخ قاسم قد أتى مأرب قبل شهر فقط من عودة «وحيد» وسأل عن الصحفي «وحيد الأمير» وعلم بالحادث الذي وقع له وهو في طريقه إلى مأرب؛ لقد كان يصادف توقيت مقتل صديقه «أحمد النويرة»

ما إن استقر به المكان في حجرة الضيوف المتواضعة حتى ابتدر «وحيد» قائلًا بثبات وكأنه يزيح جبل من على صدره:

_ أتيتك أحمل أمانة ووصية من صديق لك.. «أحمد النويرة» كنا في معتقل واحد.

هوت الكلمات على قلب «وحيد» كتيار صقيع وانقبضت أنفاسه خوفًا وترقبًا؛ لم يجرؤ حتى على السؤال: كيف أحمد؟ استطرد الشيخ قاسم بحزن يفيض من كلماته:

_ للأسف يا أستاذ وحيد لقد استشهد أحمد؛ قتل تحت التعذيب

قبل شهور؛ تقريبًا في توقيت الحادث الذي حصل لك يا بني.. عذبوه أكثر مما يحتمل بشر؛ وأخذوا جثته لا نعلم إلى أين؟ لقد أفرجوا عني ذلك اليوم الذي صلينا عليه غيابًا بعد أن نزعوا جثته من بين أيدينا؛ قبل أن يموت بين يدي حملني أمانة لك وهي أن تكفل طفليه «رهف» و«رعد» هما في ريف تعز كما أخبرنا.

صمت الشيخ قاسم في رثاء لمشهد «وحيد» وقد أسند فمه إلى قبضته المتكورة يكتم شهقات يزفرها بأسى بالغ؛ تبخرت سعادة وحيد الوهمية كلا شيء..

خضبت دموعه لحيته الخفيفة وسالت على قبضته المضمومة بقوة بين شفتيه المرتعشة؛ لقد سأل كثيرًا عن مصير «أحمد النويرة» وقيل له إنه موجود في سجن «هبرة» صاحب الصيت السيئ؛ وأن هناك وساطات لتبادل أسرى للمليشيا لدى الجيش الوطني بمعتقلين مدنيين يكون هو ضمنهم.

كان يتمنى أن يأتي اليوم الذي يحرر فيه أحمد من اعتقاله ويلحق بأسرته إلى هنا.

_ يا الله.. كنت تزورني كثيرًا في غيابي عن الوعي يا أحمد تقطر ياقوتًا أحمر وتخبرني أنك ستسبقني. لقد خذلتك يا صديقي.. تركتك وفررت؛ وبقيت كي تواجههم وحدك.

انتزعوك من أسرتك وطفليك؛ بل منا جميعًا فأي يتم هو يتم قلبي؟!!

أولادك هم أولادي يا صديقي.. نم قرير العين يا أحمد؛ سأفضلهم على أولادي ما بقيت حيًّا وبعد مماتي.

****

في مأرب بدأت الصحافة الورقية تعود على استحياء بعد أن عملت المليشيا على قمعها وإنهائها في العاصمة صنعاء فيما عدا صحفها التي تعبر عن فكرها الكهنوتي.

كانت الصحف قادمة من «عدن» العاصمة المؤقتة للوطن بجوار صحيفة السادس والعشرين من سبتمبر الصادرة عن الجيش.

وبإيحاء من شائف مستفيدًا من علاقاته الكثيرة وحافظ وإخلاصه المتفاني من أجل قضية الصحافة المستقلة بدأت الفكرة تراود وحيد في صحيفة وطنية مستقلة وموقع إخباري يسعى إلى حرية الكلمة والرأي صحيفة تخدم الناس البسطاء تلك الفئة التي يستغلها الحكام والنافذون دائمًا؛ الفئة التي يضيع صوتها بين أصوات القوة والنفوذ.

طرح الفكرة على شائف قائلًا: إما أن تشجعني أو تصرف الفكرة عني فثقة الناس في الصحافة والأخبار صارت كثقة الشعب بكل سلطة؛ الكذب فيها أكثر من الصدق.

ابتسم شائف قائلًا: يجب أن تثق أنت أولًا فيما ستقوله وتكتبه للناس؛ فهم لا يريدون تفاؤلًا كاذبًا أو قراءة مسكنات عقلية؛ ولا يريدون تحطيمًا فهم محطمون فعلًا؛ حتى الوعي يا صديقي لا يباع أو يلقن؛ برأيي كل من يريد أن يفهم سيفهم؛ وكل من يريد أن يعي فسيسعى لوعي صحيح؛ الوعي أصبح مشاعًا إلا أن العقول تغلق دونه.

واستدرك ضاحكًا: مع ذلك ففكرة صحيفة ورقية أمر مطلوب بعد أن انقرضت الصحف. سنقوم بالبحث عن مقر لهذه الصحيفة فشحة المباني هنا مخيفة؛ وإيجاراتها لهذا السبب مرتفعة؛ لكننا

سنوفره وسيكون ذا فائدة؛ سيكون مشروعًا للوافدين من الإعلاميين الذين يصلون هنا دون مأوى.

_ كنت أعرف أنك لن تبخل عليّ بالتشجيع يا صديقي؛ ستكون الصحيفة الورقية إضافة جيدة تذكرنا بالزمن الأقل قبحًا. انضم وحيد لمنتدى مأرب الإعلامي وزاول نشاطه كصحفي وكاتب من جديد يعلم يقينًا أن الكلمات التي تكتب في لحظة صدق هي من تصنع المواقف؛ فرب كلمة تقال تنزع ألف ستر؛ وتشق ألف سبيل.

الكلمة سلاح لا يقل ضراوة عن الرصاص والكاتيوشا؛ ويجب أن توجه نحو الفساد والباطل حيث كان؛ الكلمات ميزان آخر للعدل يقام بها إن انحرف عن الطريق.

في أحد صباحات مأرب المحملة بالغبار كان «وحيد» و «حافظ» في طريقهما إلى لقاء «شائف» في فعالية احتجاجية تندد باستمرار اعتقال الصحفيين للسنة الثالثة على التوالي من قبل المليشيا في المناطق الخاضعة لها دعت إليها منظمة الإعلاميين اليمنيين «صدى».

لا يؤمن وحيد بجدوى مثل هذه الفعاليات الاحتجاجية التي لا تتجاوز صدور فاعليها وهتافاتهم اليائسة؛ لكن الألم المكبوت في صدره من أحداث عدن الأخيرة؛ ذلك الشعور المرّ بضياع الوطن مرة تلو مرة جعله يهرب من ضيقه بأي نشاط لا يتركه فريسة للأخبار المتلاحقة.

حتى اتصالاته للاطمئنان على عفراء اكتفى منها بالألم في صوتها والذي جعله ينصرف عن الحديث معها مطمئنًا أنها بعيدة عن

الاشتباكات التي حدثت بين معسكر الحماية الرئاسية وقوات الحزام الأمني في عمل أقرب إلى محاولة انقلاب أخرى.

تؤلمه شكواها من رعونة أخيها خلال الأحداث وحماسته لدولة الجنوب العربي التي يجب أن تنعم بالاستقلال على حد زعمه؛ تشكو من مناكداته لها رغم أنها في سكن منفصل هي ووالدتها المريضة إلا أنه يصر على التنكيد عليها وقت زياراته لمعرفته بتمسكها بالوحدة قلبًا ووطنًا. حينها ضحك وحيد قائلًا بإحباط:

_ هل يعني هذا أن أخاك الجنوبي لن يقبل لأخته الجميلة «دحباشي»؟

بادلته عفراء الضحك قائلة بعناد:

_ يكفي مرة واحدة لم يكن لي خيار في حياتي؛ أظنني كبرت على هذا الضعف.

_ كذلك كبرت عدن يا عفراء وازدادت أهمية لمن حولها فطمع بها القريب قبل البعيد.

_ تلك عدن يا وحيد.. تشبه النساء المدن لكنهن لسن مدنًا أيضًا.

في حصاد آخر أيام شهر يناير لعام ٢٠١٨ تعز مشتعلة لليوم السادس في انتفاضة جديدة أطلقها المحافظ الجديد من أجل التحرير لكنها كالعادة غير متكافئة؛ شباب يقاتلون حفاة عراة من السلاح في مواجهة دبابات وأسلحة ثقيلة.

مواجهات حامية يتساقط خلالها الشباب كالزهور في معصرة

الحرب ليفوح عطر الورد على شواهد قبورهم دون أن تحاول قوات التحالف مساندتهم بالسلاح أو العتاد.

وفي عدن يقوم طيران التحالف بقصف معسكر قائد اللواء الرابع «مهران القباطي» الذي انحاز للوطن ونادي بدولة المؤسسات رافضًا سلطة مليشيا الحزام الأمني ومنتقدًا أطراف في التحالف بالتآمر على الشرعية.

المجلس الانتقالي يطالب بانفصال الجنوب عن الشمال ويرفض وجود الدولة في عدن ممثلة برئيس الوزراء «بن دغر» وفي ذات الوقت يدّعون وقوفهم مع قوات التحالف التي لم يعد اليمنيون يثقون هل أتت لدعم الشرعية أم لدحرها؟!!

جيش آخر يعدّ لقتال الحوثيين في معسكر العند بقيادة «طارق عفاش» ومع ذلك يشارك في ضرب الشرعية في عدن. الوضع في اليمن كالعادة إما ضحك على العقول أو امتهان للذقون..

وإنسان الشارع البسيط أصبح يعرف ما يحاك خلف كواليس التصريحات السياسية ويميز عدوه بسهولة. قال حافظ بحسرة وهما يغادران مكان الوقفة الاحتجاجية:

_ لا تظن أن حلم الدولة المدنية الحرة هنا في مأرب نقيًّا من الشوائب يا أستاذ وحيد؛ الشرعية مثقلة بزوائد فساد حملتها على ظهرها حين اجتمع تحت رايتها كثير من الفاسدين؛ إنهم يعكرون حتى الهواء بأنفاس مصالحهم التي تخنق الفقراء وجرحى الحرب؛ يأكلون من لحوم الجرحى المتعفنة التي لم تجد لها علاجًا أو اهتمامًا؛

يشربون من دموع الأمهات اللاتي يهبن أبناءهن للقتال من أجل الوطن فيتقاسمون خيراته مناصب وتعيينات ومستحقات يتوارثها الأبناء عن الآباء؛ ما زلنا تحت بند التوريث الذي خرجنا ضده في ١١ فبراير. ما زلنا أداة فقط وأولئك الذين صدعوا رؤوسنا إبان حكم صالح وأباحوا الدولة للمليشيا لحقوا بالشرعية ليتزعموا بعد أن لفظتهم المليشيا وطاردتهم كخونة. ما زالت الحظوة لهؤلاء الأوغاد ليكونوا في سنام الأمر الذي يقوم على أكتاف الشرفاء. هل ترى تبجح ذلك الحقير «صفوان الكامل» أثناء الوقفة الاحتجاجية؟ ليس سوى شخص ناقص حارب شرعية الدولة وأباح دماء المعتقلين بدعوى مساندة التحالف لقد استمات في خدمة زعيمه ومن تحالف معهم ضد هؤلاء الناس الذين استقبلوه هاربًا إليهم الآن.

ابتسم وحيد وهو يتذكر عدوه اللدود الصحفي صفوان الكامل كم يكره ابتسامته اللزجة التي لا تفارق فمه؛ ابتسامة لئيمة تخفي الكثير رغم انفراج شفتيه المرتخية:

_ هذا الحال متوقع يا حافظ نحن لا نخلق هنا مدينة أفلاطونية وأيضًا لن نقبل بمستنقع فساد آخر؛ علينا ألا نصمت فقط؛ فقد صمتنا ثلاثًا وثلاثين عامًا حتى صار الفساد المالي والإداري نظامًا وقانونًا ويجب ألا يفسد مستقبلنا كما دمر ماضينا وحاضرنا. كنا نعيش سوء الحال؛ نربي أحلامنا كأطفالنا بحنان فائض وخوف حريص؛ تطير من صدورنا وتقع في أيديهم حقيقة يجنون ثمارها ونحن نعقّل طيشنا كي لا نثور؛ لا قيمة لأبناء البسطاء إنهم عصي هشة تحطمها أقدام أصحاب النفوذ والمال.

الثورة فقط جمعت العصي الهشة لتكون عصًا غليظة تربي سارقي

أحلام البسطاء. والنقد والتقويم أداة الحفاظ على أي إنجاز للحرية.

في مقابل قيامة مأرب نرى اختلاس جزر سقطرى التي هي قطعة من روح الوطن نهشها الإهمال والفساد زمنًا طويلًا في عهد «صالح»؛ فارتمت كارهة أو راضية في أيدٍ غير أمينة على كنوزها ومكنونها؛ أيدٍ جاءت كي تنقذ فسرقت ما في جيوب الضحية واحتلت جسدها عنوة. عدن يتصدع فيها الأمان بانقلاب موازٍ لانقلاب صنعاء؛ ما تشهده هذه الأيام من معارك بين الحرس الرئاسي وجيش المجلس الانتقالي المتمرد لا يخرج عن كونه انقلابًا على الشرعية ممن يدعي دعمها ليقصف معسكراتها بطائراته.

****

التقى «وحيد» «بسماح» في المدينة التي ضمت رفات «عمار» حلمها الراحل؛ ذهب لزيارتها بعد أن علم بأمر منظمة الطفولة التي تديرها؛ هتفت ببشاشة ما إن رأته:

_ مرحبًا بك في مأرب بيتك الكبير يا وحيد.. وحمد لله على سلامتك.

سماح لم تزدد سوى غطاء للرأس ونظارة صغيرة يحملها أنفها الدقيق؛ ابتسامتها الحزينة آخر ما شاهده فيها ما زالت كما هي كأنما التصقت بشفتيها منذ استشهاد «عمار»؛ يبدو زمنًا طويلًا ذلك الذي يفصل وحيد عن صديقه الفنان؛ رحيل عمار أخذ الكثير من هذه المرأة التي تقف أمامه أشد نحولًا وصرامة.

قابل وحيد في مأرب كل الرفاق الذين سبقوه منذ اجتياح صنعاء؛

حتى أولئك الذين استشهدوا أرواحهم هنا وصورهم التي تنحني لها القلوب تقديرًا؛ هتف بفرح:

_ مرحبًا بالعزيزة سماح.. وشكرًا لمأرب التي جعلتك تتفتحين كزهرة يفوح عبقها بذلًا وعطاء في مناهضة قضية مهمة كتجنيد الأطفال وصغار السن.

ابتسمت بحزن وهي تقول ضاحكة: سعيدة برؤيتك مجددًا يا وحيد؛ ليتك لم تفسد فرحتي برؤيتك بالحديث حول هذا. عاد الأسى ليرتسم على ملامحها وهي تقول:

_ ليست قضية يا وحيد؛ إنها مأساة وطن مخيفة.. شيء لا يصدق أن يحدث هذا في زمن ينادى بحق الحيوان ولا يعرف حقًا للطفولة؛ لن تتخيل يا صديقي حجم الكارثة؛ ولكي تتخيل هول الجريمة. لك أن تعرف أن خمسين طالبًا حتى الآن من مدرسة واحدة هي مدرسة «العلم والإيمان» في منطقة «بني حشيش» صنعاء قتلوا في المعارك بعد أن تم تجنيدهم والزج بهم في أتون حرب لا تشبه ألعابهم الطفولية أبدًا..

لدي طفل هنا يسمى «حاتم» أصيب بصدمة عصبية بعد أن اختطفه عاقل الحارة وأهداه لمشرف حوثي؛ ما زلت عاجزة عن تسليمه لأهله بسبب حالته؛ هكذا يجمعون الأطفال من مدارسهم ومن الشوارع حيث يلعبون. يقومون بإغراء أهاليهم بمبلغ تافه أو بسلة غذائية؛ أو حتى ألقاب تسخر منها العقول ومن قائليها.

كنا نتباكى على الأطفال في عهد «صالح» حين يتسربون من

مدارسهم لطلب الرزق كما تتسرب الدماء من جسدٍ جريح؛ وكنا نخاف أن يلفظ جسد الوطن حياة العلم والوعي بتسربهم في سن مبكرة نحو الجهل من أجل الرزق. الآن صاروا هم جرح المستقبل النازف نحو العدم. لم يسلم حتى الأيتام الذين فقدوا الأب والعائل فمنحهم السيد رحمة الموت السهل بدلًا من التعليم أو لقمة العيش!! هكذا تربت الرصاصة على رأس اليتيم!!

مليشيا الحوثي لا تصنع أيتامًا فقط؛ إنها تحمل حتى الأيتام إلى الموت في الحرب.

نحاول في المنظمة تأهيل هؤلاء الأطفال نفسيًّا وعقليًّا كي يكونوا أطفالًا بعد أن حولتهم المليشيا إلى وحوش ضعيفة افترستها الحرب والخوف.

ابتسمت بحرج وهي تنهي كلامها بتنهيدة طويلة قائلة:

_ أخشى أنك لن تكرر زيارتك إلينا بعد هذا الحزن المرتسم على وجهك.

هز وحيد رأسه نفيًا وهو يقول: بلى يا سماح سنأتي إلى هنا كثيرًا أنا أو حافظ فقصص هؤلاء الأطفال يجب أن توثق وتنشر في الإعلام أيضًا.

****

يا شاطئ الأمنيات..

كل غريق بعرض البحر

وغرقـي أنا على الشـاطئ..

(اللقـــــاء)

وحيد في الطريق إلى عدن بعد أن عاد الهدوء إليها كرماد يحجب جمرًا مشتعلاً بالفتنة؛ ذاهب إلى حيث الدفء مرتين شمس هذه المدينة وعفراء..

من أجل رحلة الحلم هذه تنصل عن مرافقة شائف إلى مناطق الجبهات لزيارتها بغرض عمل إعلامي له في حين ذهب شائف بغرض التوجيه المعنوي في الجبهة.

أغمض وحيد عينيه طوال الرحلة كي لا يرى رمال الصحراء تحف جانبي السيارة.

يخشى أن تقفز إلى ذاكرته ذكرى آخر لقاء لجسده بهذه الرمال حين صنع منها حفرة تتسع له كقبر في حادث السيارة. يريد أن تكون ذاكرته نقية من الوجع كي تتسع لجمال لقائه بعفراء بعد غياب سنوات كانا فيها أقرب ما يكون رغم أنف البعد.

حرص ألا يخبرها بقدومه إلا وساعات فقط تفصلها عنه؛ يدرك

كيف يمر الوقت في الانتظار إنه تقريبًا لا يمر؛ واقفًا على القلب كالصخور.

وصلت السيارة إلى الفندق؛ صعد إلى غرفته وكل عرق فيه ينبض بلهفة؛ هاتف عفراء بوصوله وأخبرها أنه قادم خلال ساعة فقط؛ استبدل ثيابه على عجل وخرج مسرعًا إلى حيث أخبرها أن تنتظره..

كورنيش ساحل أبين في المساء أكثر ما علق في ذهن وحيد؛ الأمواج البيضاء تدفع نفسها بتراخ إلى الشاطئ؛ ورمال الشاطئ السوداء تضم الموج بصدر مفتوح وتفلّتها بتكاسل.. هناك رأها جالسة على أحد المقاعد المنتشرة على طول الكورنيش أمام ذلك المقهى الوحيد الذي تذكر اسمه ليكون مكانًا للقاء.

****

ما إن هاتفها وحيد أنه في الطريق إليها حتى غادرتها السكينة وانتفضت روحها شوقًا..

أحقًا لن يبخل عليها القدر برؤيته أمامها حقيقة وليس أحلام يقظة!! وقفت في حجرتها تفكر ماذا ترتدي وكيف تتصرف دون أن يفضحها جنونها به؟ تحادث نفسها كطفلة في العاشرة: كوني هادئة.. عاقلة ما استطعت أرجوك يا أنا..

أطلت والدتها من باب الحجرة مندهشة من حالة الانتعاش التي انتابت ابنتها قائلة:

ـ هل هناك شيء يا عفرائي؟ هل ستخرجين هذا المساء؟ رمت

عفراء ما بيدها وألقت بنفسها في حضن أمها في عناق خاطف قائلة: نعم يا أمي لدي مقابلة مهمة ولن أتأخر كالعادة. ارتدت البالطو المفضل لديها مع غطاء رأس باللون الأزرق الغامق؛ تحب كثيرًا أن ترتبط ثيابها التي تحب بأجمل ذكرى ستحدث لها في كل العمر.

وصلت مبكرة تدفعها اللهفة إلى القدوم.. مبكرة لأول مرة في حياتها فهذا هو الحدث الذي تأخر كثيرًا أتت إليه مسرعة تتمنى لو أن كل عمرها هو هذه اللحظات فقط؛ لقد هاتفها وحيد قبل ساعة فقط أنه وصل إلى الفندق وأنه في طريقه إليها؛ لكن انتظاره ساعات لا شيء مقابل سنوات وشهور تحلم بهذا اللقاء.

جلست على مقعد أمام ذلك المقهى الذي ذكره لها بحيث يتيح لها مكانها النظر إلى كل الجهات التي قد تشرق منها شمس قلبها في هذا الليل؛ خلفها البحر تهمس أمواجه أغنية تتردد في جوفها هي فكيف سمعها البحر صديق كل عشاق الأرض..

تعال.. عانقني.. فكل وداع يحتاج إلى عناق أخير.

تعال.. ربما العناق ينسيك فكرة الرحيل..

كما تراه الروح دائمًا في أحلامها لا شيء يشبهه؛ وحيد يقطع الممر بخطوات تحملها نظرات عفراء؛ عيناه معلقة بها وكل شيء يقود إليها وإليه.. أمامها تمامًا بابتسامته تلك التي ينبت لها العمر من جديد كالزهر في الربيع؛ صاحب الابتسامة التي تذيب القلوب؛ أمامها يهمس باسمها ويبسط كفًا كأنها الدنيا ليصافح قلبها المبذول على كفها.

ـ أخيرًا يا عفراء.. اشتقتك يا أنا..

كم تمنت أن تلقي بنفسها على صدره؛ وأن تتلاشى فيه حتى تصبح جزءًا منه؛ هي الأشواق لا شيء يطفئها كالعناق. طوق كفها بين يديه كعصفور ينتفض مرتعشًا رهبة؛ وطوقت نظراته ملامحها بحنان؛ ابتسامتها الدامعة معلقة بوجهه عاجزة أن تقول شيئًا؛ جلسا دون أن يترك يدها؛ صامتين فكل شيء يقال دون حديث.

آثار السنوات بدت في عيون الحب سحرًا فائضًا؛ الشعرات البيضاء التي عبثت كثيرًا في رأس «وحيد» وانكسارات الحزن في ملامح عفراء؛ يا لهذا العمر كيف يمضي مهما توقفنا عن العيش.

ـ تعالي نتمشى قليلًا على الساحل..

نهضت متشبثة بكفه يسيران وحدهما على كوكب الأرض فلم تعد ترى أو تشعر بوجود شيء غيره..

ـ كشمالي يشتاق إلى البحر كما يشتاق إلى حورية البحر أفضل أن ننزل إلى الساحل بدلًا من الكورنيش فهل تمانعي السير على الرمال قرب الموج؟

ابتسمت وهي تستدير لتصبح أمام خطواته ونظراته قائلة:

ـ ظننت أنك تعرف أني سأسير معك حتى إلى داخل البحر سيرًا على الأقدام. أحنت رأسها بحرج لوقع نظراته المليئة بالشغف وهي تضيف: ما يضير الغريق بك أي غرق آخر. أخذ وحيد نفسًا عميقًا متهدجًا وهو يشدد قبضته على كفها هامسًا:

_ هيا أيتها البحر.. على الدرجات الحجرية القليلة كانت الإضاءة خافتة بسبب بعدها عن مصدر الضوء امتدت يد وحيد لتمسك بساعد عفراء خشية أن تتعثر؛ لكن هذه الحركة التلقائية جعلتها تتعثر ارتباكًا. سارا على الشاطئ المتصلب من بلل البحر؛ يتحدثان بكلام لا يربطه ببعضه إلا رغبتهما في قوله والحديث لمجرد الحديث؛ وقفا أمام البحر ينظران في المدى القاتم ويستمدان الأمان في اتكاء بعضهما إلى بعض.

_ أظن ساقي تعبت من السير يا عفراء تعالي نجلس هناك على تلك الحجارة.

تأوهت بغضب وهي تلوم نفسها:

_ تبًا لي من حمقاء؛ كيف نسيت أن ساقك ما زالت تتعبك؛ أوه سامحني يا وحيد. ضحك وهو يقول: سأفكر في مسامحتك على إغوائي بالسير معك إلى آخر الساحل دون أن أشعر بشيء سوى أنك قربي؛ وإني سعيد كثيرًا بهذا القرب.

جلسا على إحدى الصخور المصقولة التي تناثرت في مكان منزوي يقع خلفه مباشرة جدار الكورنيش؛ كانا قد ابتعدا كثيرًا عن تجمع الناس حيث الإضاءة والبوفيهات والمقاهي وألعاب الأطفال. فبدا الصمت كثيفًا إلا من موج البحر القريب..

طوق وحيد خاصرة عفراء وقربها منه؛ التصقت به وهي تتنهد برضا وقد ألقت رأسها على كتفه؛ تشابكت كفاهما واستسلما للصمت.

أحنى رأسه ملصقًا جبينها بصدغه؛ يفكر في أمثل طريقة للارتباط بها دون أن يسبب هذا الارتباط كارثة عائلية له؛ دفء أنفاسها يشتت تفكيره؛ يريدها قربه خشية فقدها؛ فما أكثر الأشياء التي فقدها مؤخرًا.

تنهد بصوت مسموع فرفعت إليه بصرها وتعلقت نظراتها بوجهه القريب منها حد الالتصاق؛ انحنى بسرعة وطبع قبلة خاطفة على خدها؛ قبل أن يلتفت خلفه بقوة ليصطدم ذراعه بالصخرة الحادة خلفه؛ كانت أصوات صادرة من بعض الشباب القادمين باتجاههما وهم يضحكون بصوت عالٍ قطع خلوة وصمت الليل.

حاول وحيد إخفاء جسد عفراء خلف جسده حين اقتربت مجموعة الشبان بمحاذاتهم تجنبًا لأي كلمات نابية قد تصدر من الشبان كون جلستهما في العتمة لا تبدو بريئة. ما إن ابتعد الشبان بمسافة كافية حتى نهض وحيد واقفًا ومد يديه إلى عفراء كي تنهض. وقفت وأنفاسها تتهدج بانفعال؛ عينا وحيد المضيئتين تحملان نظرة لا تقوى على احتمالها. أحاطها بذراعيه هامسًا وهو يقربها منه:

_ هل تتزوجينني غدًا عصرًا؟ لا وقت لدينا. ارتمت في حضنه وهي تهمس بفرح:

_ نعم.. نعم.. لا وقت لدينا. ضمني إليك يا وحيد فذراعاك أسوار تحميني من ابتعادك؛

أي قرب هذا الذي يجعلني أهمس أحبك.. أحبك؛ غرزات تلّم جراحاتي وتضم فتق السنوات في عمري عند غيابك؛ هذا القرب الذي توثقه كلمة أحبك كختم أحمر بالنجاة من فراق قد يأتي. لم يشعر وحيد بألم ذراعه إلا في طريق عودته إلى الفندق.

****

تمدد وحيد بكامل ثيابه على سريره في الفندق؛ ما زالت رائحة عفراء عالقة فيها؛ سيضم هذه الرائحة حتى عصر الغد حينها فقط سيستبدل ملابسه لأن عفراء ستكون معه روحًا ورائحة وضحكة يملأ صداها فراغ القلب. أغمض عينيه برضا واكتمال لأول مرة في العمر. قطع عليه استرساله في الخيال رنين الهاتف في جيبه فرفعه بسرعه واثقًا أنها عفراء؛ لكنه كان رقمًا مختلفًا أتاه الصوت قائلًا:

_ مساء الخير أستاذ وحيد أنا « حافظ « نحتاج حضورك على وجه السرعة.

_ خيرًا يا حافظ ماذا هناك؟ هل الأولاد بخير؟

_ نعم الأولاد وأمهم بخير.. لكن الأستاذ شائف ارتقى شهيدًا.. واختنق صوته..

سقط الهاتف.. وسقط ظلام كثيف؛ هدير ساخن في أذني وحيد؛ شيء ما انبثق بقوة في صدره وحجب ناظريه؛ جعله لا يرى الطريق أمامه وهو يهرول نزولًا نحو صالة الاستقبال في الفندق. سلم مفتاح الحجرة وخرج باحثًا عن أي وسيلة نقل تقله إلى مأرب. يسير مدفوعًا برغبته في الرحيل وليس بخبرته في الطريق والأماكن التي يسافر منها الناس عادة. استقر على مقعد سيارة تشبه تلك السيارة التي وقع فيها الحادث له قبل شهور؛ كأنهم ذات الركاب؛ يجلس برفقة السائق وشخص آخر فيما عائلة تحتل المقعد الخلفي. عاد إلى مصيبته التي يهرب من تصديقها. شائف.. يا الله.. هل سمع عبارة حافظ حقيقة.. هل ارتقى صديقه شهيدًا؟

ترك شائف يذهب إلى موقع المواجهات بمفرده؛ كان ينبغي أن يكون برفقته في زيارات التوعية المعنوية كما يسميها؛ لقد تنصل عن رفقة ذلك الرجل الطيب الملائكي.

داخله ينوح بصمت ودموعه تحرق جفونه؛ مخنوق يلتقط أنفاسه بشهقة؛ رن الهاتف. إنها عفراء.. هذا ما لا يقدر على فعله.. لن يرد؛ ضغط زر الرفض بألم مضاعف. ساعات طويلة تفصله عن مأرب؛ ساعات تبدو إليه دهرًا ينحت الحزن والوجع قلبه وحواسه. عاد الهاتف إلى الرنين؛ كانت زوجته؛ صوتها ثابت كالعادة:

_ كيف حالك يا وحيد؟ هل أخبرك أحد؟

_ نعم.. أخبروني.. أين الأولاد؟

_ كلنا في منزل شائف.. لا ينبغي تركهم في هذا المصاب.

_ أين أصيب وكيف؟

_ في موقع الاشتباكات.. قتل بقذيفة.

لم يحجب دموعه التي انهمرت بغزارة؛ ولا نشيجه الذي أفزع ركاب السيارة حوله..

إذا لم يبك على شائف كالنساء حين تبكي الرجال فعلى من سيبكي؟!!!

****

غيبوبة أخرى لفت وحيد أيامًا طويلة.. يسمع ويرى كل ما حوله وينزف على الورق دمعًا ودمًا؛ الحبر دموع الصادقين حين يكتبون الوجع؛ اعتزل كل ما يحيط به وعاد إلى مغارة روحه الجوفاء بفعل

الفقد؛ لم تلتئم جراح القلب بعد أحمد النويرة ووالدته فكيف يرحل شائف خلفه تاركًا كل هذا الوجع؟

عفراء عاودت الاتصال مرة أخرى؛ لكنه أغلق الهاتف ولم يفتحه بعدها لأيام طويلة..

ها هو يودع جثمان رفيقه الأجمل؛ واقف على أشلائه العاطرة يلملم أشلاء نفسه المتطايرة حزنًا وصدمة!! هل هناك أشد وجعًا من وداع الأجساد بعد أن غادرتها الأرواح الجميلة؟! هل هناك أقسى من أن توسد التراب بيديك وجهًا أحببته وألفته؛ تبحث عن بريق حياة في ملامحه المنطفئة وتناشده الابتسام!!

_ يا إلهي كيف يسرق الموت منا الحياة بغياب الأحبة ويتركنا أمواتًا أحياءً!! كان ينبغي أن أكون معك يا شائف؛ لقد تخليت عنك أيضًا يا صديقي الأجمل؛ تبًا لي من صديق بائس شقي حزين وهذا الحزن عجز كبير؛ كيف سأمضي دونك وقد كنا معًا في كل شيء. هذا الحزن يدك داخلي لأصبح إهابًا يمتلئ حزنًا فقط؛ منذ متى الحزن يملك قدمين تحملنا إلى الفرح؛ آه يا الله لم تعد الروح تحتمل قبح هذا العالم والسماء تطهر الجميع بقسوة وشدة «

اعتزل «وحيد» حتى مقايل العزاء في شائف؛ أغلق هاتفه واحتجب عمن أصر على زيارته إلى منزله؛ ابنه الأكبر «ماهر» يستقبل أي زائر يأتي فيقوم بواجبه حتى انصرافه بحجة توعك صحة أبيه. زوجته «سميرة» تعرف أن لاسمه نصيبًا من طباعه؛ وأن كل ما يحتاج إليه كي يتجاوز حزنه أن يبقى بمفرده في مكتبته الصغيرة مع أوراقه ونفسه فقط.

****

(عفـــــراء)

لم ينتب عفراء الشك في تصرف وحيد للحظة واحدة حين أغلق الهاتف في وجهها للمرة الأولى غضبت ونامت ساخطة. وفي اليوم الثاني حين أغلقه لكل الأيام اللاحقة تفاقم قلقها وخوفها عليه. أدركت أن مصابًا جللاً قد ألم به..

وحيد هكذا _ تخبر نفسها الملتاعة الموجوعة_ حين يحيط به وجع ما يختفي كطفل حزين عن العيون ويعزف عن الكلام مع أقرب الناس إليه. يختفي وحيدًا يداوي جراحه بصمت؛ يبتلع وجعه كي لا يتأذى من حوله بحزنه.

« آه يا وحيد أنت لا تعلم أن حزنك حزني وأنك فرحي الوحيد؛ الأجساد الجامدة مهما بلغ من تدانيها وامتزاجها لن تشعر بألم بعضها؛ إنما الأرواح الشفافة يمكنها مشاطرة الألم لبعضها بذات القدر والصدق. لقد مرّ عمري وأنا أنتظرك.. وأتيت.. ورحلت كأنك حلم ليس إلا.. أنا امرأة عاشت في الحلم؛ مارست الخيال كحقيقة.. لن يكون لها واقع فيك أبدًا.. أحيانًا أتيقن أنك لست حقيقة؛ أنت أجمل أحلامي التي تخيلتها ولن تتحقق؛ لن يأتي يوم تشرق أنت فيه شمس ذلك اليوم. كل الأحلام تتبخر مع الصباح. أنا هي الوحيدة.. فأنت حولك الكثير تخشى أن تفقده وتبكي على فقده إن فقدته..

أما أنا ففائض في هذه الحياة؛ شيء يكمل الصورة لا يلاحظه أحد؛ ربما زهرة ذابلة قطفها أحدهم فمنحها الموت خارج الغصن؛ ربما كلمة خارج السياق لم يفهم معناها؛ ربما حامل شموع مكسور لم يعد له قيمة. كم أحتاجك.. كأنك كل شيء وكأنك منتهى أمنياتي.. أعرف أني فقط أشعر بالوحدة. أحاول أن أطالب القدر بشيء يستحق حياتي وبقائي »

بحثت عفراء كثيرًا عن أرقام هواتف توصلها إلى شخص يطمئنها؛ كانت تعلم بوجود سماح صديقة وحيد وخطيبة «عمار» المصور صديق وحيد الذي استشهد في مأرب كان وحيد قد حكى لها قصتهما الموجعة.

خلال أيام حصلت على رقم سماح فهي تعمل في منظمة تخص الطفولة كما سمعت. والهاتف يرن في الطرف المقابل احتارت ماذا تقول لسماح وبأي صفة تسأل عن وحيد؛ قطع تفكيرها صوت نسائي متعب: مرحبًا..

_ مرحبا.. الأستاذة سماح؟

_ نعم.. تفضلي.

_ أريد أن أسأل عن «وحيد الأمير» أعرف أنك صديقة مقربة منه؛ أنا «عفراء راجي» قاصة من عدن تربطني بوحيد معرفة وثيقة؛ هاتفه لا يجيب وأرغب بالاطمئنان عليه.

_ أهلًا بك عزيزتي؛ للأسف وحيد عزل نفسه عن الناس تمامًا

بعد استشهاد أقرب أصدقائه إليه الرجل الذي يدين له بإنقاذ حياته عقب الحادث الذي وقع له منتصف العام الماضي؛ شائف قتل في الجبهة حين ذهب لزيارتها؛ ذلك الوقت كان وحيد في عدن؛ تم إبلاغه كي يعود لوداع صديقه فقد دفن في اليوم الثاني. للأسف حتى هاتفه مغلق تمامًا ولا يجيب على أحد؛ ربما أقوم بزيارته قريبًا وأطمئنك.

ألجم الألم عفراء؛ شعرت أن هناك أمرًا أقوى من قدرة وحيد كي يتركها بعد أمسيتهما على ساحل «أبين» وإصراره على سرعة ارتباطهما فلا وقت هناك.

نعم لا وقت لديهما كي يشعرا بالسعادة والاكتمال؛ النقص والفقد يلاحقهما دائمًا.. الحب في زمن الحرب مغامرة وجع ليس إلا..

تنبهت كي تشكر «سماح» لكنها كانت أنهت الاتصال حين سرح الخيال بعفراء..

هي لا تتخيل وجع وحيد.. بل تشعره في كل روحها وحواسها؛ تشاطره الحزن على رفيقه بذات القدر وتتمنى لو يترك لها فرصة كي تخفف عنه حتى بالكلام.

ما عساها تفعل من أجله؟! وهي لا شيء بالنسبة إليه مع كل أولئك الذين حوله؛ قريبون منه؛ يمكنهم رؤيته والحديث معه: يمكنهم سماع صوته الذي حرمت منه.

_ آه يا وحيد من أين لي بصوتك حين يصبح أغلى من الهواء وأثمن من الحرية وأنأى من القمر؟!! وكيف لك أن تعلم أن صوتك

الذي تمنحه للجميع بلا اهتمام.. همسًا أو صراخًا.. حنانًا أو غضبًا.. هو عندي لا يقدر بثمن.. كيف لي أن أسمع صوتك فقط.

****

يراها في أحلامه حزينة؛ فيتذكر أنه خذلها بعودته إلى مأرب دون أن يعتذر أو يخبرها بما حدث؛ كان ذاهلًا عن كل شيء ومازال تائهـًا في عزلته؛ كانت قريبة من يوم أن انتظرته سنوات فخذلهما القدر في لحظات؛ يردد في منامه اعتذارات لهذا الحزن الذي يكلل ملامحها: «اغفري لي يا عفراء.. خذلتك؛ أو خذلتنا الحياة حين فتحت للموت بابًا جديدًا. عفراء يا حلمي السرّي الغافي بين أوردتي؛ ما عاد لي عزم أو حيل على مزيد من الفقد؛ ما عاد لي احتمال لهذا العجز!! ما زال حبك كالوطن مستحيل القدوم..

في طريقه يصنع القدر عثرات لا تنتهي؛ القدر خصم عتيد يفعل فينا ما يشتهي ويشق علينا ونحن نحتمل. أتدرين يا حبيبتي ما الذي يثبتني إلى جدار الحياة كي لا أهوى قنوطًا؟ ما الذي يعلقني بخيط في سنارة هذا القدر؟ لا شيء سوى الأمل بأن أكون طُعمًا لشيء جميل يستحق الانتظار. أتحسس الجرح الخشن في ساعدي وأبتسم في سعادة؛ إنه الذكرى الملموسة الوحيدة لذلك اللقاء الخيالي بيننا ذات مساء؛ أتحسسه بخوف أحيانًا أخشى أن يختفي أو يزول فينطمس معلم للسعادة وشمته لحظة سُكر لم أشعر معها بألم أو جريان دم. إنه أثر لقبلة المكان والزمان اللذين جمعانا وعلامة حب يجب ألا تمحى من ذاكرة جسدي مثلما لن تمحى من ذاكرة الروح والقلب..

****

_ مرحبًا..

_ وحيد! كيف أنت؟ كيف أصبحت؟ كيف هان عليك أن تحرمني أن أواسيك؟

_ أعتذر يا عفراء على كل شيء؛ لكن مصابي أكبر من أي مواساة؛ لهذا أرسل لك من الواتس عاجز حتى عن سماع صوتك أو أن أسْمعك صوتي أخشى أن أبكي بين يديك كطفل تائه.. أوجعني حزنك في أحلامي يا عفراء.. فسامحيني..

_ آه يا وحيد.. حزني عليك وليس منك؛ يؤلمني كثيرًا إني في نهاية الأمر لا أحد ممن حولك؛ يؤلمني أني لست صديقًا سيأتي لرؤيتك؛ ولست أمًا تحتضن رأسك المتعب؛ ولست أختًا تعتني بك؛ ولست زوجة تخفف عنك.. لست قريبة منك.. أنا لا شيء لك.

_ لا تفكري هكذا أرجوك؛ تعلمين أن صلة الأرواح أقوى من صلة الدم والجسد يا عفراء؛ أنت شطر هذه الروح؛ منذ متى بين الأرواح قرب وبُعد في المسافات والعلاقات؛ أنت معي يا حبيبتي؛ تسكنين جسدي نصفًا لروحي يكملها رغم بعد المكان والزمان؛ فلا تتألمي أرجوك.

_ للأسف يا وحيد؛ الحقائق التي نلمسها فجأة بالحواس تكون أصدق من كلام الشعراء والفلاسفة؛ أنا مبعدة عنك حقيقة؛ محرومة منك فعلًا؛ أقل ما تمنيته سماع صوتك كي أطمئن عليك وكان مستحيل الحدوث؛ كيف لا تؤلمني مسافات المكان والمستحيل والممكن؟!!

_ أتعلمين ما المؤلم حقًا يا عفراء؟

-ألا أراك.. ألا نلتقي؟

-المؤلم أن نفقد الآخرين لأننا عجزنا أن نكون كما يريدون أو كما يتوقعون.

– وهل تعلمين ما الأكثر ألمًا؟ أن الآخرين لن يكونوا كما نتمنى وأنّا لن نحظى بسعادة وجودهم قربنا.

– بل المؤلم حقيقة هو أن يحدث هذا لنا؛ السعادة ألا يحدث شيء؛ وألا نشعر بشيء؛ ألا نفكر أننا لسنا سعداء..

– وهل الشعور بالسعادة يحتاج إلى تفكير؟ قديمًا كانوا سعداء بما هم عليه.

– لأنهم لم يحاولوا التفكير؛ لم يحلموا.

– من منا استطاع تحديد ما يريد؟ هل استطعت أن تضعِ سقفًا للحلم أو حدًا لاشتهائك الأشياء والأحداث؟

– لم أعد أثق ماذا أريد كي أضع حدًا أو سقفًا له؛ ما أعرفه أن الحلم إذا لم يتحقق يظل بلا روح؛ هائمًا كالبخار أو الدخان؛ هل تستطيعين لمس الهواء؟ وتحديد شكل وسقف لوجوده حولك هكذا أشعر أن أحلامي هواء أو دخان يتبعثر؟

– كم يشبه الحلم الحب.. هذا الحب الذي غدا بيننا هواء أتنفسه وأختنق به؛ هل الحب من يأتي إلينا أم نحن نذهب إليه؟ هل يقع صدفة حقيقة أم نفتعل الصدف كي نوقعه ونتباكى أنه أوقعنا في شباكه؟

– الحب إذا أتى يكون مصادفة مباغتة؛ قد لا نفهمها أو حتى نعيش دقائقها؛ ربما الخوف من هذا الشيء الخرافي تكون صادمة لأفهامنا البدائية؛ كأننا ننتقل لبعد آخر لحياة لا تشبه حياتنا؛ ننفصل عن أجسادنا؛ نعيش بين البشر بشيء يشبهنا؛ أما نحن فقد ابتلعنا ذلك الشيء الخرافي العجيب الذي اسمه الحب؛ لكنه يلفظنا من جوفه في النهاية؛ يرتجعنا ربما لأنه لم يهضم مخاوفنا أو نحن لم نهضم دهشته؛ فشعور الخوف هو المسيطر؛ ما أعرفه أننا نظل طوال العمر نحلم أن نلتقيه صدفة؛ الحب شعور لا يوصف يا عفراء أصبح حلمًا في هذا الوطن..

– هل يصادف الجميع هذا الحب، هل هو مصير ينتظر كل القلوب أم أن هناك قلوبًا تصر على التماس متعة الألم فقط؟

–لا الأمر ليس كذلك؛ هناك من يعيشون على شواطئه في أمان؛ لم يفكروا في الغرق أو قادتهم الصدفة للعمق؛ ليسوا مجانين كفاية حتى يخوضوا الحب حد الغرق مثلنا..

ما أسعدهم على الشاطئ راضون بما تقذفه أمواج الحياة بقناعة؛ يتناسلون فقط لم يحلموا بشيء أكبر من عمل الحيوانات.. لم يحلموا.. ولم يفكروا..

من تختارهم الصدفة أو القدر العابث هم ضحايا الخيال؛ يسوقهم كالنداهة في الأساطير لعرض البحر؛ جميل كالشغف؛ ثم يتركهم يموتون غرقًا؛ ومن نجا لن يعود إلى الشاطئ مكتمل العقل سيكتب الشعر تعاويذ لإيقاع آخرين كي يصابوا بالجنون مثله تمامًا.

****

أنا لا أتكئ على قلب أحد..

قلبي هو عكازي الوحيد؛

فإذا انكسر.. فقدت رغبتي في الوقوف مجددًا.

(وحيـــد)

«أسوأ ما يمكن أن يحدث لشخص أن يكون مكشوفًا لآخر حتى العمق؛ ما أجمل أن تكون قشرتك الخارجية قوية تحمي داخلك فالروح سهلة الخدش وحتى الكسر ولو بنظرة لوم وعتاب. سميرة» زوجتي تحمل ذات النظرة الفاحصة المتمعنة التي تملأ عينيها منذ الأيام الأولى لزواجنا؛ أشعر أنها تعري داخلي الذي يمارس خيانتها العاطفية. ذكية بذلك القدر الذي جعلها تدرك أن زواجنا ينقصه شيء ليس بيدي أو يدها لكنه لا يعني فشل الزواج بل سببًا لترك الأمور تسير بأقدارها.

لم يكن الزواج التقليدي مشكلتنا؛ فحياتنا بلا مشاكل لأني أتقبل كل شيء بصبر؛ وأجهد لإرضائها بكامل مقدرتي؛ المشكلة هي تلك الأرواح التي لا تكمل بعضها؛ فيحدث فراغ رغمًا عن النفس.

هي رائعة لدرجة الاكتفاء بما تريد؛ منزلها وأولادها الأربعة وزوج يغدق عليها الحب والمال تستند عليه في معاركها الخاصة

في الحياة. لماذا أحببتُ عفراء بكل هذا الشغف؟! هل لأنها نصف روحي الضائع؟! هدف آخر أسعى إليه؟!!

أم لأنها تحبني بتلك الطريقة التي يعشقها الرجل في الأنثى؟ أن أكون رقمًا واحدًا في اهتماماتها وأحلامها؟ مهمًّا لها بدرجة تثير سعادتي أنا.

كل هذا لا يهم؛ ما يهم أننا كنا سنتزوج سرًا وتبقى هي في عدن ونلتقي كلما سنحت لنا الأقدار؛ لكن الأقدار لم تسمح بهذا الارتباط.. الموت حائل عن الحياة؛ يأتي ما إن يكتمل كل شيء؛ ينقض وينتزع الكثير فيعود النقص في دواخلنا مهولًا؛ ما أكثرها طرق الموت في وطن رفع فيه شعار الموت صراخًا يردد كل لحظة كآذان لصلاة الشياطين..

لم أعد أخاف الموت فقد صار رفيقًا بديلًا عن كل الرفاق الذين اختطفهم؛ ولا يهم في أي وقت سينتزعني حزنًا وفراغًا في أرواح من يهتمون لي. لا يهم بأي الطرق سيكون الموت الأقرب؟ لا يهم فالمرء يموت أجزاءً أول ما يموت فيه مشاعره ربما لأنها الأضعف أمام الألم. لا يهم.. سيأتي في كل حال؛ فهذا الجسد احتمل أكثر مما خلق كي يحتمل؛ تكفيه نفخة قدرية واحدة ليتهاوى كهرم من ورق؛ هذه الروح.. آه من هذه الروح نصف الميتة التي تتنفس الحبر فقط.. سأكتب كي أتنفس فقط ما دام هناك عرق ينبض.

لا يعني أني نجوت من الموت مرات أن أبقى لأشاهد موت كل من أحبهم؟!!

ولا يعني أن أمضي إلى حتفي حثيثا فأجّد في البحث عن موت؛ لست بطلًا بما يكفي.

الأبطال يصنعون الحياة للآخرين بأرواحهم؛ يعبّدون طرق الحرية بدمائهم في أوطاننا التي لا تعرف بطولة إنجازات الحياة؛ تصبح شخصًا عظيمًا أمام نفسك ومبادئك حين تكون شهيدًا برصاصة ميتة تبقي روحك حية إلى الأبد.

الأبطال الحقيقيون هم من ينسون أنفسهم من أجل الآخرين؛ وفي النهاية بعد أن يموتوا ألمًا يتذكرهم هؤلاء الآخرون ويصبحون أبطالًا في ذاكرة الجميع. ليس مجرد أبطال في ذاكرة.. بل فكرة ثورة.

****

رسالة مقتضبة لا تعني أن كاتبها لم يجد ما يقوله؛ رسالة مقتضبة تعني أن هناك الكثير من الخوف في قلب كاتبها خشي أن يقوله أو عجز أن يلمّ به؛ رسالة عفراء التي وصلت إلى هاتف وحيد كثقب أسود الحروف ابتلع ما تجمع من شتات نفسه وتأويلاته وقذف به إلى بعد آخر من الحيرة والألم:

« عزيزي وحيد.. هل يمكنك القدوم إلى عدن؛ يجب أن تفكر في الخروج من منزلك وتغيير جو الحزن الذي تعيشه؛ لقد مر شهران على رحيل صديقك»

شهران!! الزمن ينفرط بسرعة لكن الأوجاع عصبة قوية لا تتزحزح!! عفراء تريده أن يسافر إليها تاركًا في مأرب أحزانه كقميص

متسخ؛ سينزعه ويسافر ليغير جو المآتم وحين يعود يكون ذلك الحزن قد اهترأ وتلاشى.

كيف له أن يذهب إلى عدن ليحتفي بحبه وينعم بزواج جديد وصديقه الأقرب يتآكل جسده في التراب!! في أقل مظاهر الوفاء يجب عليه أن يحرم هذا الجسد راحته تضامنًا مع جسد صديقه الذي يعبث فيه الدود..

أرسل إليها رسالة أشد اقتضابًا كأنه يعاقبها على تفكيرها ويعاقب روحه أيضًا بحرمانها من تعاطف «عفراء»

« عزيزتي.. أعتذر لك؛ الأمر صعب في الوقت الحالي»

وعفراء تقرأ حروفه الجامدة؛ سالت دموعها غزيرة؛ أكلما تدانيا داخل مساحة الوطن تناءت مساحات الشعور وتقلص التفاهم بينهما؟!! كيف لم يدرك كل ذلك الشوق والخوف أن تفقده في حروفها؟!! هناك أحلام مؤلمة بقدر جمالها؛ ولم يكن وحيد سوى حلم موجع لها؛ وهي مقبلة على سفر من أجل والدتها كم تمنت رؤيته فقط.

لم ترسل عفراء بعدها لأيام طويلة تواسي نفسها بحزن.. لعله يرسل.. لعله يأتي.

ولم يأت.. ولم يرسل. غرقت في الصمت كعادتها حين يصدمها الواقع وتدرك حجمها الضئيل في مجابهته؛ تتوق إلى البكاء بصوت عالٍ ولا يسمعها سواها؛ تعلم أن البكاء ذاته يصبح رفاهية إذا لم تعلن أسبابه على الملأ.

في صباح سفرها كتبت إلى وحيد كلامًا كثيرًا ربما غير مترابط؛ تحب في رسائلها إليه تكتب كل ما تريد أن تقوله حتى ذلك الذي لا يحب أن تقوله هي أو ذلك الذي يطلق عليه لقب الهراء وهواجس الحدس..

«عزيزي وحيد.. أنت من علمني كيف يكون الهروب من مواجهة الحديث؛ ها أنا أرسل إليك وأنا في طريقي للسفر خارج الوطن مجددًا؛ توعكت صحة أمي كثيرًا بعد رحيل أبي؛ وتقرر سفرها للعلاج في «مصر» ولأن أخي مشغول بعائلته؛ لم يعد لأمي سواي وليس لدي سواها سأرافقها في رحلتها العلاجية.. تمنيت رؤيتك فقط..

اشتقت إليك وظننت أن مسافات الجغرافيا هي التي تحرمني منك ليس إلا؛ لكنها تحولت إلى مسافات عدم التفاهم أيضًا. الشوق الذي لا يحتمله قلبي ويحتمله قلبك عبء فائض؛ سأضعه جانبًا يا وحيد كي لا أثقل عليك. لا بأس يا وحيد سأكون بخير.. لا أريد أن يكون حبك التزامًا تحمله على ظهرك؛ الحب ما إن يغادر القلب حتى يصبح حملًا ثقيلًا ويغدو كريهًا. سأكون بخير حتى دونك..

يبدو أن لا أمل لنا بلقاء قريب؛ لقاؤنا قبل وفاة رفيقك زلة حظ أعتذر القدر عنها بحرمان أطول؛ لا أدري هل ينتهي يومًا؟ أم تسبقنا الأقدار بشيء أقسى؟ أنت لم تخذلني يا وحيد؛ كعادتها الحياة تخذلنا معًا. أتمنى أن تهتم بنفسك وأن تكون بخير لأجلي.. وداعًا »

وصلت رسالة عفراء إلى هاتف وحيد في أول يوم يقرر فيه مغادرة منزله؛ فامتلأ قلبه بالوحشة كأنها تغادر من أمامه ومن بين يديه.. آلمها

رفضه السفر إليها؛ وآلمه أنها لم تدرك مدى حزنه على صديقه. هل كان سيتركها تذهب بمفردها لو تزوجا؟ عفراء دائمًا لا تملك قرارها؛ فحيث قرر أهلها الذهاب تصحبهم ككل ما يحتاجون إليه في سفرهم.

لماذا يشعر بالضيق لرحيلها هذه المرة؟!! هل لأنه قسى عليها برده البارد؟ هل يخشى أن يدب اليأس في قلبها وتختار طريقًا لا يجمعهما؟

لم يرد على رسالتها مودعًا أو مطمئنًا؛ ففي قلبه فراغ حزين كأنما تخلت عنه برحيلها رغم البعد الدائم بينهما.

عزف عن الخروج ذلك اليوم.. لكم يكره لفظ الوداع وفكرة الف راق.

****

أيام أخرى تدفعها عفراء بمشقة انتظار رد من وحيد.. ولا يرد.

تهرب من التفكير في مدى إحباطها الذي لم يعد يتسع له صدرها ففاض على حركاتها البطيئة وعزوفها عن الخروج رغم مناشدة والدتها أن تزور صديقاتها في القاهرة؛ لم ترغب في رؤية أحد سواه.. التفكير فيه يشعرها بقرب مفترض.

وظهر قبالتها فجأة كحلم! يتحدث بصوت عميق قادم من أعماق بئر الوطن..

والدتها التي تبحث عن قنوات يمنية في التليفزيون بعثته أمامها

على إحدى تلك القنوات يتحدث عن الوضع الإنساني في اليمن.. تسمرت وهي تهتف في والدتها:

_ لا تحركي القناة يا أمي.

إنه أمامها تمامًا إنما لا تلتقي عيناه بعينيها؛ لا يراها هي المكلومة في عاطفتها؛ يرى أوجاع المئات كي يرصدها بدقة؛ ويتجاهل لهفتها إليه كترف صعب في الوقت الراهن».

تمتد كفه لتعديل وضع نظارته وهو يبتسم لملاحظة مقدم البرنامج فتبتسم هي لابتسامته تلك. "ابتسامته شمس تطل من وجه شمس؛ شروق يتلوه شروق ينتهي بعتمة شوق تشعل قلبها. يا لقلب العاشق كيف يهنأ برؤية من يحب ويتعذب لشوق عذب « نحل كثيرًا؛ صار أكثر تقطيبًا وحزنًا؛ أكثر جمالًا وجمودًا كتمثال حميري قديم يحمل على عاتقيه مجدًا ماضيًّا عظيمًا ووزرًا حاضرًا ملوثًا وتطلع مستقبل معتمًا. تنهدت:

_ تمامًا كفكرة هذا الرائي.. قريب أنت ولكنك حلم أقرب إلى الخيال والوهم. تبًا لي؛ ليتني لم أكن كاتبة يروقها تطريز الكلمات التافهة عن مشاعرها؛ ليتني أتعلم الصمت كامرأة لا تكتب ولم تعرف إغواء بوح الحروف؛ وحيد ليس لي حتى أمنية.

لست من عالمه المكتظ بالأحداث؛ أنا ركن صغير يضيع في مساحات الازدحام.

كم يخيفني هذا الهطول الكثيف للحزن على قلبي حين تغيب؛

يحجب عني كل شيء سوى افتقادك أراه في كل ركن من روحي فأنت تملؤها وحدك.

كل يوم أعد صيغة جديدة للعتاب أرق من سابقتها؛ أثبتها على جدار ذاكرتي كي لا أنسى إذا طال غيابك؛ رغم أني أعرف أن كل صيغ العتاب الشديدة والرقيقة ستسقط أرضًا وتتلاشى كقطع ثلج باردة ما إن تشرق ابتسامتك المضيئة.

****

أخيرًا تذّكر «وحيد» ذلك الركن الصغير المسمى عفراء!

استيقظت صباحًا لترى رسالته البائتة في هاتفها؛ صرخت بسعادة ما إن طالعها اسم المرسل؛ عاتبت الكلمات كيف لم تيقظها حين أتت في قلب الليل؛ كيف لم تستدعها روحه التي تعشق السهر وهي نائمة:

« مرحبًا عفراء..

أعتذر عن تأخر ردي كل هذا الوقت؛ سامحيني خذلك عجزي عن قرار آخر بالقدوم إليك فسبقني القدر برحيلك عني. لم يعد يصنع الغياب فرقًا لديّ؛ ستبقين أجمل أحلامي التي في صدري؛ أنت معي تحقق الأمل أو انتهى العمر دون الوصول؛ لم أعد وحيد ذلك المبتسم للرزايا؛ صرت كوطني مليء بالحزن والندوب؛ كبّلني العجز والخذلان حتى صرت حلقة متينة من هذا الخذلان.

الأشياء لا تأتي كما نتمنى يا عفراء ونحن لا نختار أقدارنا حقيقة؛ ولا نختار أوطاننا؛ ثم ليس لنا الاختيار في إنقاذها أو إنقاذنا. ما إن

غادرت منزلي عقب رسالتك حتى تلقفتني الهموم كغائب أثير؛ تظنني هجرتها فارتمت بثقلها على صدري أحملها من قضية لأخرى ولا أجد لي راحة. لم نكن نتخيل أن الحال سيصل بالناس إلى هذا المآل من الفقر والعوز أو أنه سيستمر حتى يصل إلى مجاعة مروعة مع غياب الدخل لدى الغالبية.

حقًا هناك من أثرى من هذه الحرب إنما في المقابل الغالبية وصلت إلى حضيض المعيشة؛ كيف سيشعر المتخمون بهؤلاء!! وأحلام الفقراء في عيون الأغنياء تافهة؛ يرمونها إلى سلة القمامة كل يوم. نحاول التظاهر بثقة الجهل فيفزعنا خوف المعرفة؛ نحن نمضي إلى هاوية سحيقة ولا تباشير انتهاء لهذه الحرب التي تحرث الأرض لتزرع الشقاء لأجيالنا القادمة.

اغفري لي يا عفرائي.. لا أجدني أفصل همي عن هموم الناس فأنا منهم وأعيش المعاناة بتفاصيلها الدقيقة. كوني بخير حبيبتي البعيدة دائمًا)

انطفأت شاشة الهاتف وهي محدقة في الكلمات قبل أن ينطفئ داخلها شيء كان مضاء كشاشة الهاتف. "لم يقل إنه يشتاق لي!! قال إن الغياب لم يعد يحدث فرقًا؛ لم أعد في خياله سوى حلم؛ وهو يعيش واقعًا لا مكان للأحلام الوردية فيه؛ واقع حرب أزاحت كل حب. لقد استسلم وحيد للبعد وانتهى الأمر.

_ آه يا وحيد نصيبي منك هو الفقد دائمًا؛ أستسقيك الكلام فلا أنت تمطر ولا قلبي يجدب من هذا الحب؛ كمطر السماء يسقط أرضًا

فيصبح وحّلًا وطينًا هكذا يسقط كبريائي شوقًا لك؛ وأنت لا تبالي فتقول ولو كذبًا اشتقت لك!!

كل تلك المسافات التي بيننا أزرعها حبًا واشتياقًا؛ ويزرعها غيابك ألف سؤال أولها لماذا ومنتهاها متى؟ تلك المسافات استحالت ألف حزن وألف جدار بيننا.

أنا لا أكتب لك الآن.. أنا أكتب لحزني هذا الممتد حتى الأفق؛ أرجوه فقط أن يَخِفّ فلا شيء في الحياة يستحق. في كل دقيقة تمر يفقد قلبي ريشًا أكثر.. ولن يطير مجددًا..

أنا مقيدة بأحلامي فقط؛ أحيط نفسي بقفص الوهم وأنتظر أن أحلق. كيف لي أن أفتقد من لم يأت إلا خيالًا؟ سنوات من الخيال والحلم فمتى أستيقظ؟

وحيد قانع الآن بين أهله؛ نذر وقته ونفسه لقضيته؛ من الحب ألا أزيد في أحماله؛ من الحب أن أبتعد خيالًا كما البعد حقيقة.

يمكنني أن أحتمل كل أثقال الشعور؛ إلا شعوري إني عبء ثقيل عليك يا وحيد.

****

بلغوا عن الناس ولو وجعًا كي لا يقتلهم الصمت أيضًا؛

فالصمت عن الحق أحقر أنواع الضعف.

(وحيـــد)

سوء الأحوال الجوية أو سوء حظي الذي جعل خروجي بعد اكتئاب أيام يصادف هبوب سحابة رملية كثيفة وخانقة تبدو اعتيادية في مأرب.

أقرب ما أرى عبرها هو اغترابي داخل وطني؛ حجب غبار الصحراء الرؤية كما حجب غبار التاريخ التفاؤل بغدٍ أفضل يكون فيه الأمان ولو مجازًا؛ الأوطان التي تحتل الحرب شبرًا منها تشتعل كأعواد الثقاب المتجاورة.

يضيق صدري فلا أدري أمن كمية التراب الذي أستنشقه مع أنفاسي أم كمية الشوق لذكرى مسقط رأسي؛ حتى الذكريات تكون عابقة وخانقة كلما صارت بعيدة تتطاير كهذا الغبار في الذاكرة. الحنين إلى الوطن وأنت داخل الوطن هذا هو الشعور الأصعب على الإطلاق. وطن تضاريسه كالحة على البسطاء؛ تقلباته قاسية وصعبة لا يحيا فيها سوى الهوامير الكبيرة والأفواه الواسعة القادرة على ابتلاع كل شيء بما فيهم البشر.

مثل هذه الأفواه فقط تنشب أظافرها في الشرعية أو في الانقلاب.

أما البطون الجائعة فلا تعرف شرعية سوى شرعية الرغيف ولا تعرف انقلابًا سوى انقلاب الجوع.. الفقر والصمت يزحفان إلى كل البيوت ماعدا بيوت رعاة الحروب؛ البطون الجائعة ليست علامة صمود ولكن دليل خوف شنيع. لم نعد نسمع سوى شعارات الصمود منقطع النظير من الطرفين؛ إنه صمود الأموات في برزخهم فقط.

الحرب تأتي تصطحب معها الجوع والمرض؛ ثلاثي متناغم ومتواطئ ضد الإنسان. ربما هو تنوع الموت؛ فحتى الموت على نمط واحد يثير الملل.

النازحون في مناطق الشرعية يتقاسمون الجوع والموت ذاته الذي في مناطق الانقلاب.

ربما هما القاسم المشترك بين هذا الشعب على طول وعرض جغرافيته الصامدة عنادًا. في مأرب يتظافر عليك الجو الخانق والجوع والخوف من المجهول؛ مدينة تنتشلك من نفسك فلا وقت للتباكي على شيء خلفك؛ ستدوسك أقدام الحياة المهرولة في سرعة نحو العمل بلا كلل.

مدينة مكتظة بالزحام تنمو سريعًا كأشجار الأساطير؛ عالم يلتهم كل شيء بنهم. يلتهم الفرح والحزن والخوف والتفاؤل؛ حتى الكسل والتردد وجثامين الشهداء.

كأن الزمن يختلس مني هذا الوقت المحدود الذي منحه لي كي

أعيش عمرًا؛ يسترده ضياعًا وشتاتًا وإحباطًا؛ يتبدد كدخان احتراقي وأنا ألهث خلف الوقت؛ شبح العجز سكنني ولم يعد يطاردني؛ ماذا أفعل أنا مبحوح الضمير في وجه الخراب والغدر.

قبل أيام استقبلت مأرب مزيدًا من الشهداء تضاربت الأقوال حول استهدافهم من قبل قصف الأشقاء على مناطق الجيش الوطني في منطقة «نهم»؛ أكثر من عشرين قتيلًا فيهم قيادات كبيرة؛ هكذا تمت تصفيتهم ببساطة لأنهم ربما تقدموا أكثر مما هو مرسوم لسير المعارك التي لا تتقدم. ليست المرة الأولى التي تقوم فيه طائرات التحالف باستهداف قيادات ومجندين في الجيش الوطني تحت ذريعة الخطأ.

أصبح جليًّا أن التحالف يقتل في صفوف الشرعية أكثر مما يقتل في صفوف المليشيا. وأن الوطن في براثن ظلم الداخل وقهر الخارج. أي حزن غمر القلوب بهكذا خذلان؟!!

في هكذا حال من ذلك الحالم الذي سيفكر بأمنيات قلبه وعاطفته؟!!

لم أعد أجد رغبة حتى في رسائل البوح والثرثرة مع عفراء؛ تكاثرت عليّ هموم الحياة فأنستني هموم القلب. أشعر أننا سنراوح هكذا زمنًا طويلًا.. بين حرب وسلام؛ في منطقة كالحة تصهر الشعب معاناة وصبر على أمل حدوث معجزة أن ينتهي كل هذا.

صرت آوي إلى الفراش كشخص لم يرغب في الذهاب إلى النوم كي يهنأ؛ بل الذهاب كي يموت ميتة صغرى ليرتاح من كل شيء حوله.

لم أعد أنام.. أضع رأسي على الوسادة وأضم ساعدي إلى

صدري وأتأمل الفراغ الشاسع داخلي؛ أشعر أن ما في رأسي ينصهر وأن دماغي يسيل من أذني حتى إني أمد إصبعي فألمس سائلًا يقطر من أذني حقًا؛ أكتشف أنها دموع تشق طريقًا مستقيمًا لا يعرف هذا الارتباك في تفكيري. عواء كلب خارج المنزل؛ يعوي مباشرة تحت النافذة فيجاوبه صدى عواء الفراغ داخلي. حتى الريح التي تضرب أغصان شجرة قريبة تتشبث فروعها في نافذتي؛ الطبيعة كلها داخلي تعربد عاصفة عابثة.. فلماذا أرى الفراغ بامتداد الأفق؟!! كم أكره عواء الكلاب!! منذ كنت طفلًا وأنا أحمل لأصوات حزنها كراهية مبهمة؛ دائمًا يصادف حزني عواء الكلاب المشردة في أزقة الأحياء التي أسكنها..

المؤلم أنني لست حزينًا بما يتناسب مع حالتي. لست أشعر بالفجيعة؛ أشعر أنني مفتت؛ نعم مفتت وكل جزء مني يشعر بشيء مختلف؛ مثلما يحدث لشخص ينفجر فيه لغم مزروعًا في جوفه؛ يتطاير أجزاء مفتتة؛ جزء مبتور يموت لفوره؛ وجزء معلق يتألم بأمل؛ وجزء ينزف بصمت. وأنا فقط أنظر لأجزائي المبعثرة وهي تعاني الكارثة.

هل أتألم؟ هل أبكي؟ هل مت؟ أنا صامد.

أمثالنا يصمدون في وجه الألم ليس لأنهم أقوياء بل لأن لا حيلة لنا في تجاوزه أو احتمال الانكسار؛ نحن نلتحم بالألم فقط ونصبح شيئًا واحدًا.

****

في لقاءات قليلة جمعت «وحيد» وحافظ بسماح كان من السهل أن يخمن وحيد تلك الحالة التي تنتاب صديقه حين رؤيتها؛ يهتم لسماح كثيرًا إن لم يكن غارقًا في حبها؛ يتحين الفرص للقائها والحديث معها فيما يخص عملها في منظمة الطفولة؛ يسهب في وصف تفانيها ورقة قلبها مع الأطفال رغم أنهم مجندون خاضوا أهوالًا في هذه الحرب.

تمنى وحيد أن تلمح سماح هذا الشغف في حافظ؛ أن تبادله الاهتمام وأن ينسجما معًا فيكون تعويضًا لعاطفتها التي أنهكها عمار إهمالًا قبل أن يسحقها حزنًا بموته.

لكن سماح تبدو كآلة بلا شعور في تعاملها مع الرجال حولها؛ يتبادر لمن يرى ابتسامتها المرسومة على شفتيها أنها لوحة جامدة رسمت كجزء من وجهها وليست حقيقية؛ يسقط ذلك القناع حين تحادث طفلًا يشتاق لأهله فتبكي لبكائه وربما لفقدها هي.

استأجر وحيد شقة جديدة متواضعة عوضًا عن الشقة التي جمعته بشائف وحافظ كل صباح والتي استأجرها شائف كمقر للصحيفة؛ أصر على تغيير المكان الذي ضمّ تلك الرفقة النادرة؛ تعبت روحه من ذلك الحضور لرفيقه فكلما دلف إلى الشقة يتراءى له شائف داخلًا من الباب باسمًا متفائلًا كعادته؛ يلقى تحية السلام كاملة بتفخيم محببّ؛ صدى صوته عالق في جنبات الحجرات الثلاث؛ في مطبخ الشقة حين يصر على صنع الشاي لأي ضيف جمعتهما صداقة قديمة.

ترتيب الأثاث البسيط جعله يتذكر مكتبه القديم في شركة توزيع المطبوعات؛ قطع الأثاث التي انتقاها بعناية وحب مع كل ذكرى

جميلة مرت معها؛ تعلم ألا يتعلق بشيء مادي بعد أن انتزعت المليشيا كل ما يملك من سيارات وأثاث وممتلكات؛ الذي لا يستطيع تعلمه هو تقبل انتزاع الموت لرفاقه وأحبائه.

وحافظ يراقب حركات وحيد الجامدة وهو يرتب كل ما يقع في يده يشعر بانطفاء حماسته لذلك الحلم الذي اقتطع رحيل شائف جزءًا منه. أسند ظهره إلى الجدار بإرهاق وهو يقول: ما رأيك بكوب شاي؟ لدي ما أقوله لك. قذف وحيد صندوق الورق من بين يديه وهو يقول شاردًا:

_ من يجرؤ على رفض كوب شاي من يدك وأنت تلميذ شائف في صنع الشاي المعتق؟

أسرع حافظ لإعداد الشاي في حين رتب وحيد مكانًا لجلوسهما وسط فوضى المكان.

رغم شرود ذهنه إلا أنه شعر بما يريد حافظ الحديث عنه؛ لعل الحديث عن سماح هو الشغل الشاغل لصديقه الشاب.

جلس وحيد على الأرض مادًا ساقيه على البلاط العاري وحين وضع حافظ الصينية رفعهما ليقرب الشاي منه بلهفة مازحًا:

_ أنت شاب صالح يا حافظ؛ داوم على مثل هذه الاقتراحات. ضحك حافظ وهو يقول: «ما دام الشاي يساعد على انفراج أساريرك سأداوم على صنعه هنا واستغل تأثيره في بعض الاستشارات منك.

_ ماذا لديك؟

ـ سماح.

ـ خمنت ذلك. هل تعرف قصتها؟

ـ نعم وأعرف «عمار».

ـ إذًا فأنت تعلم أنها دفنت الكثير معه.

ـ يكفيني ما تبقى منها يا أستاذ وحيد؛ وهو كثير.. عندي أمل أن يحيي الحب الموات فيها. ابتسم وحيد بتعاطف؛ الحب شيء عجيب.. يجعلك ترى فيمن تحب فوق ما يحتمل من جمال ومثالية؛ تذكر عفراء.. كيف يصنع وجودها الفرح والحزن معًا في قلبه.. أيقظه من شروده صوت «حافظ» وهو يقول على استحياء:

ـ هل تحادثها يا أستاذ وحيد؟ حدثها عن رغبتي في الزواج بها بأي شروط تريدها. ربت وحيد على كتفه قائلًا: سأفعل وسأقول لها إنك تعويض من الحب لقلبها الجميل.

ابتهجت ملامح «حافظ» وقفز من مكانه بنشاط قائلًا:

ـ سأكمل ترتيب المكان كما يعجبك؛ صرت أفهم ذائقتك في كثير من الأشياء؛ ليتك تذهب إليها ونلتقي عصرًا هنا. قام وحيد من جلسته وهو يضحك قائلًا:

ـ ليتك أخبرتني منذ الصباح؛ فعمل الخطّابة يناسبني أكثر من عامل التأثيث والصيانة. تناول جاكيته المعلق خلف الباب وأخرج هاتفه وهو يبتسم في وجه حافظ المترقب. هاتف سماح أنه في الطريق

إليها؛ كانت في حماسة معتادة لعملها؛ فهناك إعداد لحفل سيتم فيه إعادة كوكبة جديدة لأطفال قصر من مجندي المليشيا إلى أهاليهم بعد أن وقعوا في الأسر لدى الجيش الوطني.

****

في مكتبها المتواضع كعادته وحيد أستمع إلى سيل الأحداث والقصص الموجعة التي تسردها سماح والتي تواجهها في عملها؛ كل مرة يجثم الحزن على صدره ويمتلئ قلبه بالضيق من مأساوية ما يحدث لطفولة هذا الوطن. أطفال قصر شاهدوا أهوال حرب لا يطيقها البالغون بحاجة إلى تأهيل طويل كي يشعروا بطفولتهم من جديد.

قاطعها قبل أن تتشعب في سرد حكاياتها كعادتها قائلًا:

_ أتيت إليك في أمر يخصك أنت هذه المرة؛ ابتسم مستطردًا: أنت تعرفين «حافظ» صديقي وزميلي؟ الرجل يحبك يا سماح وراغب في الزواج؛ لا أطلب موافقتك إنما فرصة كي يحدث بينكما شيء ربما يقنعك بالارتباط.

سكت مبتسمًا وهو يشاهد حاجبيها ترتفعان في استغراب حقيقي كأنما لا يحق لها أو لأحد التفكير في شيء كهذا!! عاد يقول أمام صمتها المبهوت:

_ عزيزتي سماح.. أنت لن تبقي كل عمرك بلا ارتباط؛ حافظ هو هدية السماء إليك بقلبه الطيب المتفاني حبًا وتفهمًا؛ يعلم تفاصيل

قصتك مع عمار ويقبل بما يجود به قلبك والزمن. زفرت بحرارة رغما عن محاولتها التظاهر بالهدوء:

_ لاحظت اهتمامه يا وحيد؛ لكني عاجزة أن أكون شيئًا لأحد؛ أشعر أن مقدرتي على الحب ماتت مع عمار؛ دفنت رغبتي في الحب معه.

_ أنت لا تعرفين داخلك كما ينبغي يا صديقتي؛ كل هذا الحب والعطاء لأطفال أتونا مقاتلين يصدر من نبع حب لا ينضب بموت رجل أعطيته ما يستحق ولكن الله اختاره إلى جواره؛ لا يحق لك الموت وأنت على قيد الحياة. كل ما أتمناه أن تمنحي نفسك فرصة أخرى أنت قبل حافظ ليتقرب منك؛ عديني يا سماح أن تحاولي فقط؟

ارتسمت حيرة مندهشة في عينيها وهمست بصوت مرتعش:

_ أشعر أني أخون عمار بهذا التفكير. ابتسم وحيد بشفقة:

_ أنت تبالغين؛ ماذا لو أن عمار حيًا وأنت لا قدر الله من متّ؟ صدقيني سيتزوج ويحب ويعيش محتفظًا لك بأجمل ذكرى.

تذكر وحيد عمار عندما كان يشكو من شغفها وتعلقها المحموم به؛ ربما لم يحبها بتلك الصورة التي تتمناها امرأة أحبت بكل عاطفتها الجامحة.

ظل وحيد لوقت طويل يرغّب لها مجرد محاولة التواصل مع حافظ ولم يتركها إلا بوعد تقبّل التواصل معه. في طريق عودته إلى منزله ظهرًا فكر في علاقته المبتورة بعفراء؛ هي الجزء الخيالي من حياته حلم أو رؤيا منام جميل؛ آلمه أنها لم ترسل له منذ فترة عدّها

طويلة كثيرًا بقياس الشوق.. لم تتفهم حزنه الكظيم على صديقه؛ لم تتفهم صفعات القدر المتوالية على ضعفه البشري حتى أعجزه عن خطوة ترضي قلبيهما معًا.

لا يدري حقيقة كيف تفكر النساء؟!! تتركك في منتصف كل شيء لأول وهمٍ أنها لا شيء في حياتك؛ مهما كان قربها من روحك وعلمها بما تعاني من هموم إلا أن أقل اهتمام بها سينسف قلبك الذي قدمته لها كأن لم يكن أغلى ما تحب وتتمنى. تبًا لعقول النساء..

وقف في منتصف الطريق ليكتب إليها ما يجيش في نفسه قبل أن ينشغل وينسى نفسه ومشاعره كعادته.

«عفراء.. حين تكون واحتي قيظ؛ وشمسي غائبة؛ أين يسير قلبي في كل هذه العتمة؟

إذا لم تفهمني شطر روحي كيف يجبر الحب كسر هذه الروح؟ أطلت الغياب في غيابك يا عفراء.. وكأنك تعاقبيني بهذا الانقطاع.. "

****

دلف وحيد مكتبه الجديد عصرًا بحسب اتفاقه مع حافظ؛ بدا مكفهر الوجه فسأله حافظ بقلق: هل من جديد؟

رد بحنق: لا شيء سوى احتفالات الصمود في ميدان السبعين وإطلاق وابل من الصواريخ على المملكة ليرد التحالف على كثافة صواريخ الحوثيين بمجزرة مروعة في تهامة ضد نازحين أبرياء. شعر حافظ بالخجل من نفسه فلم يكن يقصد هذا على أية حال فصمت ووحيد يهدر غاضبًا:

_ تهامة المنسية صار ذكرها قيظًا كأحداثها الدامية كجوها الرتيب الساكن؛ كحالها الذي يراوح بين الجوع والقتل؛ لا تذكر مناطق الفقراء كتهامة إلا في إحصائيات الكوارث البشرية أو الطبيعية. تهامة الأوفر خيرًا والأشد فقرًا عانت التهميش ونهب الموارد سابقًا وتعاني الاحتلال المليشاوي بجبروته وسرقاته الفاضحة الآن؛ أخيرًا وهبتها الحرب طرفًا آخر هو قصف التحالف الجائر بلا هوادة وبكل استخفاف.

يعاني نازحو المخيمات أسوأ الظروف وأحلكها فيأتي القصف هدية الصبر والشقاء لهم. قاطعه حافظ قائلًا:

_ ذهبت في غيابك لحضور جلسة تسجيل شهادات المعتقلين؛ استمعنا إلى شهادة المعتقل الشيخ «جمال المعمري». فتح حافظ تسجيل الصوت فظهر صوت المعتقل مرهقًا وهو يقول:

_ هذه القدم أحرقوها حتى تناثر لحمها، عندما كان يحرقها السجان قلت له: «تعشى ويهنأ»، قال لي السجان: ماذا قلت؟ قلت له: أنت تحرق رجلي حسبتك جائعًا تريد أن تأكل، هذا الفعل ما سمعنا عنه إلا في بورما.. غضب السجان لتجلدي وجاء بمثقاب وأحدث في فخذي ثقبين ستظهر في كشف الطب الشرعي) أغلق حافظ التسجيل وهو يقول:

_ هذا المعتقل قضى ثلاثة أعوام خلف القضبان رهينة تعذيب وحشي فقد خلاله نصف جسده في شلل تام. أفرج عنه في اتفاق لتبادل أسرى حرب مع معتقلين مدنيين..

كل يوم وتقذف المعتقلات أشلاء معتقل أو ما تبقى منه يعد محظوظًا فليس من المفقودين الذين لا يعرف هل باتوا فوق الأرض أم في جوفها.

تنهد وحيد وهو يرتمي على أقرب مقعد جالسًا بإنهاك:

_ الوطن كله معتقل يشتعل بالوجع يا صديقي؛ تعز بؤرة مشتعلة لا تهدأ معاركها الجانبية؛ يشعلها أبناؤها العصاة؛ ويطفؤها أبناؤها الغيورون. عدن والحديدة وصنعاء وإب كل المدن تئن في ظل هذا الوضع الشاذ. الأحداث الأخيرة أزاحت الكثير من ضباب الرؤية حول التهاون بالحسم عسكريًّا أو سياسيًّا؛ وستنتهي أحلام الحسم العسكري عند فرض الحل السياسي لكن بشروط الأقوى والأقوى هنا ليست مصلحة الشعوب أبدًا.

****

كن وحيدًا

تبقى أجزاء روحك مجتمعة..

(عفـــراء)

رغم الأحداث العاصفة التي تستحوذ على تفكير وحيد؛ رغم اليأس الذي ينشب مخالبه في غلالة الأمل المنسوجة من حلم الوطن. رغم العتمة التي تزداد في رؤيته للمستقبل.. إلا أن جزءًا من روحه يترقب رسالة من عفراء؛ ترقبها لأيام طويلة غير مصدق أن أشهر قد مرت منذ آخر رسالة أرسلتها هي.

ما زالت عفراء نافذة الهواء النقي التي تمنحه القدرة على الصمود؛ ما زالت ذلك الحلم الذي يشبه الوطن؛ وما زال يسعى للوصول. ربما عفراء اعتادت الغياب وازدحام حياة القاهرة؛ ربما أنساها صخب أم الدنيا أن تتذكر هذا الوحيد الغارق بين الهموم ورمال مأرب؛ الحبيب الذي نضبت منه كلمات الحب واحتلت مكانها مفردات الحرب والنزوح والتشرد والجوع. في رسالته الأخيرة استعطف اهتمامها بذل الفقد لكنها لم ترد!!

هل تعلمت اللامبالاة والقسوة منه؟!! أم أن هناك ما يشغل تفكيرها وقلبها غيره؟

هل يعاود الاتصال بها؟ أم يترك لها حرية اختيار انتظار أمل قد لا يحدث؟

هل يهون حب سنوات طويلة مع تخطيه كل الصعوبات التي مرت لينزلق نحو التبدد بعد أن أوشك أن يصبح رباطًا أبديًّا؟

أصبح لا يحتمل التردد أو الحيرة بين أمرين؛ يفضل المعرفة وإن كانت قاسية؛ يتوق لحسم معاركه حتى تلك العاطفية؛ الحب في الحرب حربًا أخرى.

أرسل لها ذات الرسالة السابقة وأضاف وجهًا مبتسمًا ربما لا يشبه وجهه الذي علاه الحزن والتوجس.

****

لم يدهشها وصول ذات الرسالة فقد استنفذت دهشتها حين وصلت سابقًا.

يلومها أنها أصبحت قيظًا وشمسًا غائبة؛ وهو الذي يتجاهل حتى الرد على رسائلها؛ يتركها بالشهور الطويلة دون اتصال أو رسالة؛ ويشتهي أن تظل متوقدة الشوق لا يؤلمها تجاهله وانشغاله. مهما فكرت في مساندته ولو قلبيًّا لا قيمة لهذه المساندة؛ تضل شيئًا يتذكره وليست شريك حياة يعيشها؛ تظل همومه وحكايات يومه ترمى في حجر زوجته.

هي شيء جميل كلوحة معلقة على جدار؛ لن يأتي ليضع رأسه المتعب على ألوانها الذائبة؛ لديه صدر يتسع لكل تفاصيل حياته؛ هي

فقط لا تملك سوى الحلم أن يكون صدره مأوى وحدتها الصاخبة بكل الأشباح حولها. هي فقط تراه كل شيء ليراها من بين أشيائه بصدفة التذكر. حتى عندما حاولت تقليده في تجاهل الرد على رسالته؛ بقيت هي من يحترق شوقًا وحزنًا.

فيما نساها كعادته وتذكرها بعد أسابيع طويلة فقدت فيها الرغبة في الانتظار.

هل الحياة القاسية تنسينا أولئك الذين نحب وهم الجانب العذب في حياتنا؟!

ألم بارد يعتصر قلبها لشعورها أنها تكتب رسالتها الأخيرة إلى وحيد؛ ربما اليأس أن يتغير شيئًا في حالهما أو حياتهما؛ ربما محاولة بائسة أن تدفعه إلى التمسك بها والسفر إليها وإنهاء هذا العذاب وكل الحيرة بينهما:

«عزيزي وحيد.. ماذا أقول غير تبًا لهذا التواصل البارد؛ كيف له أن ينقل هذه المشاعر التي تأججت في قلبي لتطفئه أنت ببعض الوجوه الصفراء الجامدة؛ تلومني أني لا أفهمك.. أتذكر قبل عام أو أكثر حين أرسلت لك: «أنا في عدن فهل أراك» فتوجهت شمالًا إلى مأرب. حقيقة لم أدرِ لماذا؟!! لكنني فهمت أنه كان اختيارك.

الآن أيضًا لا أفهم لماذا تعزلني عنك؛ عن أحزانك وهمومك؛ لماذا لا تناصفني إياها كما ناصفتني هذه الروح التي تحبك؟ أنا التي تقضي نصف حياتها تحكي لك كيف تعيش النصف الآخر دونك؛

تقربني متى شئت؛ وتلغي وجودي متى أردت. لم أكن لأصدق أنك تحيي وتميت وأن بيدك الجنة والجحيم حتى عايشت لحظاتها؛ لم أكن أدري أن إيماني بك هو سبب عقابي. كنت كأنثى حالمة تتمنى أن تصادف رجلها..

أتمنى أن أصادفه كي أصنع منه تمثالًا من الجمال وأعبده حبًا؛ ذلك الذي سيراني كما أراه. كنت أرى الرجال جدرانًا صماء.. جدرانًا تخنق ولا تحمي؛ يمكنها أن تنقض فتهرسني في أية لحظة أقف في طريقها؛ لم أثق في جدار كي أتكئ عليه؛ أنت فقط هو السقف المرتفع.. سقف أمنياتي.. سقف حمايتي.. سقف أحلامي. وما أبعد هذا السقف عن أصابعي المتعثرة. فهل سقط السقف أخيرًا وهشم أحلامي؟!!

أنت يا وحيد الأمير كنت الأمير الوحيد الذي تمنيت مصادفته ليكون حقيقة أحلامي.

لكنني الآن لا أحتاجك حقيقة.. أو حتى ظل حقيقة.. سأختار لأول مرة.. لنفترق يا وحيد؛ دعنا نفترق. وإذا كان خيط الخيال الذي يجمعنا متينًا سنلتقي يومًا.

****

"قالت: متى نلتقي؟ قال: بعد عام وحرب.

قالت: متى تنتهي الحرب؟ قال: عندما نلتقي.

_ الحرب لا تنتهي يا درويش؛ أربعة أعوام والحرب لا تنتهي؛

أكلت كل شيء حتى قلبي الأخضر. عادت الخيارات الصعبة تطرق عقلك يا وحيد؛ لم يعد الاختيار بين أن تذهب إلى عدن أم إلى مأرب؛ صار الاختيار أن تبقى في وطن يغرق أو تتركه وترحل كما يفعل الكثيرون أمثالك؛ كعادتك تختار الأصعب..

ألن نلتقي يا عفراء؟! لو أننا نلتقي ستنتهي الحرب.. أحين تقررين يومًا أن تختاري تختارين أن نفترق؟!! ترين أن ما بيننا خيطًا من الخيال؟! نصف الروح محض خيال؟ انتظار سنوات تنتهي بفراق قبل اللقاء؟

تبدين جادة يا عفراء وأبدو عاجزًا عن الدفاع عن الحب كعادتي؛ إنه ذلك العجز أمام الفقد الذي يلازمني؛ يجعلني أرفع كفيّ استسلامًا للقضاء كما رفعت كفك الحبيبة مودعة. وها أنا أعود إلى كآبتي؛ صاحب الابتسامة القتيلة؛ أكتب كعجوز منهزم؛ هزمته الحرب التي لا تنتهي والحب الذي لا يأتي..

كوطني أنتظر عاجزًا أن أصنع قدري وحدي؛ كوطني مددت يدي لقشة قصمت ظهري.

ما أصعب أن أمحو حزنًا نحت على صفحات الوجوه؛ ما أصعب أن تبتسم وكل شيء فيك يبكي؛ أأحفر في الحزن وجهًا يبتسم؟

أنتظر خيط الخيال أن يصبح حقيقة؛ أنتظر وأكتب يا عفراء حكايتي؛ حكاية الوطن؛ حكايتنا معًا. تلك التي لم تنته. أنا وأنت طرفا جرح لهذا الوطن؛ ينبغي أن نلتقي كي يلتئم.. سأنتظر وأغني مع

«لطفي بوشناق»:

أنا اليمني يا وجع اليماني..
وجرح الأرض تحمله اليدان..
بلادي ...يا بلادي أي صمتٍ
سيخلق ما تفجر من بياني..
وصوت الحق يزأر كل حينٍ...
وينطق في الدماء بلا لساني..
طلبنا السلم والطاغوت يأبى..
غرمنا العيش في كنف الأماني!
صبرنا صبر من عشق البلادَ ...
وقلنا النصر أو خلد الجنانِ..
أنا اليمني...هذا البيت بيتي...
ولي صنعاء تمطر بالجرماني...
وفي تعز سأصمد والمكلا..
وفي عدن سأثبت في مكاني
بلادي ... يا بلادي..
أيا نهرًا تفجر في الفؤاد وفي الكيان...

جعلـت الحـب نبراسًـا لقلبـي...

وعشـق الأرض تنسـجه المعـاني..

ومعنـى الحـب أن الأرض تبقـى ...

ويبقـى النصـر في مقـل اليمـاني..

أنـا اليمنـي يـا وجـع اليمـاني...

وجـرح الأرض تحملـه اليـدانِ..

انتهى الجزء الثاني بحمد الله

أنا من أولئك الذين يعشقون تراب الوطن

فيدفنهم بالنسيان.

(وحيـــــد)

يقف وحيد في حجرة مكتبه في صنعاء يتفقد بنظراته أثاث المكتب الحميم مبتسمًا في سعادة؛ تلك الابتسامة التي تشرق لها ملامح وجهه. ينتظر قدومها.. عفراء حبيبة القلب وصديقة الروح. تقدم بخطوات متأنية يتحسس أثاث المكتب بشوق صديق قديم ما زال يحمل رائحة أصدقائه الذين رحلوا وتركوا بصماتهم على الأثاث وقلبه.

الطرقات الخفيفة وانفراج الباب جعلاه يلتفت نحو القادمة بفرح عاصف.

كانت ترتدي غطاء شعرها الأزرق الذي تحبه؛ تقترب بعودها المكتمل امتلاءً في خطوات مرتبكة؛ أخيرًا ها نحن نلتقي حيث لن نفترق؛ قطع الخطوات القليلة بينهما بلهفة وهو يقول: قلت لك: سنلتقي يا عفراء لم يكن ما بيننا خيط من الدخان أيها الشعراء؛ بل انصهار عاطفي جمعنا شخصًا واحدًا. انطفأت ابتسامتها عندما اهتز المكان بأكمله لصوت انفجار قريب. ضمها وحيد إلى صدره بقوة وهو يقول بقلق:

ـ لا تخافي؛ يقصفون صنعاء كالعادة؛ ربما اكتشفوا مخزن أسلحة بين المنازل وهم لا يرون منازلنا حوله. صرخت بفزع وانفجار آخر يطيح بزجاج حجرات المبنى:

ـ إنهم يقصفوننا يا وحيد. ضمها إليه أكثر وهو يهمس بقلق أشد:

ـ تعالي نخرج من هنا.. لا تخافي أرجوك.

تعالت صرخات الناس مع دوي الانفجارات ووحيد يهرول متشبثًا بعفراء عبر درجات المبنى؛ لا يدري من أين أتى كل هؤلاء الناس الذين يتدافعون أمامه وخلفه ويصرخون برعب زاد من قلقه وخوفه. يتعثرون ويسقطون فتدوسهم الخطوات الهاربة؛ يحيط كتف عفراء بذراعه ويشدها إليه بقوة تعيق تحركهما معًا؛ يخشى أن يفقدها مجددًا. بكاء وعويل يتصاعد وأجساد تتدافع؛ دخان يتصاعد من رؤوس الناس وكأنهم يحترقون. دوى انفجار متوحش.. انتزع كتف عفراء من تحت ذراعه التي تمسكها؛ شعر أن جزءًا من جسده يسقط؛ غامت عيناه ودوي يفتك برأسه قبل أن يسقط ما تبقى من جسده في دوامة سوداء تمتلئ بالصراخ والأنين.

يقاوم انطباق جفنيه بقوة وهو يئن بصوت لا يغادر حلقه؛ يسمع صوت عفراء تناديه من بعيد وهي تبكي بصوت واهن كالغريقة.. لعلها جريحة تحت الأنقاض.

ينهض وهو يشعر أنه ما زال ممددًا؛ أيدي نحيلة كثيرة تتمسك برجليه وأصوات تصرخ به: أبي.. سأذهب للقتال أنا.. زحف بين

رمال؛ رمال تمتد حتى الأفق؛ لا مباني ولا بشر؛ رمال وبكاء خافت يأتي من مكان لا يراه.

أجساد غارقة في الدماء تظهر كلما تقدم في زحفه بحثًا عن عفراء؛ يشعر أنه يعرفهم جميعًا؛ كم يشبه هذا عمار صديقه الحبيب؛ مسكينة سماح كم ستحزن؟!!

يتعثر بهم فيحتضنهم معتذرًا وهو يبكي دون صوت أو دموع. يرى عفراء هناك بعيدًا تضم ركبتيها إلى صدرها منكمشة كطفلة من شدة الخوف وغطاء رأسها الأزرق يحجب وجهها تمامًا. يزحف بسرعة أشد وصوت طفولي يأتي من خلفه مرددًا بنشيج موجع: أبي أين أنت؟ وصلت يداه إلى جسد عفراء الهامد وصرخ بلوعة مدوية وهو يرى جسدها غارق في بركة ماء؛ كان يعوي دون صوت؛ يبكي دون دموع؛ يئن بكل الوجع.

انتشل جسدها البارد المبتل؛ أصبح متصلبًا قد فارقته الروح؛ ضمها إلى صدره للمرة الأخيرة جاثيًا على ركبتيه في رمال صحراء مترامية؛ لم يعد يسمع شيئًا سوى صدى صرخاته ترددها الصحراء؛ مد يده إلى غطاء رأسها الأزرق ليزيحه في نظرة أخيرة ليظهر له وجه شائف صديقه الأثير.

كم تمنى أن يرى وجه شائف وهو يدفنه بيديه بعد استشهاده في جبهة صرواح. قالوا له أن القذيفة شوهت وجهه كثيرًا فلم يره. لكنه الآن يبدو كالنائم وابتسامته تملأ وجهه؛ حتى لحيته المهذبة دومًا تبدو في أجمل حالاتها.

قبل جبينه مرات كثيرة وقد نسي عفراء وبحثه عنها أمام رؤية

صديقه المخلص. ترك جسد صديقه ونهض يجرى دون توقف؛ لم يعد يدري عما يبحث!! عفراء؟ أم شائف؟ أم أحمد النويرة وطفليه؟ سميرة وأولاده أين هم؟ عما يبحث في هذه الصحراء المترامية؟ هل يبحث عن وطن؟ يجري وهو يحمل بيد واحدة علم الجمهورية كجندي في معركة. يجري شاعرًا بألم شديد في ذراعه التي كانت تضم عفراء وهما يهربان من القصف. حاول أن يمسك ذراعه التي تؤلمه؛ مد يده الأخرى التي تمسك العلم دون أن يتوقف عن الجري وكانت صدمته مروعة! لم يجد ذراعه وتوقف برعب وهو يطالع نصف جسده المبتور!! كيف استطاع أن يسير كل هذه المسافة بنصف جسد؛ بنصف روح؟ وإلى أين سيذهب في صحراء الوطن هذه؟!! استمر يصرخ دون صوت ويجري دون توقف.

****

_ وحيد استيقظ.. استيقظ أنت تحلم.

فتح عيناه الغارقة في الدموع؛ وتأمل حجرة مكتبه في البيت؛ في مأرب ليس سواها؛ ينام هنا أغلب لياليه حين يصيبه الأرق فيغادر حجرة نومه تاركًا سميرة تغط في النوم بهدوء دون أن يزعجها بتقلبه في الفراش. لم تكن تدخل حجرة مكتبه حتى لتنظيفها نزولًا عند رغبته؛ ينظف مكتبه ويحافظ على فوضاه كما يحب.

لكنها الآن هنا توقظه للصلاة وتنقذه من كابوس مريع رأى فيه حياته تقتل مرات في قصف وموت وأنهار من الدم؛ رأى رفاقه مجندلين ورأى عفراء تغرق في الموت.

هل صرخ باسمها يا ترى؟!! مسح وجهه بكفيه وهو يقول لزوجته

محاولًا أن يطمئن لما ردده في الحلم: «صباح الخير؛ لم أسمع أذان الفجر حتى؛ هل كان صوتي مرتفعًا حتى بلغك؟ ردت وهي تواصل رفع الكتب عن الأرض على ضوء الصباح الذي يشق طريقه عبر النافذة الخالية من الستائر: لا تقلق كنت تغمغم بكلمات غير مفهومة؛ أتيت كي أطمئن عليك بعد أن غادرت الحجرة مؤرقًا في نومك.

ابتسم برضا متجاهلًا تلميحها وهو يقول: ما أجملك يا سميرتي. أنقذتني من كابوس كاد يفتك بي. ضحكت وهي تنفض يديها من غبار علق بهما قائلة له:

_ أنت كثير الأحلام منذ عرفتك؛ رؤاك هذه تلاحقك كحياة أخرى في نومك؛ لا أظنك ستموت إلا بسبب حلم كما تقول. ابتسم بحزن وهو يردد لنفسه مراقبًا خروجها من مكتبه: ربما يا سميرة يقتلني ذات حلم حقًا.. ألم يعد الوطن حلم؟ والحب حلم؟ وحتى الحياة كما ينبغي صارت حلمًا.

قبل خمس سنوات كنت شاب الروح ممتلئًا بالحياة؛ مفعمًا بالأمل؛ مكتظًا بزحام الطموح والأمنيات. قبل خمس سنوات أيضًا لم يقتل كل هؤلاء البشر لم يكن هناك مجازر ومعتقلات وصواريخ وألغام ودمار؛ آه.. ماذا فعلت فينا الحرب؟!!

لا جديد فأنا ما زلت في مأرب أفكر بالرحيل ولا أرحل؛ أود البقاء فأغرق أكثر؛ أتنقل بين أجزاء الوطن كأني أجوب العدم. وما زلت أحبك أيضًا يا عفراء وما زلت أدفن رفاقي كل يوم وأكبر ويكبر حزني. عفراء.. لعل الشيء المتبقي لي منك هو أن أكتب لك.

****

الحياة معترك صراع رهيب

أقل خسائرك فيها أن تفقد حياتك؛

وأعظم خسائرك فيها أن تفقد

مبادئك وأفكارك التي تؤمن بها.

(ماهـــــر)

ندرك قسوة المواقف الخانقة في الحياة لكن أقساها تلك التي تضطر فيها إلى مناقضة نفسك بدافع غامض ربما يكون الخوف الذي لا تعترف به لنفسك حتى؛ الخوف أن تكون قضية عمرك مجرد هراء!

انطفأت مخاوف سميرة على ولدها مراد الذي عشق لعبة الحرب والسلاح وترديد «زوامل الحرب» بعد مقتل رفيقه الأعز «شاهر» في صفوف الحوثي. اعتزل مراد الاهتمام بالحرب بطرفيها وانكمش على نفسه بصدمة الفاجعة حين قتل صديقه فقط لأن الحرب فرضت هذا الخيار.

لكن «ماهر» ابن التاسعة عشرة الرصين والهادئ منذ صغره كان فاجعة وحيد المخبأة. فاجأه ذات يوم برصانته المعهودة كأمه قائلًا:

ـ أريد الاستئذان في اللحاق بجبهة صرواح. لوهلة ظل وحيد يحدق في ولده عاجزًا عن فهم هذه الرغبة لشاب ما زال شاربه يصارع الظهور. قال له بهدوء: هذه الفكرة انزعها من رأسك تمامًا.

ـ هذه رغبة وليست فكرة يا أبي؛ سأذهب إلى القتال وهذا ما ينبغي علينا فعله؛ لم يعد هناك بيت إلا وفيه من يقاتل؛ سأذهب أنا كي أقاتل يا أبي ما دمت تكتب.

ـ اسمع يا ماهر هذه الحرب أكلت رفاقي كما أكلت الكثير من الشباب؛ لن أترك ابني وقودًا لها أتفهم ذلك؟

ارتسمت ابتسامة طفيفة على وجه ماهر» رغم مكابدته إخفاء سخريتها:

ـ هل تعني أنك تناقض كل ما تكتب في مقالاتك وكتاباتك عن التضحية من أجل الوطن واستعادة الجمهورية من فم الإمامة؟ هل تعني أن كل هذا الكلام في قنوات التلفاز ومواقع الأخبار مجرد شعارات كي تقود أبناء غيرك للقتال فقط.

ضم وحيد شفتيه بقوة وهو يصر من بين أسنانه:

ـ الوضع اختلف يا ولدي.. نعم حلم الدولة واستعادة الجمهورية هدفي وما أدعو إليه؛ لكن هذه هي السنة الخامسة لحرب تقاد بصورة عبثية؛ هذا يعني أنها ستطول ما دام ضحاياها أبناء البسطاء؛ ما دام خلفها من يتاجر بهم؛ ما دام هناك فئة تنتفع وتعتاش منها؛ ستطول ويفني كل من نحب. أنا أب ومن حقي أن أخاف على حياة ولدي وأتمنى له الشهادة الجامعية والعيش الكريم وليس شهادة الموت وما زال غض الغصن. يجب أن تعلم أن ما أدعو إليه هو الحياة الكريمة الحرة وليس الموت في الجبال كي تأكلك الكلاب وأعجز حتى عن

دفنك. صارت الحرب لعبة وشبابنا بيادق فقط فكيف أسلمك للموت وأنت أغلى من نفسي؟

تذكر وحيد قصة روتها له زوجته سميرة عن عاقل الحارة الذي باع نفسه لشيطان السيد وملكوت الولاية؛ وأرسل ولده مرغمًا للدفاع عن أطماع السيد؛ كلما عاد الولد فارًا من الجبهة أعاده والده مكبلاً للجهاد.. أي قلب لذلك الأب.. عندما عاد ولده جريحًا لم تشفع له جراحه بل أعاده إلى جبهة القتال مسحوبًا وملطخًا بدمائه؛ في آخر نوايا الهرب تلقفه لغم أرضي من صنع رفاقه كان رحيمًا به كأبيه. اشتد انفعال وحيد وخشي أن صدامه مع ولده يزيده إصرارًا. فكر أن يؤثر على عاطفة «ماهر» بدلًا من إرغامه لعل ولده كبر كثيرًا في هذه السنوات الأربع وصارت له إرادة مستقلة. زفر وحيد برجاء:

_ لا تفجع قلب أمك يا ماهر؛ هي تراكم الحياة كلها فلا تحرمها حياتها برحيك للقتال.

أعرف أن قرارك هذا قرار رجل شجاع أقدره كثيرًا لكن الشجاعة الحقيقية أن تتخلى عما تريد من أجل من يريدك يا ماهر. ثم إني سأسافر قريبًا إلى تعز لرؤية أبناء صديقي أحمد النويرة وتعرف كم السفر في وطننا مكللًا بالمخاطر؛ لمن أترك أمك وأخوتك إن لم تكن أنت لهم أبًا في غيابي ومن بعدي؟ رد ماهر بعناد:

_ حسنًا يا أبي سنؤجل الحديث حول قراري حتى تعود من سفرك؛ أنت أبي الذي أؤمن به وأؤمن بما يقول ويفعل.

تنهد وحيد في يأس لماذا أصبح الأبناء يحملون هذه اللغة العدائية في أحاديثهم مع آبائهم؟!!رغم أنه لا يتذكر أبيه كثيرًا لكنه كان لأمه خاضع ذليل رأفة بها؛ أصبح هذا الجيل أكثر تعقيدًا وقدرة على المجادلة زفر بضيق:

_ نعم نؤجله يا ماهر على أن تفكر مليًّا في حديثي وأفكر في قرارك.

****

أنا في تعز من أجل زيارة رعد ورهف أبناء صديقي أحمد النويرة. لن تتخيلي ما معنى أن يسافر الشخص من مأرب إلى تعز؛ فاجعة السفر عبر المدن التي تسمى محررة!؛ استغرق السفر مني ثلاثة أيام كاملة. سافرت على متن حافلة كبيرة للنقل الجماعي بتذكرة خيالية. قضيت ليلة في عراء الصحراء على أبواب مدينة عدن العاصمة المؤقتة؛ بعد رفضهم دخول الشماليين كالعادة. سافرت عبر عدن لأنها _ كما أظن_ الطريق الآمن لصحفي مطارد عوضًا عن طريق البيضاء _ ذمار حيث تصبح نقاط التفتيش مصائد لالتقاط الناس.

أنا في تعز أرتب لدراسة أبناء صديقي الراحل؛ وجودي أتى مصادفة كي أشهد ثورة الجياع التي انطلقت في شوارع المدينة احتجاجًا على وضعنا الاقتصادي الذي انهار فعلًا وبدت ملامح المجاعة البشعة تتشكل في كل اليمن.

حتى عبارة وضعنا الاقتصادي تبدو لي منهارة حيث لا اقتصاد في بلد يعاني احتلالًا مزدوجًا. المظاهرات الاحتجاجية في تعز على

أشدها. هذه الروح الثورية الوثابة تلائم طبيعة المدينة المالحة؛ كل شيء في تعز له إيقاع سريع مختلف؛ لهجاتها وزي سكانها الغالب؛ وتفخيم الأنا المفرط لفظًا وإعلامًا. إنها ثورة الجياع يا عفراء.

الجوع! من ندلل أصحابه بلفظ الفقراء والمحتاجين ونضع حول اللفظ قوسين كحماية مما يلحق بنا من خزي وحرج، الجوع يزحف كالظلام بصمت دون ضجيج احتجاج. يعري البطون الخاوية كما يعري الضمائر المرتخية. يتسلل تدريجيًّا حتى يقيم مملكة المجاعة على أنقاض الكرامة والحرية، الجوع أيسر الطرق للاستعباد والخذلان.

الشيء المثير للدهشة هي تلك السكرة من الذهول التي تغشى وجوه الناس لوصولنا إلى هذه الحالة السريرية؛ كأن الحرب هي الموت الذي جعل حمى الجوع مقبولة ومسكوت عنها. نظرات الناس تلهث بصوت مسموع تصدم الجماد والأحياء ولا تصل لأموات السياسة؛ ذوو الكروش المستديرة والطاولات المستديرة وحلقة مشاكلنا المستديرة بلا نقطة نهاية. الساسة الذين لا يعرفون الحاجة أو العجز أمام متطلبات الحياة والذي تواجهه أسر أفقدها غياب فتات الأجور وهبوط العملة المحلية حسها الثوري وغيرتها المكبوتة. فتطلعت برجاء لحل سلمي لإنقاذ ما يمكن إنقاذه في حين يماطل هؤلاء الساسة في منح أبسط حق لهذا الشعب الذي تنازعته سلطتان ودولتان وحكومتان كلُ تبحث لها عن موطئ قدم على ظهر هذا الشعب المثقل.

يتساءل الناس عما يجول في أذهان هؤلاء الذين نصبوا أنفسهم حكامًا واستولوا على دولة بكل مواردها ولم يكتفوا بل سعوا لما في جيوب البسطاء من ريالات قليلة!

ماذا تقول لهم عقولهم المتعفنة عن معاناة هذا الشعب الذين هم مسؤولون عنه كحكام، وإلى متى تجتمع الحرب والجوع كمحراثٍ من معاناة على ظهر اليمنيين.

الآن ومع انقطاع الأجور لما يقرب من أربع سنوات انكفأت عائلات على بؤسها تشكو فاقتها إلى الله، وتتسول معونات المنظمات.

ها هي تعز سباقة كعادتها لتخرج منددة بسياسة التحالف وفساد الشرعية وإجرام الحوثية. في صنعاء أيضًا وإب حاول طلبة الجامعة الخروج منددين ضد الجوع؛ لكن مليشيا الحوثيين واجهت احتجاجهم البسيط بوحشية لا تصدق؛ انهالت الهراوات على أجساد الفتيات؛ واعتقلن على ظهور الأطقم العسكرية في فاجعة لم يشهدها مجتمعنا المحافظ. حقًا أن دولة الشرعية خيال مآتة لم تفزع الجوع بل ضمت الفساد على أوسع نطاق؛ إنما يكفينا من خيال الدولة هذا في تعز أن مظاهرات الجياع لم تقابل بتلك الوحشية المروعة كما في صنعاء وإب.

عزيزتي عفراء. خمسة أشهر منذ رسالتك النارية عن وجوب الفراق؛ لم يحدث الجديد فيّ أو في وطني؛ بل المزيد من الضياع؛ المزيد من التشظي والخراب والحزن.. والعجز رفيقي الدائم.. انقطعت أخبارك عني لكني أتخيلك دائمًا وأحدثك بكل شيء كما كنت تفعلين أنت؛

أكتب إليك يوميات حربنا التي لا تنتهي وإن لم أرسلها.

أتخيلك هناك في القاهرة تزورين صديقاتك وتبتسمين عند تذكرك حبك الضائع لرجل عجز أن يتخذ قرار اللقاء. ربما البعد أنساك هذا الحب ولعل هذا أفضل من حياة كنا سنتقاسمها تحت ظل الخوف والجوع والحرب.

****

نزلت في ضيافة صديقي ماجد؛ شاب نشط يتنقل من مكان إلى آخر ضمن عمله في منظمة إنسانية؛ يرتدي دائمًا كوفية تغطي صلعته المبكرة صارت مع النظارة الشمسية جزءًا من وجهه الذي لوحته الشمس في تنقلاته الدائمة بين القرى.

فارع الطول كفاية لتصبح الخطوة لديه بمثابة خطوتين كأنما خلق ليكون عداء وهكذا أصبح في عمله الشاق. تجاوز الثلاثين وما زال يحتفظ بحريته كعازب؛ كلما نعته رفاقه بالعجز عن تحمل مسؤولية أسرة يضحك قائلًا: كيف وأنا أهتم برعاية عشرات الأسر.

في طريقنا إلى «الباب الكبير» أحد الأماكن الحميمية والتاريخية في تعز؛ مررنا بسوق «اللقمة» الذي اشتهر ببيع أنواع الخبز البلدي ومن هنا جاءت تسميته رغم احتوائه على الكثير من البضاعة كالفاكهة والخضار والقات أيضًا.

في أعلى السوق استقر بنا الجلوس في قهوة «الشُعبي» قريبًا من جامع المظفر؛ كعادة أغلب المقاهي الشعبية المقاعد خشبية عريضة

وبراد الشاي الكبير في مدخل القهوة. سألته ونحن نجلس لاحتساء الشاي الأحمر: كيف ترى عمل الإغاثة؟ هل يساعد الناس بالشكل المرجو؟ مط شفتيه وهو يضع كوب الشاي من يده قائلًا:

_ للأسف ليس كما ينبغي؛ إنها لا تصل إلى كل من يحتاجها؛ ربما لا تصل لمن يحتاجها فعلًا؛ يوجد لدينا مناطق نائية ولصوص الإغاثة كثيرون. سأقص عليك قصة لتعرف منها ما أعني؛ في إحدى القرى أتى إليّ رجل متوسط العمر قال لي إنه يعرف نساء من قربة بعيدة يعشن وحيدات أعلى الجبل لا يجدن ما يأكلن ولا تصل إليهن أي معونة وأنه يذهب لتفقدهن بدافع الشفقة؛ لكن الجوع والفقر أوصلهن إلى حالة صحية سيئة. ذهبت معه إلى منطقته؛ أسفل الجبل أشار إلي الرجل المتهالك من التعب قائلًا وهو يلهث: هناك أعلى الجبل ستجدها مع بناتها؛ وأعذرني لم أعد قادرًا على مرافقتك لمشقة الصعود؛ أنا أزورهن مرة كل أسبوع وأتعب بسبب ذلك تعبًا شديدًا وأعجز عن حمل ما يكفيهن؛ وبسط كفيه بيأس: لا تصل السيارات إلى هناك وليس لدي حمار.

قلت له بامتنان صادق: لا عليك؛ أستطيع اكمال الطريق وحدي.. شكرًا لك.

صعدت المنحدرات المعشبة وثبًا؛ المسافة طويلة فعلًا؛ لا أفهم سر العشق اليمني للسكن في أماكن صعبة الوصول؛ اختيار الإنسان اليمني بناء قراه على حافة الأفق قريبًا من السماء؛ بعيدًا عن وديانه التي يرعاها ويشق عليه أحيانًا الهبوط إليها والصعود منها. لم يكن

هناك قرية كما توقعت بل ركام مساكن قديمة متهالكة ومهجورة تعد على الأصابع. وأنا أمضي نحو البيت الذي بدا حيًا بينها ظهرت أزواج العيون الواحدة تلو الأخرى لفتيات نحيلات بأسمال مهترئة؛ لم تنس الفتيات رغم فاقتهن الواضحة تغطية وجوههن لا تظهر سوى عيون مستطلعة؛ ربما البرد في المكان هو السبب الأول لوجود اللثام على وجوه الفتيات الصغيرات فلا ناس ولا غرباء هنا باستثنائي. سألتهن بابتسامة متوددة ما إن اقتربت: أين الجدة يا صغيرات؟

فتدافعن إلى داخل البيت كل واحدة تنقل الخبر إلى جدتها. الجوع يبرز في محاجر أعينهن الغارقة داخل الجماجم الصغيرة؛ أعتصر الوجع قلبي بقوة؛ ما إن برزت الجدة العتيدة حتى أسود الأفق أمامي. كانت عجوزًا لا يكسو عظامها سوى جلد تشقق لشدة الأعمال التي تنوء تحت ثقلها؛ اقتربت مني بفرحة شديدة كان الرجل قد حدثها أني سآتي إليهم بما يسد جوعهم. من حديثها الطويل عرفت أنها رجل البيت المتهالك هذا بعد موت زوجها من سنوات طويلة؛ ورحيل ولدها الأكبر للتجنيد مع الشرعية واستشهاده في صرواح؛ ترك زوجته مع خمس فتيات وولد مريضًا؛ ليرحل بعدها ولدها الثاني ليقاتل مع الحوثيين ليختفي منذ سنتين لا تعرف هل هو حي أم ميت وترك لها زوجته وابنتيه. تحدث كيف كانت بيوت القرية عامرة بالناس لكنهم نزحوا من الفاقة والجوع وعجزت هي أن تذهب إلى أي مكان؛ وحيدة مع عائلتها الكبيرة من النساء فقط. غادرتهم تلاحقني أزواج العيون الجائعة؛ تعثرت خطواتي وأنا أتخيل كم من الأسر المنقطعة في أماكن

معزولة كهذا المكان؛ ينهشها الجوع ولا تصل إليها إغاثات المنظمات الإنسانية! كم من عشش للفقراء على سواحل تهامة وصحرائها لا يصل خبرها إلى رعاة الإنسانية المجزئة. كم من أفواه أطبقها الجوع والحياء والعجز وبُعد الشقة وطول المشقة؟!! مهما بذلت المنظمات من نوايا حسنة تظل تسكب خيرها في حِجر المليشيا وأعوانها ويستفيد منها نزر بسيط من المقصودين بالإعانات؛ هذه حقيقة الحروب يا صديقي لهذا تنتشر المجاعة ويموت الناس؛ يقتل من لا يستحق ويشبع من لا يجوع ويكرم الهين وينتصر الشر.. هذه هي حقيقة الحرب.

لوحت للفتيات مودعًا وواعدًا بالعودة بما تحتاجه الأسرة والألم يعتصر قلبي لحال النساء في الوطن؛ المرأة يقع على كاهلها وجع الحرب كله. لعلك فهمت كيف يبدو الأمر.

غصّ حلق وحيد بمرارة لا حد لها هامسًا: المصيبة يا صديقي أننا نفهم ما يدور حولنا؛ نفهم ونعجز عن تغييره وأحيانًا الاحتجاج على حدوثه. نهض ماجد وهو يقول:

ـ قم بنا نذهب إلى شاعرنا عبد المولى سيسعد كثيرًا برؤيتك.

ـ أتقصد «عبد المولى الصبري» ظننته ترك البلاد فيمن تركها.

ـ لا؛ لم يفعل رغم كل ما ناله وما آل إليه حاله؛ عاد من صنعاء مثقل بالقهر والفقر؛ يلتحف الأرصفة بين العقل والجنون. صديقه ورفيق عمره طعنه في الظهر واستولى على مال شراكتهما مستغلًا رميه في المعتقل بحجة مناهضة الحوثيين بقصائده؛ من سوء حظ عبد

المولى أن صديقه هاشمي يحسن جمع المال وليس شاعرًا يحسن نثر الكلمات عن الوطن والوفاء.

مضيا في طريقهما مرورًا بركام المنازل التي وصلتها قذائف الحوثيين؛ الشارع مكتظ بالحياة والأطفال كأنما لم تمر الحرب من هنا. مشهد الأطفال يتنقلون بعبوات الماء الثقيلة بين منازلهم وخزان الماء المتوقف وسط الحي هو الصورة الواضحة للحرب.

كان عبد المولى يفترش الرصيف فعلًا يحدق في اللاشيء ثابت النظرات كأنه يحلل تفاصيل هذا الفراغ؛ لم يلحظ الرجلين الذين وقفا قريبًا منه ولا صوت أحدهما وهو يناديه: كيف حالك شاعرنا المجيد؟

التفت عبد المولى نحوه ببطء وهو يقول: أهلًا بصديق الجميع حتى الأعداء. ابتسم ماجد بانتعاش وهو يقول: جئتك بصديق قديم ستسعد برؤيته كثيرًا.

مط شفتيه إلى أقصاهما وهو يغمغم: الذين يتساقطون من قلوبنا ومن حساباتنا أكثر من الذي تمطر بهم سحب الغيب؛ لم أعد أبكي لفقد حبيب أو أسعد لمجيء صديق.

جلس «وحيد» ملاصقًا له وهو يحيطه بذراعه قائلًا: يكفي سعادتي برؤيتك بخير يا عبد المولى. التفت عبد المولى مدهوشًا وهو يقهقه معانقًا وحيد:

_ وحيد الأمير.. يا أجمل الطيبين؛ أنت هنا؟ آخر ما سمعت عنك أنك مت كجرذان الصحراء الهاربة؛ ملقى على ظهرك تعدد خيباتك؛

متى عدت من الموت؟ عانقه وحيد بتأثر.. يا الله كم أشقت الحرب قلوبنا وكم هتكت من ستر.

ظل الثلاثة يتقاذفون الكلمات طوال فترة الصباح على الرصيف كأنه وطن القلوب في الشتات. تحدثوا عما حدث لعبد المولى من سرقة ظاهرة لأمواله؛ حين سأله «وحيد» _ هل واجهت صديقك بما كان بينكما؟ قال وهو يقف موليًا ظهره للرجلين:

_ يا صديقي أنا لا أجابه أحدًا بما فعل بملء رغبته؛ هذا العالم متسخ كثيرًا؛ يكفيه أني أحتقره في أعماقي. هو غير جدير حتى بعتابي لشدة سوء فعله؛ لا أستطيع أن أحمل أحدًا أخلاقًا لا يستطيع أن يحملها في قلبه.

كان عبد المولى شاعر القصائد اللاهبة؛ وأصبح شاعرًا بكل القهر والخديعة اللذين لاقاهما في حياته..

****

قطع هذه المسافة الطويلة من أجلهما؛ من أجل صداقة عمدها أبوهما بالدم والتضحية. قطع مسافات «باعد بين أسفارنا» من أجل طفلين لا يتذكرانه حتى فآخر مرة رآهما كانت رهف مولودة صغيرة ورعد لا يعي وجوه أصدقاء أبيه؛ كان ذلك قبل أن ينزح بهم «أحمد النويرة» من صنعاء إلى ريف تعز. أتى من أجلهما وها هو خائف كثيرًا من النظر في وجهيهما الصغيرين؛ خائف أن يرى ملامح رفيق دربه وصديقه الأقرب في طفليه. خائف أن تجتاحه ذكرى تلك الأيام

المضنية حين ترك صديقه يواجه الاعتقال والموت تحت التعذيب فيما آثر هو الهروب إلى مأرب.

في مدخل البيت الريفي المتواضع وقف مع خال الطفلين ينتظرهما فيما توارت زوجة صديقه بعد ترحيب قصير. أحنى رأسه احترامًا لصوتها المتهدج وهي ترحب به؛ خاطبها بانكسار يرزح تحت عبء الحياة بعد ذلك الصديق النادر. لا شيء يمكنه أن يقال لزوجة معتقل قتل زوجها هرسًا تحت أدوات التعذيب.

السعادة التي أطلت من ملامح الصغيرين لرؤية الألعاب ودفاتر التلوين مثلت بلسمًا لقلب وحيد؛ قضّى اليوم برفقتهما وخالهما يتجولون في أزقة القرية وحقولها؛ يشيران لوحيد بأماكن اللعب وبطولاته؛ يريانه المبنى الذي يعد مدرسة القرية؛ يدركان تمامًا أن هذا صديق الأب الغائب وكأنه سيخبر أباهما بكل الأعمال التي يقومان بها؛ تباريا في أخباره بنشاطهما وأعمالهما التي تسر والدتهم.

والدة الطفلين معلمة؛ حين أوصلها زوجها إلى ريف تعز بعد اجتياح صنعاء وعاد من أجل عمله آثرت أن تقوم بتدريس تلامذة القرية في عمل تطوعي منها؛ تشعر بفداحة الفراق والخوف على زوجها؛ رفض مناشداتها البقاء في القرية وآثر العودة إلى العاصمة على أن يرتب للاستقرار في مدينة تعز؛ تباعد الحلم بمرور الشهور وتبخر حين تم اعتقاله. شهور مضنية من الحزن والبحث عنه؛ تنتهي بخبر مقتله تحت التعذيب؛ جاء بالخبر شخص خرج من المعتقل بعد أن حمل جثمان زوجها بين يديه وهو يحتضر. آخر كلماته كما قال الرجل حين أوصى أن يهتم صديقه «وحيد» بطفليه.

كم تساءلت: أين جثمانه؟ هل تم دفنه؟ هل رموه في العراء؟

تعود لتخاطب نفسها: لا يهم سيظل ماثلًا في خيالي وذاكرتي كآخر مرة افترقا فيها؛ متفائلًا باللقاء بنا في أقرب وقت. تواسي وحشتها أن لا فائدة من رؤيته وقد هشم التعذيب ملامحه ومحا ابتسامته المتفائلة فهذا سيدمر روحها أكثر.

لكنها رغمًا عنها تنتظر عودته؛ كأنما سيأتي صديق آخر له كما أتى السابق ليقول لها أنه لم يقتل؛ وأنه حيّ وسيعود لها ولطفليه وسيبقى في تعز كما وعدها.

غير مصدقة أن ذلك الوداع المفعم بالتفاؤل ينتهي بقتله تعذيبًا على أيدي أقبح البشر.

عندما اتصل صديقه «وحيد» يخبرها أنه سيزور الطفلين بعث في صدرها كل أوجاع الشهور السابقة التي تكابدها على أمل يائس؛ لم يكن زوجها ليفترق عن صديقه هذا..

ماذا لو كان معه كما كانا دائمًا. إن أعظم الخيبات ما كان على أمل.. قتل زوجها بأقسى طرق الموت؛ لكن طفليه يجب أن يعيشا حياة مستقرة فلا يفقداها باليأس كما فقدا أباهما بالموت. يجب أن تتجاوز فكرة أن ترى جثمانه كي تقطع الأمل؛ لطالما سمعت عن معتقلين يقتلون تحت التعذيب ويدفنون في أماكن مجهولة أو مقابر جماعية لا يعرف أصحابها؛ لم تكن تتخيل أن يكون زوجها أحد هؤلاء المقهورين.

المقابر لا تحفر إلا لهذا الشعب ليس في مناطق الحوثيين فقط؛ سبق وعثر على مقابر في عدن وفي تعز. الطغاة في كل مكان حتى وإن أخفوا جثث الضحايا ستظل أرواحهم لعنة تطارد القتلة؛ وستظل عذابات الأرامل والأيتام أرواحًا مفعمة بالانتقام كأنما كل روح هي أرواح مجتمعة روح القتيل وروح من بعده.

****

أصر رفاق وحيد المبعثرين داخل «تعز» على لقاء في إحدى استراحات جبل صبر المطل على المدينة؛ جلسة وداعية قبيل سفره؛ تذاكروا فيها رفاقًا لهم غيبتهم الحرب أو شردتهم أو حتى غيرتهم.. تحدث سمير عن رفيق دربه الذي تحول فجأة إلى شخص لا يشبه ما كان عليه؛ تنكر للصداقة والعشرة بينهما؛ قال بوجع: ليت الموت هو من غيبه كان أهون؛ أصبح مشرفًا حوثيًا ينهب ويطارد رفاقه بحجة معاداة حركة أنصار الله التي ينتمي لها. قال غياث بتلقائية:

ـ أعرفه جيدًا؛ لئيم إلى أقصى حد؛ إنه من أبناء عمومتي ومن الطبيعي أن ينقلب على كل شيء ملتحق بالحوثية مادام من السادة.

صدمت وحيد عبارة غياث صديقه الذي يبغض الحركة الحوثية ويحاربها لكنه يؤمن أن هناك طبقة تسمى السادة. التفاضل بلفظ السادة لا يكون إلا بوجود العبيد من لم ينلهم شرف الانتساب لهذه السلالة الهاشمية؛ شعور الأفضلية كامن في قلوب الأسوياء منهم مهما أخفوه وراء مئات من الأسباب؛ ينكشف مع زلة لسان أو تصرف غير مقصود. استطرد غياث بضيق:

_ بسبب هؤلاء حصدت الأسر الهاشمية الكراهية والعدائية من اليمنيين؛ ليست كل الأسر الهاشمية راضية بما يحدث أو على الأقل هناك أسر كثيرة ترفض باستماتة ما يحدث بسبب دعوى ابن بدر الدين الحوثي. المؤلم في الأمر أن أقرب الناس لنا لا يثقون تمامًا برفضنا دعوى الحوثية؛ يرونها تقية أحيانًا؛ أو أن لدينا أسبابًا خفية وما نلبث أن نتقلب مطالبين بالحكم والولاية. ضحك وحيد قائلًا:

_ لكننا نثق بك وبوطنيتك يا غياث؛ نثق أنك مثلنا تؤمن أن لا أفضلية لسلالة ولا لشخص على أحد؛ أنت لا تؤمن أنكم سادة ونحن قبائل أقل شأنا أليس كذلك؟ هتف غياث بحماسة زائدة ينفي عن نفسه التهمة:

_ طبعًا.. طبعًا يا وحيد؛ ماذا جرى لك؟ تعلم كما أعلم أننا تربينا أجيالًا على هذا التقسيم المجتمعي المرفوض؛ تربينا عليه كمسلمة وهو جريمة في حق ديننا وإنسانيتنا. أنا لست هاشميًّا يا رفاق.. أنا يمني. كم من الأرواح في سلالتنا تنبض بحب الجمهورية وتتنفس الحرية وتنكر ما آل إليه حال اليمن؛ لكن هناك من ينتزع هذا الحق حين يصم كل هاشمي بختم الإمامة والاستبداد والأفضلية. لم يعد يجدي دفاعنا عن وطنيتنا ضد موجة الكراهية والاحتقار الذي تتنامى في قلوب الناس، خاصة طبقة المثقفين والواعيّن. أحيانًا أشعر أنه لن يثق أحد بإيماني هذا حتى لو اخترت قتال أبناء عمومتي الحوثيين وسقطت شهيدًا على مبادئي؛ سيجد الكثير من غلاة العنصرية المضادة سببًا لمقتلي غير ما ارتضيت لنفسي. بل إن هذا قد حدث فعلًا لشاب من أسرتنا أعرفه وعايشت قصته ومدى كراهيته للعنصرية

الحوثية وسمعت بأذني من يتشفى لمقتله على أيديهم. رد سمير بحنق وقد فقد أعصابه:

_ العنصرية الهاشمية هي السبب؛ قسمت المجتمع اليمني إلى طبقات وصنفت الناس إلى سيد وقبيلي وجزار ومزين وشريف وطرف، وهي التي صنفت السلالة الهاشمية إلى طبقة الضحايا وطبقة المستفيدين. أتذكر أننا لعقود عشنا مع كثير من الأسر الهاشمية كيمنيين تماهت بيننا الألقاب؛ درسنا معًا وتزوجنا منهم وتزوجوا منا. لكن عائلات بعينها أوجدت لنفسها تميزًا معدومًا، وعزلت نفسها، فلا مصاهرة مع اليمنيين، ينظرون إلينا كبشر أقل مكانة. هذه الأسر النافذة، جاهًا ومالًا، هي التي أفسدت حياة اليمنيين والهاشميين على حد سواء. إنها إلى حد كبير أشبه بعائلة روتشيلد الشهيرة تنظيمًا وحرصًا على التأثير. في معاركهم الشرسة، في سبيل الحكم؛ ضد الجمهورية قضى آلاف من أبناء هذه السلالة دفاعًا عن أطماع المتحكمين منها. عائلات قضى منها ثلاثة وأربعة قتلى في المعارك، اتباعًا لوهم الأفضلية الذي بات مقتصرًا على الهاشمية السياسية. أوشكت أسر منهم على الانقراض، وصارت بيوتهم خاوية من الرجال، تزدحم بالإناث فقط. وليست بطبيعة الحال، سوى تلك الأسر التي تأتي في المستوى الأدنى والأقل قيمة في السلالة. ومن هؤلاء بالذات تتعالى أصوات تستنكر رد فعل اليمنيين ضدهم؟!!! نعم يا صديقي كل ذي نفس سوية سيرفض العنصرية، ولن يواجه العنصرية بأخرى، إنما لا توجهوا لومكم على الإنسان اليمني الذي

عانى طيلة قرون من ظلمكم وجبروتكم، تطالبونه بالإنصاف في نظرته الكلية لهذه السلالة.

لا تتحدثوا عن العنصرية، وفي قلوبكم ذرة من شعور بتميز أو أفضلية. فحتى خطاب البعض من سلالتكم يثير الضحك والسخرية، حول كونهم سادة طيبين ومتواضعين اقتداءً بجدهم عليه الصلاة والسلام. نحن لم نتفق أساسًا، على النسب المزعوم للنبي، فيه فضل أو وجود. أي هاشمي يخالجه أدنى يقين أن جده هو النبي، وله فضل الانتساب إليه، فهو مصاب بلوثة عقلية، وعليه أن يثبت نسبه هذا بفحص الـDNA، وإلا فهو مجرد هراء نازي. وإن ثبت، فلا يثبت إلا أنه كبقية الناس، ليس إلا.

الأولى ممن ينكر فعل الحوثية من الهاشميين، أن يشكلوا كيانًا منفصلًا يعلن تبرؤه من الحوثية وأفعالها وأطماعها وانقلابها على الدولة وكل جرائم الحرب التي ارتكبتها في حق هذا الشعب. عليهم تشكيل كيان يندد بهذه العنصرية أولاً، ويسعى لكفّ أيدي أبناء عمومتهم، من الهاشميين، بدلًا من لوم الضحايا على موجة الكراهية الطبيعية كسلوك بشري لمن يتأذى.

عم الصمت بعد حديث سمير المنفعل.. آلمت كلماته رفاقه كلهم؛ وظهر التأثر في نظراتهم؛ يبدو أن الانقلاب أحدث شرخًا في النفوس أعمق مما يمكن ردمه لعشرات السنوات القادمة.

****

(وحيـــــــد)

كانت زيارتي الأخيرة إلى تعز منذ فترة طويلة برفقة أحمد النويرة كنا هناك لقضاء إجازة عيد مررنا بمدينتي إب وتعز. طفنا كل شوارعها الهادئة والصاخبة، وزرنا أجمل الأماكن فيها، وعشقت كل شيء فيها ما عدا ذلك الحر الشديد الذي يكويها بخلاف جو إب المعتدل. لم نكن نعلم أن المدينة الساحرة على موعد مع العواصف الأشد حرارة، كبقية مدن اليمن، إلا أن لهيبها كان مستعرًا أكثر من كل المدن.

على الأرجح أن أخبار هذه المدينة غطت على ٨٠ ▯ من اهتمام نخب اليمنيين على مدار سنوات الحرب. مدينة ساخنة الأحداث دومًا، تثير دهشتك وحنقك وفخرك.

مدينة المشاقر والمقابر الجماعية؛ مدينة الكتاب والكلاشنكوف؛ القلم والقناصة؛ المدينة التي نادت بالمدنية فامتلأت بالمسلحين والرصاص..

وقفت سدًا منيعًا أمام الحوثيين في عناد ودراية بجريمة الاستسلام. ومع ذلك تدير ظهرها إليهم، بين فينة وأخرى، لتقوم بإنهاء خلافاتها الشخصية في شوارعها الخلفية بصلابة، تثير ضجيج وصراخ كل من في خارجها.

لعل ما يحدث فيها ليس خلافات رفاق السلاح؛ بل إثبات وجود مفروغ منه؛ تضحيات المقاومة، خلال سنوات الحرب الأربعة، لن تسلم لأي أحزمة ناسفة خارجية.

يسقط الأطفال، وهم يلعبون بشظايا طائشة؛ برصاص طائش من قلوب وعقول طائشة. تصرخ طفلة في تعز: «آه يا قلبي». ربما تذكرت استغاثة قرينها، حين استعطفهم قبلها: «لا تقبروناش».. لكنه دفن مع صرخته...!! تعز، أطفالها يحملون أوجاع الكبار، وكبارها يلعبون بمصيرها كالصغار...!!

تتقلب تعز بين أتون الحرب، ومظاهر السلم، بسرعة الضوء؛ فليس غريبًا أن يشهد شارع جمال مواجهات مسلحة صباحًا، وفي المساء جولات الناس وهم يتسوقون بحثًا عما يقيم أودهم.. حصلت تعز على جرعة مضاعفة من معاناة الماء والكهرباء بفعل الحرب. بالإضافة إلى حصار خانق يحرمها إيصال المواد الغذائية. ولأن الحياة لا تنتظر أن تنتهي الحرب كي نعيشها، بل يجب أن نعيش بالممكن المتاح، هذا ما فعلته تعز: تعيش بالممكن المتاح وتكافح كي تعيش أيضًا.. عاد كثير ممن نزحوا ورمموا بيوتهم دون انتظار لإعادة الإعمار.. إنه النضال بنكهة العناد لهذه الحرب. يمارسون حياة طبيعية قريبًا من حياة الحرب القاسية.

تفتح الأسواق عقب الاشتباكات؛ وتقام الفعاليات الثقافية التي تحلم بالسلام على وقع المدافع. تفتح الجامعات على خط التماس ويهرع الطلاب للدراسة رغم القصف..

يكفي تعز أنها شهدت مظاهرات حزبية في واقع هذه الحرب.. هذا النشاط، بحد ذاته، أمر عظيم في مدينة تنادي وتسعى لدولة مدنية. هذه الدولة المدنية، التي لن تقام إلا بقوة القانون، الذي يحترم حق المدينة في حريتها ومصيرها.

تعز «عزتها باقية»، لا شيء باقٍ سواها؛ تظل تعز معشوقة القلوب.. عصية على النيل.. مدنية وحالمة وحرة. وأنا أغادرها عائدًا إلى مأرب كنت أودع فيها روح أحمد النويرة في طفليه رعد ورهف وأمهما الصامدة كجبل من الصبر.

****

حتى الملائكة يا صديقي يمكنها أن تؤذيك؛

فالقائم بالموت ملاك لكنه مكلف بقبض روحك..

(عفـــــراء)

ما أسوأ أولئك الرواة الذين يختزلون في سطر صغير مدة مر فيها عمر كبير؛ ربما انتقلت أنت فيه من الشباب إلى الشيخوخة في سطر. إنهم يحطون من شأن وجعك خلال ذلك الزمن المتقلص في كلمات؛ ألم الانتظار لا يحسب بالزمن المتعارف عليه؛ الثواني فيه أعمار طويلة لأمل يصارع الموت كل ثانية.

لقد شاخ انتظاري وصار عجوزًا نكدًا يبكي لأتفه الأسباب؛ لم يعد فيه شيء يضيء سوى عينيه يرقب من نافذتي الضيقة تلك الأعداد الهائلة للجدران المتراصة قبالته كل حين؛ جاثمة فوق قلبي خرسانات المسلح هذه.

انتظرتك.. ثم انتظرت رسالة منك؛ ثم تمنيت لو أنك تلقي التحية فقط؛ ترميها في وجهي حتى؛ ثم تتوارى كعادتك هاربًا؛ لكانت تكفيني حروفها لأنسج منها بساطًا يأتي بك؛ كنت لأغفر لك كل خذلانك لي؛ وأعتذر عن رسالة الحكم بموتي رحيلًا عنك.

لكنني أنتظر وهم خيالك ليس إلا. في ازدحام الخيالات الضبابية يبقى خيالك هو الأكثر واقعية رغم أنك لست حقيقة!!

علي أن أعترف لنفسي أني أبدعت في صنعك أكثر من كل شخوص كتاباتي الفاشلة؛ وأنك كنت تتنقل في دمي كما تتنقل تلك الشخوص في حبر أوراقي!!

لا بد أن تخرج من دمي لهذا أنا أنزفك بلا توقف؛ شهور أو سنوات لم يعد الزمان يعنيني؛ أنا وحيدة حتى العظم يا وحيد!! هذا كل ما أشعر به بين ضجيج الكلمات التي أنزفها على كيبورد جهازي المحمول الذي يتحمل هذياني بصمت.

أحيانًا أتساءل ما جدوى بقائي في هذه الزاوية المصمتة؛ أتأمل من نافذتي جدرانًا تتلوها جدران تكتم أنفاسي على مد البصر. لماذا لا أنتعل لامبالاتي وأسير؛ سأخترق هذه الجدران عبر فرجات الشوارع الصاخبة سأعبر حدود التنفس وأنسى زاويتي الباهتة. لكني لا أريد أن أغادر جدراني.. لا لن أغادر؛ أريد أن أبقى مع نفسي أخشى أن أفقدها كما فقدتك؛ أريد أن أحرسها كي لا تتسلل من شقوق جراحاتي هذه؛ تسيل رغمًا عني.. كل يوم أفقد جزءًا منها مع كل هذه الأدوية المهدئة لنبض الحياة في عروقي.

يؤلمني أنك لست حقيقة في حياتي؛ وأن ملامح روحك داخلي هي من شتات خيالي وأمنياتي. بوجودك الوهمي داخلي لم أعد أهتم لهذا البعد؛ اكتشفت مع خيالك متعًا تغمرني بالراحة والهناءة؛ وتملأ فراغ غيابك بك فقط.

أجملها أني أتحدث عنك كثيرًا مع نفسي؛ أخبرها كم أنت بريء من أفعال القدر التي تقف بيننا كل مرة نقرر فيها أن نلتقي!! هي تخذلني وليس أنت. أخبرها أنك صادق معي حتى في هروبك مني خلف همومك وانشغالاتك!! وكم أني أحبك ولا أنتظر مقابل؛ فحنان خيالك في رؤى أحلامي كافٍ بعد أن عرفت حقيقة روحك.

أتحدث معك أيضًا وكم يسعدني حديثك الذي أثق أنك ستقوله لي كرد لكلامي.

حين أشتاقك أتخيلك في مكان ما.. أؤثث المكان حولك بأشخاص وأشياء حميمية.

وأصنع لوحة أكون فيها موجودة غير مرئية كي لا تفوتني تفاصيلك الصغيرة فيها؛ حين تتكئ؛ تبتسم؛ وتتحدث؛ وأحيانًا تصرخ في نقاشك ويرتفع صوتك.

أتخيلك مسترخيًّا في جلوسك بلا اهتمام كيف سيبدو مظهرك؟ أجده جميلًا في كل حال.

أتخيل كلماتك التي لا تكتبها؛ تلك التي تنطقها في غضبك أو سخريتك أو كراهيتك وأنت على سجيتك ببساطة الانفراد وعفوية الراحة وسقوط التصنع. أتخيلك تصنع كل تلك الأمور البسيطة التلقائية التي لم أرها وأعرف أنك تفعلها.. ترفع يدك تتخلل شعرك؛ أو تحك ذقنك بشرود؛ تفرك عينيك وربما تنظف أنفك. أتخيلك حقيقيًّا.. لأني أعرف أن الحب أعمى عن رؤية أشياء كثيرة؛ وحالم

لتصور أشياء خيالية. تبًا للفقد أخذني بعيدًا في خيالاتي وعدت منها أكثر ولاء للشوق.

فقط لا أدري ماذا أقول لأمي التي تنظر إليّ بفزع كلما رأتني أبتسم سعادة حين أتذكر حركات يديك وأنت تتحدث؛ حين تهطل كلماتك على ذاكرتي بلهجة قريتك «بعدان» كما يهطل الغيث على سهولها وجبالها. أمي لا تخفي صدمتها حين تراني أبكي؛ فهي لا تعلم أنك في خيالي غاضب مني؛ لم تعد تزر أحلامي. ماذا أقول لها؟

أمي لا تعرف أنك تسكنني وأن لا شيء يفوق فقدي لك إلا فقدك لهذا الوطن الذي تتحدث عنه طوال الوقت. لعل أمي لاحظت وجودك في حياتي فهذه هي المرة الثانية التي فاجأني وجودك على شاشة التلفاز فأوقعت كأس الماء من يدي وأنا أطالع وجهك أما عيناك فقد حجبتهما نظارة. يومها دخلت حجرتي وبكيت كثيرًا؛ حينها قاطعت التلفاز أو المرور أمامه.

****

تأملت والدة عفراء ابنتها بحسرة من يرى حصاد عمره يتلاشى أمام عينيه رويدًا.. رويدًا.

عفراء المتقدة نشاطًا كأشعة الشمس في انتشارها؛ عفراء الطفلة التي لم تكبر وإن هرمت أمنياتها. لقد خالطت سمرتها الجميلة صفرة الذبول وهي تعتزل مجالسة الناس وترفض الخروج من البيت وتحتجب عن صديقاتها؛ مكتفية بالبقاء أمام نافذتها تكتب أو تقرأ أو تتأمل الفراغ فلا نقطة محددة لنظراتها الساهمة.

تراها تذوي أمامها وهي عاجزة عن فعل شيء من أجلها؛ تدرك أن قلبها مشطور نصفين بين حبيب حرصت أن يكون سريًّا عن أقرب الناس لها وبين طاعتها لأمها؛ صدف أن شاهدت صورته في هاتفها حين مرت قربها لتجدها عالقة في عينيه حتى إنها لم تشعر بمرور والدتها. ذات الوجه الذي جعلها تقاطع التلفاز منذ ظهر على شاشته قبل أيام؛ كلما ألحت عليها بالعود إلى اليمن ترد بعناد:

_ لمن نعود وقد مات أبي؛ ولماذا نعود ولا شيء ينتظرنا؛ أنت بحاجة إلى عناية صحية يا أمي ولم يعد لي سواك في حياتي. رغم أن الأم أصبحت هي من تعتني بصحة أبنتها المتدهورة إلا أن عفراء تصر على البقاء في القاهرة كل مرة. شاهدتها والدتها وهي تكلم غطاء شعرها وتقبله مرارًا. فصعقت وغشاها حزن مكبوت ركض الخوف في أحشائها حول سلامة عقل فتاتها الوحيدة. لا بد أن تتدارك الأمر بعرضها على طبيب يخرجها من كآبتها وهلوساتها هذه. لم تكن تدري أن عفراء قبل شهور طويلة عادت في يوم سعادتها اليتيمة من لقاء وحيد واكتشفت أن غطاء رأسها الأزرق عابق بعطره بعد أن أسندت رأسها إلى كتفه طويلًا.. يومها أمطرت الغطاء بالقبلات وطوته بعناية كي لا يفقد عبقه العاطر ووضعته في كيس نايلون وأخفته في أدراجها كأنها شعرت أن هذه الرائحة هي ما سيتبقى من ذكرى لقائمها الأخير.

بعد إلحاح من أمها وتهديد بترك الأكل والكلام قبلت عفراء زيارة طبيب نفسي فقط ليطمئن قلب والدتها أنها بخير. أقنعها بدوره أن ما تعانيه هو عارض اكتئاب يعاني منه غالبية الناس في مرحلة من مراحل

أعمارهم إثر ضغوط نفسية تواجه الجميع ناهيك عن امرأة عاشت فترة حرب في بلدها. وهاجرت تاركة خلفها كل ما أحبته. لم تخبر الطبيب أنها تركت خلفها أيضًا حب حياتها.. أو ربما حياتها كاملة.

****

«أكره المباني الكبيرة في القاهرة يا وحيد. تنتصب متلاصقة كتوابيت عملاقة تحرمني النظر إلى السماء وتحرمني النظر إلى الأرض معلقة أنا؛ محاصرة بهذه الجدران الشاهقة؛ وبقلق أمي وملاحظاتها الموجعة»

صارت والدتها تلاحقها بالمباهج كما تسميها كما يلاحق الراشدون الأطفال بوجبات الغذاء الصحي؛ تهاتف رفيقاتها خلسة منها وتطلب منهن مهاتفتها ودعوتها إلى الخروج لرؤية ليل القاهرة الصاخب. تشتري لها وردًا كلما خرجت لشراء البقالة!! وتطلب منها سماع صنفًا من الأغاني لا تحتملها ولا تعرف من نصح والدتها بها؛ ما تثق به أنها نصيحة خبيثة من إحدى صديقاتها لتعذيب عفراء عن قصد. أكثر ما يخيف عفراء أن تفكر والدتها بتدبر زوج لها. زواج!! لن تفكر في رجل غير وحيد حتى لو خسرت والدتها؛ هي لا ترى رجالًا حولها أبدًا؛ كل هؤلاء الأشباح الموجودين في الحياة لا تراهم؛ هي تملك قلب أنثى وليس قلب رجل:

_ أرجوك يا أمي أنا متعبة كثيرًا متعبة من نفسي متعبة من فشلي في كل شيء؛ لقد فشلت حتى إن أحب نفسي فلا أعذبها بكل هذا الفشل؛ كان يكفيني زواجي الفاشل وتلك الحياة التي لم أذق فيها طعم الحياة لماذا جررت على قلبي هذا الحب اليائس..

تراني رفيقاتي محظوظة لدي كل شيء.. نعم لدي كل الفشل الذي لا تعرفه أنثى غيري..

هناك شيء يتحرك في رأسي؛ يسير جيئة وذهابًا؛ لا يستقر أو يعرف السكون. لا أدري من أين يأتيني هذا اليقين أن هذا الألم الذي يتشظى له رأسي سيذهب ما إن أضعه على صدرك وأتنفس رائحتك يا وحيد.. كل هذا الألم المتطاير في كل اتجاه ستجمعه كفاك سكينة وراحة؛ ربما حينها أنام بدلًا من كل هذه الأدوية التي تبعثر نومي ولا تجمعه. لم أخبرك ماذا تفعل بي رؤية رجل يشبهك؛ رغم أنه لا أحد يشبهك في عيوني أبدًا. سبق ولمحت هيئة أحدهم وكأنه أنت؛ لقد توقف فيّ كل شيء دفعة واحدة ثم أضاء كل شيء فجأة كانفجار قنبلة تطاير لها نبض قلبي في كل خلية من جسدي فكانت قلب مستقل ينبض بملامحك. كيف أسعى لنسيانك وكل شيء جميل يذكرني بك حتى وجودي يخبرني أني وجدت من أجلك أنت.

وأنا أرى الشمس تشرق على البيوت المتراصة في البعيد؛ تنتزعها من العتمة بيتًا تلو آخر أتذكرك حين أشرقت على حياتي وانتزعتني من عتمة العدم يومًا بعد آخر.

****

تتأمل وجهها كل صباح بقلق.. هل بدأت تقاطيع وجهها بالسقوط؟

تبًا للحياة التي لم تجُد لنا حتى بعام من الذكريات نستضيء به في ظلمة العمر. يبدو أننا لا نكبر كل عام كما نظن؛ إننا باختصار نكبر دفعة

واحدة حين يغمرنا الحزن والفقد. وهي صغيرة كانت تسير مغمضة العينين في منزلهم الذي مثل كل عالمها. حين اصطدمت بأخيها ذات مرة قال لها بعجب:

_ لماذا تسيرين مغمضة العينين يا خرقاء. فردت بحزن: أريد أن أشعر كما يشعر الأعمى حين يهتدي إلى طريقه بلا سند!! ربما ذلك التدريب لم يكن كافيًّا للمضي في هذه الحياة حتى لو غابت الشمس أو ذهب وحيد للأبد:

«آه يا «وحيد» لم تكن ضياء لحياتي فقط؛ أنت الحياة ذاتها التي خلقت كي أعيشها؛ وبفقدك فقدت مذاق الحياة كلها؛ لم أعد أجد لشيء طعمًا؛ اشتقت لك؛ واشتقت لكل شيء يصبح له معنى بوجودك. اشتقت لحياتي؛ لكل شيء حتى مذاق الأكل..

اشتقت لذلك الشعور أن آكل بكامل شهيتي وجوعي؛ يصبح أي شيء أمامي لذيذًا.

فقدت تواصلي بمذاق الأكل؛ اشتقت لرغبة الاستيقاظ من النوم وما يعقبها من حماسة في أعمالي؛ بت أتمنى مواصلة النوم لبضعة أشهر حتى يأتي صباح مناسب كصباح يوم القيامة مثلًا. أتمنى أن يصدر مني أي شعور حيال ما يحدث حولي.

أن أبتسم لعارض مضحك؛ أن أبالي قليلًا بكارثة حلت؛ أن أشعر بالحماسة لمعجزة حدثت أخيرًا؛ أن أستقبل الأيام الوافدة ببعض السرور ولو مجاملة.

افتقدت متعة السير مسافات طويلة عندما كنت أعرف أين أذهب ولماذا خرجت. سئمت أن تقودني قدماي ويعيدني التعب فصرت آوي إلى زاويتي هذه وأجول الأماكن بخيالي فقط. تبًا.. أنا لا أشتاق إلا لنفسي التي معك..

بالأمس دعت أمي بعض الرفيقات إلى منزلنا؛ تظن أمي أن ما ينقصني هو الرفقة الطاردة للكآبة بحسب وصفها؛ لذا تشعر أنها تصنع صوابًا بخلق عالم لم أعد أحتمله.

لا أدري لماذا صارت أحاديث النساء في نظري تافهة؛ حتى وهن يمتهن عمل الصحافة وجل أحاديثهن في السياسة ووضع البلاد؛ لم تعد الأحاديث إلا عن اليمن الذي يهوي أمام أعيننا فنهوى معه في الشتات. أحلام الوطن والعودة تبتعد كل يوم هنا؛ الوطن البديل يشغل أذهان النازحين كما يشغل قلوبهم ذلك الوطن الذي تركوه في أيدي القهر والقمع. في جلستنا المرهقة تلك نال غلاء المعيشة في القاهرة النصيب الأوفر من النقاش والتأوهات؛ وتوارت المجاعة الحاصلة في اليمن عن خواطرنا؛ ربما لأننا لم نشعر بها حقيقة فأخبار مواقع التواصل عن الجوع والفقر والمرض لا تشبه معايشتها كل يوم أبدًا؛ رغم أن هذه المواقع صارت أشبه بواقع يعايشه النازحون كل يوم ولحظة بلحظة. حين تتحدث بلهجتك في القاهرة سيسألك أي شخص: من أين أنت؟ وسيثير شفقتك الوطنية الردود على إجابتك أنك يمني.. الجميع يدعو لوطنك بالفرج؛ الجميع حزين ومصدوم لما يحدث في اليمن من تشرد يعيشه هذا الشعب الطيب؛ الجميع متعاطف لما صنعته

الحرب فينا. «طيارة العيانين» صارت تحمل الفارين والمشردين والنازحين بتقارير طبية أيضًا. تحمل السياسي الهارب والإعلامي المطارد والجريح الذي يتعالج؛ مئات من الأسر التي تبحث عن حياة سهلة بعيدًا عن وضع اليمن الصعب. «ربنا يفرج عنكم ويردكم إلى وطنكم «عبارة تهطل لها دموع القلب بصمت وتلحقها لعنات سرية على كل من أوصل اليمن إلى هذا الحال المزري.

تظل غريبًا حتى بين أناس كأهلك يحملون كل التعاطف لوضع وطنك. رغم تركي لمواقع التواصل وأخبارها منذ سفرنا إلا أني أشعر أني هاجرت بجسدي فقط؛ كانت روحي هناك في اليمن لم تغادرها منذ افترقنا قبل شهور طويلة كدهر. تركت مواقع التواصل كي لا تطالعني كتاباتك وصورك وأحاديثك التي تتركها خلفك هنا وهناك.

ابتعدت؛ لكني احتفظت بوجهك في هاتفي أحادثه كلما اشتقت للحديث معك؛ أطالع ابتسامتك فابتسم.. من يستطيع أن يقاوم الابتسام حين يرى صاحب الابتسامة؟!

ما إن أراها حتى أغفر لك كل شيء.. كل شيء حتى غيابك وابتسم من بين الدموع.

كل الناس غبار.. غبار يا وحيد ووحدك المطر. فمتى تكون هنا؟ متى ألمح اسمك على شاشة هاتفي؟ متى أرى حروفك تناديني «تعالي أحتاجك» فأتي إليك أتعثر بشوقي وصمتي؟ متى تكون حقيقة يا وحيد؟ تعبت من مناجاة ظلك طوال الوقت. أتساءل أحيانًا هل كنت حقيقة يومًا ما؟ هل أنت حقيقة قاتمة أم أني تخيلتك بعض ضياء؟!!

****

لـن تمشـي خطـوة واحـدة
فـي مجتمـع ملغـم بالجهـل
حتى لو كان مصباحك الوعي.

(زينب)

تعالى صوت شقيق زينب قادمًا من حوش المنزل وهو يناديها بإلحاح:

_ زينب يا زوجة الشهيد أين أنت؟

أطلت من نافذة المنزل الحجري في الدور الأول حيث تقع حجرتها مع ولديها منذ عادت بهم إلى ذمار. كم تمتعض من إلحاح أخوتها على مناداتها بزوجة الشهيد؛ فهذا اللؤم الخبيث يجعل ولديها يتذكران مقتل والدهما في قصف معتقل مدرسة الشرطة ويتيح لأخوالهم تصوير مأساتهم على أيدي طيران التحالف فقط؛ تتمنى الانصاف فقط وذكر جرم اعتقاله من قبل الحوثيين. لم تعد تحتمل هذا التحريض والتعبئة الموجهة لعقلي صغيريها؛ ولا تحتمل تصوير حركة الحوثية التي جرت البلاد للخراب على أنها المدافع عن هذه البلاد. يؤلمها مشهد صغيرها وهو يردد شعار الصرخة بحماسة؛ غدًا يكبر مؤمنًا بسيادة أولياء الله! قطع أخوها سير أفكارها وهو يقول بعد

أن ألصق وجهه بنافذتها: «أعدي نفسك يا زينب سنسافر أنا وأنت إلى مأرب حيث الدواعش المرتزقة؛ أنا بحاجة إلى جواز سفر بشكل عاجل ولا تقبل جوازات دولتنا إلا منهم.

ضحكت بسخرية مريرة قائلة:

_ يا له من عار ألا تعترف مطارات العالم بجوازات دولة سيدكم الغبي؛ فتضطر إلى التعامل مع المرتزقة الذين تقاتلهم من أجل أن يمنحوك ورقة سفر. أليس لديكم عقول كي تفهموا جناية السيد في العبث بأبناء البلد الواحد؟!!

_ أغلقي فمك يا زينب ولا تجعليني أغضب؛ أخاف أن يسمعك أحد فتهلكين أخوتك بخفة عقلك؛ لولا أني مضطر لأخذك معي ما وقفت لأسمع وقاحتك هذه. انقلب الحال وأصبح الرجل يحتاج محرمًا من النساء كي يمر في نقاط التفتيش لمرتزقة التحالف. صرخت زينب بغيظ:

_ لا تكذب؛ إنما هي نقاط التفتيش التي صنعها الحوثيون كل عشرة أمتار لابتزاز وسرقة الناس؛ في كل متر تجد من يفتش حتى في أحشائك ليستخرج فضلاتك ويسرقها. كزّ على أسنانه وهو يمسك قبضان النافذة بغضب:

_ قلت لك اخرسي يا زينب.. اخرسي وأعدي نفسك للسفر عقب الغداء فلا وقت لدي؛ سأذهب للبحث عن وقود للسيارة ولا أدري كم سيكلفني إن وجدته.

قهقهت بسخرية مرة أخرى قائلة: « بركات سيدكم؛ عليك أن

تملأ سيارتك وقود من مأرب ربما المرتزقة أكثر رحمة من القتلة. انصرف شقيقها وهو يلعن جنس النساء جميعًا. وهي تعد حقيبة لثياب أخيها وأخرى لثيابها طرأ في خاطرها فكرة جعلت أحشاءها تتلوى وتقفز إلى حلقها؛ ماذا لو سافرت هي واستفرد شقيقها الآخر بولدها وأخذه إلى الجبهة؟!! لقد رأت أطفالًا أصغر من ولدها يعودون إلى أمهاتهم جثثًا ممزقة؛ المحظوظة فقط عاد جثمان صغيرها الشهيد المقاتل. الكثيرون تركوهم في الجبال تنهش جثثهم الكلاب؛ لم تكن اللجان الشعبية تحرص إلا على انتشال جثث القادة الهاشميين فقط. لن تسافر إلا بصغيريها مهما كان الأمر؛ فكرت أن تأتي لأخيها بالحيلة فهو مع تهوره وتمسكه برأيه فيه قليلًا من الحمق يجعل من السهل توجيهه دون أن يدري. حين عاد لتناول الغداء قالت مبتسمة:

_ ما رأيك أن نأخذ الولدين معنا؛ سنبدو كعائلة تسافر إلى مدينتها ولن تضايقنا النقاط الكثيرة؛ بل ربما يرأفوا لحالنا بوجود أطفال صغار فلا يتركونا ننتظر كثيرًا على المعابر. أطلق ضحكة مجلجلة وهو يقول الحقيقة لأول مرة:

_ آه يا أختي أشعرتني أننا في دولة تحترم حق الطفولة؛ إنهم يقتلون كالنعاج بلا أي شفقة أو اهتمام؛ لكنها فكرة جيدة لنأخذهما كي يعرفا المدينة التي يحتلها قتلة أبيهم.

ابتلعت احتجاجها الدائم فقد سئمت مناقشة عقله الذي يبدو واعيًا لكل شيء لكنه يصر على أن يخوض مع الخائضين. سيسافر معها صغيراها هذا هو المهم؛ ربما تجد هناك في مأرب ابن جارتها

المسكينة؛ لم يعد بين القتلى ورفاقه العائدين يقولون إنه سلم نفسه إلى الجيش الوطني طالبًا منهم أخذه معهم. ستسافر فقلبها منشرح لهذا الرحيل لأول مرة.

****

في مأرب عند ذهاب شقيقها في مبنى الأحوال الشخصية غادرت زينب الفندق بعد أن أوصت صغيريها بالبقاء أمام شاشة التلفاز في استغلال وجوده الذي يفتقدانه في ذمار بسبب انقطاع الكهرباء والحرمان من برامج الأطفال.

لم تكن تدري أين تذهب تحديدًا؛ لكنها سمعت عن منظمة تهتم بالأطفال الذين تم تجنيدهم من قبل المليشيا تقوم بالعناية بهم وتأهيلهم للحياة بعد بشاعة خوض الحرب. استقلت أول باص أجرة صادفها؛ أخبرت السائق بالوجهة التي تريد؛ تكفل السائق بالحديث عن المنظمة والآنسة سماح التي تديرها وسرد قصص كثيرة عن أعمال المنظمة والأطفال الذين ترعاهم. ولم ينس أن يعطيها رقمه قائلًا:

_ صالح السلامي إذا احتجت أي مشوار في مأرب سأكون متواجدًا من أجلك.

نصحها أن تسأل عن الآنسة سماح التي ستبحث لها في كشوفات الأطفال عن اسم ابن جارتها. حين وصلت مبنى المنظمة شعرت بطمأنينة كبيرة؛ هذا المكان ملاذ الطفولة بعد شقاء الحرب والمواجهات المسلحة. حين سألت عن «سماح» وجدتها تقف

في الرواق مع عائلة يبدو أنها تجشمت مصاعب كثيرة حتى وصلت لاستلام ولدها؛ كان الأب مقعدًا والأم تبدو في حالة تأثر بالغ. أما الطفل الذي أغرقت الدموع وجهه ظل يتنقل بين أحضانهم في نشيج متواصل. رغم انشغال سماح باستقبال عائلة الطفل «حاتم» بعد تعافيه من صدمة موت رفيقه أنور؛ إلا أنها استقبلت السيدة القادمة من ذمار بكل ترحاب ودعتها إلى مكتبها بعد انصراف الأسرة في مشهد مؤثر تساقطت له دموع زينب. تألمت سماح لحديث المرأة عن طفل جارتها الأسير وهي تسأل عنه رغم عدم معرفة والدته بذلك كي لا تعلقها بأمل زائف؛ لم يكن اسمه موجودًا في كشوفات المنظمة. قالت سماح بأسف وهي ترى الدموع تنهمر من عيني زينب:

_ ربما يكون مفقودًا أو هاربًا لجأ إلى مدينة أخرى يحدث هذا كثيرًا؛ يحزنني أني لم أستطع مساعدتك عزيزتي؛ أرجوك أن تخففي عنك. تدفقت دموع زينب أكثر دون إرادة منها؛ شعورها بالكبت طوال هذه الشهور؛ القهر والغبن جعلها تحتاج فقط لبعض التعاطف كي تنفجر بالبكاء بلا نهاية. أثر فيها كثيرًا مشهد عائلة ذلك الطفل حين التقت بهم في الرواق؛ بكاء والدته ومشهد والده المقعد. وجدت نفسها تقص على سماح قصتها كاملة؛ كفاحها مع زوجها؛ ومقتله؛ عودتها إلى أهلها وما تعانيه من أشقائها في تربية ولديها؛ خوفها عليهما وعلى تفكيرهما.

تأثرت سماح كثيرًا لقصة المرأة الشابة التي تعاني فوق طاقتها من الصعوبات.

نهضت سماح من خلف مكتبها واقتربت من زينب ممسكة بكتفيها

محدقة بعينيها الدامعة بثبات: «اسمعي يا زينب أسوأ شعور ينتابنا هو الخوف؛ أسوأ حتى من الألم والحزن؛ الخوف فقط يحرمنا أن نتقدم خطوة واحدة؛ بقاؤك رهينة إرادة إخوتك لن يصادر حريتك وقرارك فقط بل حرية طفليك وعقليهما؛ يجب أن تبقي في مأرب ولا تعودي مع أخيك.. اتسعت عينا زينب برهبة وهي تقول بصوت متهدج:

_ لا أستطيع.. كيف يتسنى لي العيش وحدي وأنا أرملة؛ من سيعيلني أولًا ومن يحميني ويقوم بحاجتي؟

_ هذا ما يصوره لك خوفك؛ أخبرتني أنك عشت في صنعاء شهورًا طويلة وأنت في حكم الأرملة؛ وحيدة لا أحد يقوم بشأنك إلا أنت؛ تعيلين نفسك وتكافحين انتظارًا لخروج زوجك من المعتقل ما الفرق الآن؟ همست زينب باستسلام:

_ الفرق أني كنت أعيش على أمل عودة زوجي؛ ظننتها أيام عذاب وستنتهي وأسلي قلبي بالصبر والحب حتى يعود.. الآن أنا أعيش كيفما أتفق يائسة من كل شيء.

ردت سماح بابتسامة واثقة: «وطفلاك أليسا حب حياتك ومن حقهما عليك أن تبحثي لهما عن حياة حرة؟ أطرقت زينب وقد حاصرها الإحباط:

_ نعم لكني عاجزة أن أعيلهما.. لم تترك لها سماح فرصة لليأس:

_ سأساعدك بإيجاد عمل؛ ألم تقولي إنك ممرضة؟ سنجد لك عملاً؛ هنا وفرة موجعة من الجرحى الذين يحتاجون إلى رعاية؛ ثم

إنك على قدر من الوعي والتثقيف ستبقين هنا في المؤسسة لمساعدتي أيضًا وبذلك نتدبر حجرة لك وللطفلين. فقط قرري وانزعي مخاوفك عن قلبك.

_ سيقتلني أخوتي يا آنسة سماح.

_ لن يفعلوا أبدًا؛ هم أضعف من ذلك. سيقتلون روحك فقط إن بقيتي معهم.

****

عندما عادت زينب إلى الفندق قررت أن تأخذ وقتها في التفكير حتى لا تندم. قرار كهذا سيغير مجرى حياتها أكثر من قرار رفضها التخلي عن زوجها المعتقل والبقاء في صنعاء رغمًا عن إرادة أهلها. تعرف أن في قرارها الأول أخذ ورد حين يعود زوجها؛ لكن قرارها الآن يعني أن تتبرأ منها أسرتها وتنكرها؛ عصيانها وتمردها أكبر في نظرهم؛ وقد يتهجم أخوتها عليها وتعود مرغمة مع معاملة وحشية. لذا تأنت حتى آخر أيام بقائهما في مأرب؛ أخوها طوال الوقت مغضب ومحبط يلعن كل شيء في طريقه؛ أخبرها عن صعوبة استخراج جواز سفر وأن الأمر سيكلفه الكثير وقد يعودا بلا جواز؛ يظل يشتم طوال الوقت قائلًا: هؤلاء المرتزقة يظنون أنفسهم حكومة شرعية وهم عاجزون عن توفير جوازات للناس. فترد مرغمة: لماذا لم توفرها دولتكم إذًا؟ فيرد وقد اشتعل غضبه أكثر:

_ هم قادرون على ذلك لكن العالم الحقير يتواطأ ضدنا

ويرفضها؛ ومع هذا سننتصر على أمريكا وإسرائيل ودول التحالف؛ السيد قال ذلك وهو ابن رسول الله سنظل نقاتل كل هؤلاء حتى قيام الساعة.

يهذر طوال الوقت بأقوال ملازم سيده كأنه يدافع بها عن نفسه حرزًا من عدوى الحرية والكرامة السائد في مأرب. من الصعب مواجهته بقرارها وهو يفتعل المشاكل والصراخ طوال الوقت؛ فضلت أن تكتب له رسالة تقول له فيها أنها لن تعود معه وأنها ستبقى في مأرب كي يتلقى أولادها تعليمًا جمهوريًّا ليس فيه خزعبلات ملازم سيدهم. ستربي أولادها بعيدًا عن العبودية التي يريدون فرضها عليهم؛ سيكبرون وهم يعرفون كيف قتل والدهم ومن السبب في مقتله بتلك الوحشية.

لم تنس أن تذيل رسالتها بملاحظة رادعة عن كونها ستلجأ إلى الشرطة هنا أو حتى الجيش الوطني لحمايتها؛ تعلم أن هذا سيثير خوف أخيها فيرحل دون البحث عنها. غادرت الفندق تحمل كل مخاوف امرأة وحيدة تواجه المجهول بطفلين وحزن كبير.

****

وافقت سماح على الارتباط بحافظ؛ وفي حفل متواضع تمت خطبتهما والاتفاق على تفاصيل الزواج الذي تؤجله كلما حان موعده. هي لا تدري لماذا وافقت؟ ولا تدري حتى متى تؤجله؟! تشفق على حافظ من لهفته وتفانيه؛ وتكره مراوغتها في ابتداع أسباب التأجيل. عمار ماثل بينهما ذكريات لا تنسى؛ حتى كلمات التودد التي

يلقيها حافظ على مسامعها تفكر لماذا لم يكن عمار يقولها؟ رسائل اللهفة والشوق التي تزدحم في هاتفها عبر الواتس والماسنجر لماذا لم يكن يكتبها عمار؟!! متى تنسى عمار يا ترى؟!

ـ مرحبًا يا حافظ.

اغتصبت سماح ابتسامة وهي تطالع وجه حافظ متهللًا كأنما نال مكافأة لمجرد مجيئه إلى المنظمة ومقابلتها. دائمًا يختلق عشرات الأسباب للمجيء فقط لرؤيتها ما دامت ترفض رؤيته في أي مكان آخر. جلس قبالتها على المقعد الخشبي المقابل لمكتبها وهو يتشبث بمسندي مقعده بكلتا يديه. انحني مبتسما:

ـ مررت لتحيتك؛ أتيت لأخذ بعض المعلومات الجديدة من قسم الإحصاء؛ ابتسم بحرج ممزوج بفرحة غامرة. فكرة التشبث بمسندي المقعد درسها جيدًا كي لا تلاحظ ارتجاف أصابعه وهو يحدثها؛ شاهدها في برنامج تليفزيوني كحيلة مناسبة للتظاهر بالثبات. كم سيبدو أحمق لو لاحظت ذلك. يكفي أنها لاحظت اختلاقه أسبابًا تافهة للمجيء. «ما أجملك.. كل يوم تزدادين بهاء. وابتسم برضا لقد بذل جهدًا كي يكسر جدار الرسمية في تعاملهما ويجب أن يستمر حتى يلين قلبها.

بادلته الابتسام وقد نقل إليها عدوى الحرج؛ لم تكن لتهتم بكل كلمات الغزل أو الثناء التي تتساقط في طريقها كفتاة تعد متحررة في مفهوم البيئة القبلية. كثيرًا ما أشعرها الإطراء بالغثيان؛ لم تتمناه من أي رجل سوى «عمار» همست بتلقائية: شكرًا يا عمار.

صدمتها نظرة الهلع والحزن في عيني حافظ؛ لم تنتبه أنها للتو ألقت في حجره قنبلة فكت ذراعيه عن مسند المقعد في ارتخاء اليائس. رد عليها بصوت كانفجار مكتوم:

_ رحمة الله تغشاه.. واستدرك وهو ينهض منصرفًا: وتغشاني أنا أيضًا يا سماح.

ظلت برهة صامتة بعد انصرافه؛ أدركت حجم الألم الذي سببته لحافظ؛ ما زال عمار يجرعها الكثير منه.. (تبًا لك يا عمار.. تبًا لك هناك في قبرك وحدك أو في جنتك مع عشرات الحوريات الغبيات مثلك. تهربت من سماح التي عشقتك بشعرها المكشوف ويساريتها التي تناقض عقلك؛ وأمعنت في إهمالها لأنها فقط عشقتك كلك كيفما كنت. فضلت أن تموت على أن تكون معي وكم حاولت أن أموت كي أكون معك. تظن أني لم أكن أعلم بسخريتك من عاطفتي المتهورة نحوك؛ كنت أراها شفقة في عيني «وحيد» وأنا أبحث عنك وألجأ إليه في السؤال عن مكانك. يحق لك أن تسخر في قبرك أيضًا.. فأنا ما زلت أحبك وكم ألمني مناداتي «لحافظ» باسمك ألمح الوجع في عينيه بسببك. ما ذنب حافظ يا سماح؟ حسنًا؛ ذنبه أنه أصر على المحاولة والارتباط رغم معرفته أن الذكريات تسكنني. القلوب التي عاث فيها الحب دمارًا وتصدعت ألمًا لا يمكن أن يسكنها أحد، إنها كبيت خراب كلما فكرت بالتوغل في أطلاله تساقطت الحجارة على رأسك..

وما ذنبك أنت يا سماح؟ حتى متى تحرمين نفسك الحب وسعادة

الحب لذكرى رجل لو كان حيًّا أنه نساك ونسى ذكراك؟ صرت جذع شجرة جرداء في حياتك القاحلة؛ حُفرت عليها ذكريات قلب مخبول هو قلبك. أنت أنثى يا سماح قبل أن تكوني امرأة قوية؛ أنثى تحتاج إلى رجل يضمها إليه حين تتشتت ويواسيها حين تحزن يدللها حين تشعر بالوحدة. انظري إلى نفسك كم كبرت وضمر جسدك كادت تبهت ألوانك وتذوي روحك؛ انظري إلى عينيك كيف انطفأ فيها دلال الأنثى؛ انظري إلى شفتيك كم هما بحاجة إلى قبلة حب؟

قطعت زينب خلوتها وهي تطرق الباب وتدلف الى الداخل دون انتظار كانت صداقتهما قد توطدت كثيرًا؛ وأصبحتا ملجأ شكوى لبعضهما. حدقت سماح في زينب مطولًا أنهما في ذات العمر تقريبًا لكن زينب لديها طفلان يناديانها أمي؛ تشعر أنهما كل الحب الذي تحتاجه في حياتها؛ خبرت الحياة والحب والزواج والأمومة وكل شيء؛ لكن هي؛ كل خبرتها قصة حب مزلزلة فاشلة مع عمار..

الآن تدفع حافظ إلى الهروب منها لشدة إهمالها له كما قادت عمار إلى الهروب منها لشدة تعلقها به.. سالت زينب ما إن استقرت جلوسًا على المقعد الخشبي قبالتها رافعة النقاب عن وجهها المتعرق بسبب الحر في مأرب:

_ زينب هل تعتقدين أن المرأة يمكنها أن تحيا دون رجل؟ أن تحب نفسها وكل ذلك الكلام المشجع؟ ضمت زينب شفتيها بضيق وهي تقول:

_ عرفت أنك ارتكبت جرمًا ما بحق هذا الرجل المسكين؛ خرج

زائغ النظرات لا يرى شيئًا أمامه وكاد أن يصطدم بي. ما بك يا سماح كل نساء الأرض تتمنى رجلًا عاشقًا هكذا؟ يتقبلك بماضيك وبكل نقصك بكل هذا الحب؛ ستندمين لما تفعلينه به.

زوت سماح حاجبيها بغيظ وهي تتجاوز كل ما قيل لتقول عاتبة:

_ يتقبلني بماذا؟ ومن هذا الذي ليس فيه نقص بشري؟ ثم ما بك أنت يا زينب لا تضعي من قدر نفسك أو المرأة عمومًا. وختمت كلامها بضرب الملف في يدها على المكتب بعنف.» ابتسمت زينب لعصبيتها قائلة:

_ كنت حبيبة صديقه؛ هذا ماضٍ مشين جدًا في بيئتنا وحياتنا؛ لماذا تنكرين؟ كونك امرأة بعقلية منفتحة لا يعني أن المجتمع سيتجاوب مع انفتاحك هذا ويعاملك بالمثل؛ هذا ليس موضوعنا؛ نحن نتحدث عن هذا الحب الذي تواجهيه بكل الإهمال وليس الدلال. ردت سماح بيأس وهي تضع رأسها بين كفيها:

_ وما الفرق؟ ربما يراه دلالاً.

_ هل تظنينه أحمق؟ أي رجل يعرف كيف يفرق بين الدلال والإهمال؛ رجاء لا تبرري لنفسك يا سماح أنت تخطئين في حقه وكفى.

_ أعرف ولا حيلة لي في هذا أيضًا؛ أشعر بالحزن عليه وعلى نفسي؛ أفكر ألا أعذبه أكثر وأن أنهي هذا الارتباط؛ لا أدري هل أستطيع فعلًا الحياة دون رجل إلى الأبد؟

ابتسمت زينب بشفقة وهي تربت على يد سماح التي ألقتها على المكتب كأنها تستجدي بها إجابة: « لا تستطيعين يا سماح أبدًا؛ سيظل ينقصك شيء حتى لو توفر لك كل شيء؛ إنها فطرة في الإنسان أن يحتاج إلى رفيق لروحه أو مكملًا روحيًّا له. ربما تكتفين ماليًّا؛ أو تستغني عن وجود الرجل في جوانب كثيرة؛ لكن تظل حاجتك إلى حبه وحنانه فطرة أنثوية لا حيلة لك فيها. انظري إليّ يا سماح ربما استقر وضعي معيشيًّا فأنا أعمل وأعيل نفسي؛ لدي ولدان يملأن قلبي حبًا وسعادة؛ لكنني حين أخلو إلى نفسي أفتقد ذلك الحضن الذي كنت آوي إليه كجبل يعصمني من التعب والوحشة. فكري كثيرًا في حاجتك إليه أكثر من حاجته إليك كعاشق يحبك؛ مؤكد ستحبينه يا سماح. أخشى أن يأتي هذا اليوم وقد ملّ قلبه وانصرف عنك.

****

إذا بلغ الألم النصاب هل يهرول ناقصًا؟

ككل شيء إذا ما تم نقصان.

(الجريـــح)

بقاؤه على سرير المستشفى لا يعني إلا مزيدًا من الوجع؛ إنما إلى أين يذهب بساق تتآكل؟! مشاهدة السواد والتعفن يغزو لحم ساقه كل يوم على أمل أن ينقذها من القطع يمزقه؛ لكنه أمل يضمحل كل يوم. ليته فقدها مباشرة أثناء المواجهات أفضل من أمل يخالجه في بقائها. أخبروه عن جهود الشيخ «حمود المخلافي» من أجل إنقاذ جرحى تعز وأن فاعل خير سيتكفل بعلاجهم.

فاعل خير يتكفل بعلاج الجرحى!! يا للمهزلة! الجرحى الذين تساقطت أجزاء من أجسادهم على ثرى وطن لا يملكون الحق في ترميم هذه الأجساد على نفقته. «لا بأس أيها الوطن أنت أيضًا تتسول مثلنا على قارعة الدول؛ بعد أن عراك اللصوص من كرامتك كسيادة مستقلة؛ بعد أن صادروا خيراتك وحقوقنا كبيعة متكاملة»

انتقل إلى مأرب على أمل العلاج في المملكة وها هو يتآكل وجعًا وإهمالًا. عندما أصيبت ساقه لأول مرة في إحدى المواجهات كانت يده مازالت موجودة بالقرب تساعد أختها في رفع هذا الساق الثقيلة. الآن بعد بتر ذراعه اليسرى صارت يده اليمني وحدها لا تنفع إلا لشد

شعره كلما اشتدت وطأة الألم على ساقه. أصر على العودة للقتال من أجل تعز بساق تعرج؛ حينها رأى تعز كلها سندًا له؛ قلعة القاهرة توازن خطواته ويتكئ عليها في ضعفه؛ كل تعز كتفًا واحدة تصد المليشيا وتسند بعضها. تعز الآن عرجاء أكثر منه تحتاج إلى من يقودها في عماها هذا ويقطع الأقدام التي تلعب بها ككرة.

إصابته الثانية أطاحت بذراعه تمامًا أما ساقه العرجاء فمهددة بالبتر وهذا ما يؤلم روحه أكثر من جسده. تذكر رفيقه صاحب الشعر الأشعث حين قذفه اللغم أمتارًا وظل حيًا رغم اقتلاع اللغم لساقيه وسلاحه من بين يديه. كان يصرخ تحت صدمة الموت: هاتوا سلاحي.. هاتوا سلاحي.. جثا قربه وهو يقول: أنت مصاب.. اهدأ قليلًا سنسعفك. ناشده قبل أن يفقد الوعي: أجهز علي يا شوقي.. بحق الله أجهز علي؛ ما الحياة إن عشت عاجزًا في وطن عاجز. لحسن حظه أنه نزف حتى فارق الحياة دون أن يعايش هذا الموت البطيء الذي يعانيه الجرحى على أسرة المستشفى وفي منازلهم.

كان ليطلق الرصاص على ما تبقى من جسده أفضل من أن يشعر بالعار وهو يقف متظاهرًا في وقفة احتجاجية يحمل لافتة كتب عليها (أنقذونا أجسادنا تتعفن)

يقف ذليلًا أمام أبواب الشرعية تنديدًا بالإهمال الذي يلاقيه نصفه الأعلى ممن لا يستحق أن يكون النصف الأسفل لأي مقاتل ضحى في سبيل الوطن.

لكن الأجساد التي تتعفن في انتظار العلاج عادة تكون بسبب الضمائر المتعفنة للكثيرين. وكما يقال «الغريق يتعلق بقشة» أصبح

الجريح يتعلق بقشة الإحسان ضاعت الحقوق في هذا الوطن لتحل محلها الصدقات. همهم شوقي ساخرًا:

_ الشعب كله يعيش على إحسان ومعونات المنظمات؛ والجرحى يعالجون على إحسان فاعلي الخير. طرقات أعقبها فتح الباب جعل أفكاره السوداء تنزوي جانبًا في رأسه؛ تقدمت الممرضة زينب إلى سريره وراحت تتفقد جراحه برقة وعطف. حزنها يشف خلف نقابها؛ كما تشف عن رقتها وحنانها في تعاملها مع الجرحى دون أن تشمئز من قيح جراحهم وهي تنظفها. قال لها باستفزاز:

_ اشتهرت نساء ذمار بقسوتهن وشدتهن هل هذا صحيح؟

ابتسمت خلف النقاب وهي ترفع اللوحة المعلقة على سريره لتعرف اسمه قائلة:

_ تمامًا كما اشتهر رجال تعز بالفضول والثرثرة يا شوقي. ضحك بصعوبة وهو يقول لها معتذرًا: «معذرة أيتها الممرضة زينب؛ اعذريني جراحي تجعلني نزقًا فعلًا؛ ورقتك وحنوك مؤثر كثيرًا في تعاملك مع الجرحى. أطرقت زينب وهي تقول له بغصة تهدج لها صوتها: «كلنا جرحى أيها المجند وجراحنا غائرة تتفتت لها أوصالنا؛ كلنا لنا أجزاء من أرواحنا بترت؛ حين قتل زوجي أبو أولادي كأنما بتروا أطرافي ونصف روحي.

همس شوقي متأثرًا: "ليكن الله في عونك يا أم الرجال؛ حقًا جراح الروح لا يعادلها أي ألم.

****

بشعور من الذنب تفكر زينب أنها تستمد شجاعتها وشفاءها من منظر الجرحى وقصصهم. رؤية من هم أسوأ حالًا منك يخفف مصيبتك حقًا» تحدث نفسها لكن حديثها مع الجريح شوقي التعزي يثير عجبها؛ الرجل رغم فقدانه ذراعه وذهاب شبابه مع الألم يجد طريقه إلى السخرية والتندر من كل شيء حوله. يحسن كثيرًا انتزاع ضحكة مجلجلة تمزق جراحاته وتنثر قيحه. لا يستحق شبابًا كهؤلاء الموت؛ لا يستحق أطفال الوطن وشبابه أن يقتلوا ليعيش عجائز السياسة أعمارهم هؤلاء فوق أعمارهم. تشكر الله كثيرًا في صلواتها أنها مازالت في كامل صحتها وطفليها معها؛ هناك من يفقد كل شيء دفعة واحدة في هذه الحرب.

الحياة حين تعطي تأخذ أيضًا لكنها ليست عادلة!! ماذا لو خيرتنا بين ما تعطي وما تأخذ؟! لكانت اختارت أن يبقى زوجها ولو جريحًا مقعدًا بذراع واحدة أو حتى ساق واحدة. لكنه قتل؛ وبالكاد تعرفت على جثمانه؛ ومع هذا الحياة تستمر.

إنها نهر لن يتوقف لاختفاء أحد أو سقوط أحد؛ أو موت أحد؛ نهر سيجرف حتى الواقفين انتظارًا لطوق نجاة.. سيغرق من أصر أن يتحمل أثقال الحزن والهموم؛ ويطفو على السطح خفيف الشعور.

****

لأيام طويلة وهو يراقب زينب تقوم بعملها بتمعن وتركيز يثير ارتباكها؛ يشتد ألمه إن غابت عن تفقد جراحه؛ يطيل الحديث معها حول جرحه وحياتها؛ يطالب برؤية صورة لصغيريها فتريه الصور كأنها تستعرض كنوزها الثمينة بفخر واعتزاز.

إذا تغافلت عن المرور عليه يومًا على أن ينوب غيرها يقابلها اليوم التالي بسيل من النكات المستفزة عن بلدها ذمار كأنه يعاقبها على ذلك الغياب دون أن يشعر.

تقابل نكاته الساخرة بنظرة هادئة تطل من وجهها المنقب؛ تعذر جراحه وتغفل عن اشتياقه لمرورها. أحيانًا لا يخالجه شك أنها تراه كأي جريح في مشفى يكتظ بأمثاله؛ وأحيانًا يرى في عينيها ظلال إعجاب وسعادة بحديثه؛ يشعر بحرصها على متابعة حالته بنفسها؛ وتمر لرؤيته حتى لو تكفل بهذا غيرها.

لكنه لم يعد يثق كيف يشعر حيالها؛ هل يحق له هذا الشعور وهو المعوق بأكثر من إصابة. خسر ذراعه فلم يبالِ كثيرًا؛ لكن حياته كلها معلقة بهذا الجلد المتعفن لساقه الجريحة؛ ماذا لو تقرر بترها فعلًا؟!! إنه الصلب على جدار التضحية إلى الأبد؛ لن يمارس حياته بنصف جسد؛ ولن تقبل به أية امرأة يريدها. حتى عندما ظهر اسمه في كشف الجرحى الذين سيسافرون لمتابعة العلاج في الهند كانت فرحته مهشمة بالخوف مرتين أن يعود بلا ساق؛ وأن يمحى من خاطر زينب.

صباح سفر الجرحى عجز أن يتفوه بحرف أمامها؛ لكنه كتب لها ورقة صغيرة دسها بين يديها وهو يدعو الله ألا تفتحها إلا وقد غادر. قرأتها زينب وهي بمفردها:

(عزيزتي زينب إذا عدت سيرًا على قدمي سأتقدم للزواج منك أتمنى أن يكون لي حظ بقبولك لي؛ إذا عدت بلا ساق بالإضافة أني بلا ذراع فلن أقبل على نفسي أن أرمي حملي وثقلي عليك وأزيدك تعبًا فوق تعب الحياة. لن تريني مرة ثانية حينها. أرجوك ادعِ الله أن نلتقي).

(عفـــــراء)

لمحته في أحد شوارع القاهرة. إنه وحيد؛ مازال الوقت فجرًا لكن الظلام الذي يكابد الانزياح لم يحرمها رؤية ملامحه بوضوح؛ ليست النظارة من تحرمها رؤية عينيه فقط؛ المسافة الشاسعة بينهما أيضًا؛ لم يكن ينظر نحوها ولا يبدو أنها وجهته أيضًا. يخالجها يقين أنه لم يأت من أجلها أبدًا. لكنه هنا على مقربة من النبض الذي جن اشتياقًا؛ هنا يتنفس معها ذات الهواء الخانق حرارة؛ نظراته تصطدم بذات المباني الضخمة كالحة المنظر. هنا في القاهرة هكذا فجأة دون توقع أو حتى يخبرها بقدومه.

تراه من بعيد ولا تفهم لماذا لا تذهب إليه ولا لماذا لا يأتي إليها؛ تناديه فيتشاغل عنها بأناس حوله؛ يضيع صوتها في زحام الضجيج.. الضجيج الذي يفقدها السمع قادم من جانبها الأيسر؛ هذا القلب ينبض بصخب مؤلم: وحيد.. متى تأتي إلي؛ ولا يسمعها حتى.. وحيد افتقدتك وأنت هنا.. ولا تحدثني؟!! يدير لها ظهره راحلًا؛ كالعادة لم تصل نداءاتها مسامعه ولا كلف نفسه أن يستدير نحوها. كانت تقف على جسر قصر النيل تنظر إليه في ضفة أخرى لم تدرِ أين؟

_ أنا أقف على جسر من تلك الجسور التي تربط بين الأماكن البعيدة؛ فأي جسر يمكنه أن يصلني بك لتعبر منه الكلمات دون خوف

من أن تدهس كرامتي فيه بناقلات رحيلك وإهمالك؛ آه ما أجمل الأضواء التي تنعكس على وجه النيل؛ تتلألأ كعشرات الغمازات المبتسمة؛ يصبح النيل كله قلبًا يخفق بانسياب معشوق؛ هادئًا لا يشبه هذا الزلزال الذي ضرب قلبي. كنت لأبدو مثل النيل لو كنت جسرًا أو زورقًا لكنك بعيد ككوكب يحدث في أعماقي مدًا وجزرًا. وحيد.. أفكر أحيانًا بالغرق الذي يريح؛ أنا غارقة فعلًا وأختنق على قيد الحياة؛ لكنني أريد غرقًا مميتًا ينهي هذا الاختناق فحسب. فلم يعد هناك شيء يثير دهشة القلب. لا شيء ولا أحد يمكن أن يعيد إليه النظر مرتين لا شيء يعلق في ذاكرة القلب. وحدك من علق في الروح كمضغة نمت وكبرت حتى التهمت هذه الروح وصارت جزءًا منك. أراك تدير ظهرك راحلًا وقلبي يحترق كغابة من الأحلام اليابسة لم يزرها المطر إلا دموع وداع أشعلتها حتى الجذور. ماذا لو تدليت من هذا الجسر وانطفأت في ماء النيل.. هل ينطفئ هذا الوجع الذي يحرقني؟ لماذا أحبك كل هذا الحب وأنت قاسٍ كل هذه القسوة؟ لماذا لم يقع قلبي على قلب لين مثله؟ كيف لمن تكتب الشعر أن تعشق رجلًا يمتهن السياسة؟

استيقظت عفراء وهي غارقة فعلًا في العرق الذي بلل ثياب نومها وبدت بقعة واضحة على مخدتها تأملتها لا تدري هل هي أثر الدموع أم العرق الذي يتصبب من جسدها كله.. يا لهذا الحر الذي يجول في القاهرة وكان جهنم تسير بين أزقة بيوتها. مجيء وحيد إلى القاهرة مجرد حلم آخر يضاف لكل أحلامها المتعلقة به؛ هذا الرجل الذي صنعته من الخيال والأحلام.

_ آه يا وحيد لم أكن أجد سببًا وجيها كي أكره القاهرة بصخبها وزحامها؛ لكنك أوجدت لي هذا السبب وما أشد وجاهته فهي المدينة التي جمعتنا وحرمتنا اللقاء ولو في حلم.

إنها مريضة فعلًا كما تقول والدتها؛ روحها المعتلة أعلت جسدها أيضًا. لكنها تكتب؛ تكتب بنهم أنهكها؛ تكتب لتشفى؛ تخرج وجعها نزفًا حتى آخر نفس؛ حتى آخر دمعة وزفرة وآخر شهقة. تكتب لأن الكتابة عالم خاص يجعلها محصنة ضد واقع ترفضه ووهم يرفضها. كآبتها ملأت خيالها وما بين عينيها حتى فاضت على كل شيء حولها.

_ أنام مفتوحة العينين بانتظار الصباح ربما يأتي بصوتك من خلف كل الجدران النائمة فوق صدري المسحوق يأسًا. آه كم أود أن أسير حيث تغرب الشمس كل يوم ولا أعود. دائرة الذين أحتملهم تضيق؛ هذا ليس حصاد التقدم في العمر أو كثافة الشعور بالاغتراب هنا. بل نتيجة طبيعية لمخالطة البشر وفهمهم أكثر.

شعور بالامتلاء حد الفراغ من الصبر؛ من أحاديث الصديقات؛ من ثقل التبلد الذي أشعر به؛ من رأسي ذلك الآخر الذي أحمله. حتى إني أحيانًا أشعر نفسي خارج دائرة احتمالي وأن صخب روحي لا يطاق. إنها حالة متقدمة من النفور من كل البشر.

يبدأ نفور وعزلة ثم يتحول إلى كراهية مسببة؛ وأخيرًا أجد نفسي أكره كل شيء بلا سبب. كم أخاف من شراسة الكراهية يا وحيد.. إنها تحرق قلبي. نهارًا أغالب نفسي كي أكون طبيعية حيال كل شيء؛ وفي المساء أفرز قائمة ثاراتي وأصنف كراهيتي لقبح هذا العالم. حتى أنت

أحيانًا أكرهك! هل يجتمع الحب والكراهية؟!!

نعم؛ بينهما خيط رفيع حاد كالألم؛ اسمه اللامبالاة؛ يتمزق فيختلط الحب كرهًا.

كم هو موجع للقلب أن تكره أملك في الحياة؛ نافذتك للفرح؛ الضوء الذي تسلل إلى حياتك القاتمة. هذه النافذة التي فتحتها بجوارحي وقلبي للسعادة؛ لا يأتي منها سوى ألم الشوق والحسرة. لم أكن أتخيل أني سأكون من أولئك الذين يقفون متفرجين على الحياة وهي تنتقي غيرهم للسعادة وتخلفهم للشقاء؛ كنت أظنني سأقاوم حتى النهاية.

لعلها النهاية.. ولم أغير قناعتي: إما أن تنتزع حياتك كاملة أو مت دونها. موتًا مكتملاً خيرًا من نصف حياة.

****

ما أشد اتساع قلبك لي يا وطن!!

كصحراء بلا نهاية.

(وحيـــد)

في اليوم التالي لعودة وحيد من تعز إلى مأرب ذهب إلى مكتبه المتواضع؛ المكان الذي يجتمع فيه برفاقه الصحفيين والإعلاميين؛ للمرة الثانية يغير شقة المكتب إلى أخرى أصغر مساحة بعد أن عجز عن دفع مستحقات السابقة. الغلاء الفاحش يتفاقم في كل مستويات المعيشة ووصول عملة البلاد إلى الحضيض جعل الحياة صعبة على الجميع؛ مستحيلة على الكثير.. مأرب غاصة بالنازحين أكثر من ذي قبل بعد أحداث الحديدة وحجور ونشوب مواجهات في مناطق مختلفة تضاعف النزوح بالآلاف؛ لم يكن هناك كمأرب مأوى للجميع. الكثير يقطنون الخيام في بؤس لا يصدق ويعتاشون من خدمات المنظمات الإغاثية؛ إيجارات المباني مهولة رغم نهضة العمران المتسارع لتلبية الطلب.

في أوائل مارس لعام ٢٠١٩ اقتحم الحوثيون منطقة حجور بعد مناوشات بينهم وبين قبائل المنطقة الرافضة لبسط سيطرتهم؛ ارتكبت

المليشيا فضائع وجرائم إنسانية مروعة؛ قامت بتصفيات جسدية ضد المقاومين وإحراق عشرات المنازل والمزارع وقتل عدد من الأهالي بينهم نساء وأطفال. سقوط أدمى قلب كل جمهوري؛ كانت آخر معقل للصمود بعد توقف القتال في الحديدة وتسليمها للأمم المتحدة التي بدورها سلمتها للحوثيين. كم يشبه سقوط حجور سقوط صنعاء؛ ذات الوجع والصدمة رغم توقع السقوط بسبب الخذلان والخيانة.

تتناوش وحيد الأفكار كلما خلا إلى نفسه؛ يفكر أن قلبه لم يعد يتحمل وجع الداخل والخارج؛ أخرج الهاتف من جيب سترته واتصل بحافظ يدعوه إلى المجيء مبكرًا. وافته ضحكة حافظ قائلًا:

_ ظننتك ما زلت ضيفًا على سميرة والأولاد فلم أجرؤ على مهاتفتك. فرد وحيد باسمًا:

_ ضيافة الرجل في بيته ثلاث ساعات إذا غاب شهرين فقط؛ تعجل بالمجيء أنا أنتظرك. عندما وصل حافظ كان وحيد قد أعد الشاي؛ كعادته وحرارة شمس مأرب تذيب الصخر فكر بكوب شاي عوضًا عن الماء البارد. تعانقا بحرارة؛ جلسا يحتسيان الشاي وحافظ يسأله عن تعز وتفاصيل رحلته إليها. تحدث وحيد بألم حول عجزه عن نقل أبناء رفيقه أحمد النويرة إلى مدينة تعز أو مأرب مع والدتهم عوضًا عن سكنهم إحدى ضواحي تعز البعيدة. زفر بحسرة قائلًا: « أتذكر أني كنت لا أهتم بالجانب المالي في حياتي أبدًا؛ أحيانًا يخلو البيت من فلس واحد ولا أهتم. الآن أصبح القلق يتآكلنا خشية الحاجة والمهانة. حدق حافظ في وحيد مطولًا قبل أن يقول:

_ هل تتذكر صديقنا صفوان الكامل؟ الرجل حصل على منصب رفيع في الحكومة؟!! تخيل فقط فوضى التعيينات وتوزيع المناصب إلى أين وصلت؟ كأنهم يتقاسمون أطواق نجاة محدودة لسفينة تغرق؛ عليك أن تفكر أنت أيضًا في البحث عن وظيفة تليق بك؛ الأمر لن يكون صعبًا بالنسبة لك؛ هذا هو الحل لتخرج من ضوائقك المالية.

أطلق وحيد ضحكة مقتضبة شاعرًا بعدم قناعة صديقه بهذا الحل:

_ ليس غريبًا على صفوان أن يجد له موطئ قدم في هذا الفساد فهو وأمثاله يترعرعون في أجواء كهذه؛ يرون الناس ينحدرون نحو المجاعة فيما هم يعيشون برفاهية فاضحة؛ يعتبرون أن هذا استحقاق لهم. لا يخجلون أمام أنفسهم لذا لا يخجلون أمام الناس وحاجتهم وفقرهم. لم أخلق كي أكون من رجال السياسة في حكومة أو حزب؛ كل هذه النخب الحزبية والسياسية تلاحقها لعنة هذا الشعب المقهور. يرون أوطانهم تذبح من الوريد إلى الوريد في اتفاقات وضيعة لا تقيم لمعاناة الشعوب وزنًا لكنهم لا يملكون حتى رفاهية الرفض. عاجزون عن الصراخ غضبًا مثلنا التظاهر بالمصلحة العامة يوجب الخيانة في نظرهم؛ لا يحسنون شيئًا كالتظاهر بالصدق. أنا ولدت بين هؤلاء الناس الذين ينزفون ألما؛ وتختلط دموعهم بدمائهم؛ وسأعيش بينهم أمسح هذه الدموع فإن لم أستطع سأبكي معهم. لن أحمل وجهين أبدًا؛ أحدهم يبتسم بلطف لزج والآخر يبتلع غصة العجز عن الرفض. لن أكون صوتًا لنفسي؛ فأنا من الناس وخلقت لأكون صوتًا للمقهورين؛ ولن أكون سلطة كاتمة لأصواتهم.

تنهد حافظ وهو يسأل ذلك السؤال الذي يشغل قلوب اليمنيين كلهم:

_ هل ستنتهي الحرب؟ وكيف ستنتهي؟ هل بحسم عسكري أم ستكون باتفاق سلمي له تنازلاته الكبيرة؛ كالقبول بمناطق حكم ذاتي للحوثيين كما تبشر به تصريحات مجلس الأمن؟

_ الحرب العلنية لن تكون أبدية يا حافظ؛ ستنتهي ما إن تفرغ جيوب مموليها أو يصلون لمبتغاهم أو ينشغلون عنا بمصائبهم الخاصة؛ يوجد حرب موازية اشتعلت لأربع سنوات كاملة لكنها تقريبًا بلا مقاومة أو تغطية جوية وتغفل عن خطورتها التحليلات؛ هي حرب المستقبل الباقية؛ الحرب الفكرية التي لن تحسم بأي اتفاقات. إنها نقيض فكرتنا عن تعايش الجميع باختلاف معتقداتهم في ظل قانون يحكم الجميع.

****

اجتاحه شوق ملح إليها؛ لم يفكر أن يبحث عنها طيلة كل الشهور الماضية منذ آخر رسالة أرسلتها رغم اشتياقه لها؛ في قرارة نفسه كان يأمل أن ترسل كعادتها.

لكنه الليلة يجد نفسه يتفقد صفحتها على الفيس بوك ليجدها مغلقة كما هي؛ يتفقد الواتس فيرى أن آخر ظهور كان منذ شهور ماضية. حدث نفسه: ربما فقدت رقمها اليمني؛ ولم يعد برنامج الواتس متاحًا عليه؛ لا يعلم رقمها المصري الذي ستستخدمه بطبيعة

الحال؛ لم يتحادثا هاتفيًّا منذ كانت في عدن وآخر رسالة كانت عبر الواتس قبل أن تفقد الرقم كما هو متوقع. امتلأ خياله بصورتها في آخر لقاء على الشاطئ؛ وهي بين ذراعيه؛ ليتركها ويرحل؟! أحيانًا لا يصدق أنها كانت قربه روحًا وجسدًا!!

بعد كل ذلك الانتظار دام اللقاء وقتًا كأنه لحظات؛ لماذا لم يخطفها ويهرب من كل هذا الفراق الآتي؛ محاصرًا بها والبحر ويبقى إليها ظامئا كل العمر. يراها في المنام دائمًا؛ يبدو أن سميرة على حق فأحلامه حياة أخرى موازية لحياته؛ لكنه يستمد الحياة من أحلامه ولن تقضي عليه كما تنبأت زوجته:

_ أراك دائمًا في منامي يا عفراء. التقيك في ذلك العالم الذي لا تأسره قيود أو تقيده منطقية الحدث؛ عالم تفلت فيه الأرواح من عقالها وتلتقي في أماكن مبهمة لكنها تعرف بعضها وتطفئ من أشواقها وحيرتها. التقيك في أماكن لا نعرفها أحيانًا؛ لا نصل إليها لكن أرواحنا تصل؛ كعادتك تعبثين بأعصابي؛ نزق طفلة يسكن جسد أنثى ترتدين ثوبًا أزرق قصيرًا وتميلين نحوي حتى أكاد أمسك بك لكنك ترتدين إلى الخلف ضاحكة تتعمدين إغاظتي. أزفر بشوق: هل تحبينني؟

فتعبسين كثيرًا وتردي بغضب طفولي: أنت تعرف أني أحبك.. لم أخلق إلا كي أحبك. فأقول لك بحسرة: لماذا لا تأتين إذًا يا عفراء؟ يجب أن تفعلي شيئًا كي نلتقي لم يعد أمامنا العمر كله كي ننتظر صدف القدر. لكنك تبكين وأنت ترددين من بين دموعك التي انهمرت فجأة: لا أستطيع أن أترك أمي هنا؛ لا أستطيع أن أتخلى عنها في آخر عمرها؛

هي بحاجة لي؛ كيف أتخلى عن مسؤوليتي نحوها يا وحيد إنها أمي؛ هل تستطيع أنت ترك عائلتك لتأتي خلفي؛ أنا مثلك يحكمني عجز الواقع الذي أعيشه.

تقتربين أكثر؛ تلتصقين بروحي: لا تذهب يا وحيد. فأتوجع قائلًا: «أنا أنتظرك طوال الوقت».

_ وأنا أنتظرك كل العمر.. عمر ما أقصر لحظاته الجميلة معك. رفعتي يديك وأسندتهما إلى صدري؛ عيناك تشع بشوق هيج مشاعري كلها؛ تقتربين فأشعر بحرارة أنفاسك. تهمسين: وحيد.. سأتذكر هذه الابتسامة التي أرسمها على شفتيك بحماقاتي وأعرف أنها هي الجنة التي وعد الله بها قلبي الصابر على بعدك.

****

كلما استيقظ وذكرى حلم عالقة في خياله تنتابه مشاعر الارتواء والظمأ في آن واحد.

نعم يرتوي لمجرد خيالها في المنام؛ ويشعر بظمأها إليه في المقابل؛ تنهد هامسًا:

«ليت الحياة رؤيا في منام وليت الذي في المنام حقيقة في الحياة»
مع هذا يغدق بالحنان على سميرة؛ يدرك أن قلب الأنثى يجدب لو ترك دون سقي بالحنان والحب والعطف؛ وهو لا يريد أن تشعر زوجته بهذا الشعور أبدًا وهي على ذمته. ربما عجز عن منح ذات الحب لعفراء لكنه لن يحرم زوجته أبدًا. نهض من فراشه بتكاسل؛ صار لديه

عادة سيئة أن يغرق في النوم بمفرده في حجرة مكتبه؛ حتى لو قضى أول الليل في فراش زوجته ما يلبث أن ينسحب بحجة تركها تستريح دون أن يقلقها بسهره على الهاتف أو جهازه ليكتب. بحث عنها في حجرة النوم فلم يجدها فتوجه إلى المطبخ حيث تقف لساعات كما يبدو له أمام المغسل؛ طوقها بذراعيه من الخلف وأراح ذقنه على كتفها قائلًا: تمني شيئًا علي يا سميرتي.. فضحكت قائلة:

_ أن أعرف سر ابتهاجك هذا الصباح؟ ابتسم وهو يزيح شعرها عن وجهه قائلًا:

_ مبتهجًا لأنك تركت عادتك المحببة في الاستقصاء والاستنتاج حول ما يصدر عني من تصرفات؛ لكنك أفسدت سعادتي الآن. وطبع قبلة على عنقها.

رغم أنها اختيار أمه وقريبته التي تعرف كل مساوئه إلا أنها زوجة صالحة إذا استثنى لسانها أحيانًا حين تبدأ في إصدار أحكامها وفق استنتاجاتها وخيالها. وقفت معه في أشد اللحظات حلكة وضمنت أولاده في غيابه إلى جناحها حتى لا تنكسر أجنحتهم؛ هي رائعة ما إن يتوفر المال والاهتمام وهذا ما يبذل جهده من أجل توفيرهما لها. ابتسم لنفسه وهو يصب فنجان البن الساخن: «حقًا أنا غارق في حب عفراء لكن قلب الرجل يتسع لأربع نساء إن لم يكن جميع النساء الجميلات».

****

أتساءل أحيانًا لماذا لا يثور الناس وقد جاعوا وتخطفهم القتل؛ لماذا المدن ساكنة هكذا كأنما أعجبها الحال وهي تئن تحت وطأة ظلم الجبايات في كل شيء؛ كل شيء ينتزعون منه حصتهم حتى الهواء يحجزونه عن المعتقلين والمخفيين في سراديبهم.

الثورات على الظلم حق.. ولو كانت نسائم الحرية خانقة كما يدعي الأغبياء ما ثارت شعوب تبدو لنا مستقرة آمنة. المظاهرات الاحتجاجية المطالبة بالحقوق لا تشرق إلا من تعز هذه حقيقة رغم وضعها الذي لا تحسد عليه.

في إب وكل المناطق التي تحت سلطة الحوثي الأمر مختلف؛ إنها أشبه بمدن ميتة تضج بالزومبي الذين يعيشون الموت بسلام. مدينة إب نسبة الجريمة فيها تنافس الأسعار ارتفاعًا؛ لكنها مع ذلك مدينة السلام والسياحة. غالب الظن أن بينها وبين انتفاضة الثورة سنوات ضوئية غارقة في الظلام. رغم أن مئات من شبابها الثائر ينسلون كالمشاعل المتقدة؛ يبحثون عن وهج الحرية حيث كان. هناك ثورة مكبوتة تشتعل تحت رماد الخوف ولن يزيح الرماد إلا رياح الجوع التي عصفت بأحيائها الفقيرة.

وجوه الناس المتغضنة بحسرة وحزن خطواتهم المتعثرة؛ أصواتهم التي قاربت الصراخ لأتفه الأسباب؛ وأيديهم التي تمزق الأضعف بسادية كتفريغ لضغط مكبوت. رائحة الحنق والقهر المنتشرة في أجواء المدن اليمنية عوضًا عن روائح قدور الطعام في

بيوت تجار الحروب.

ثورة ١١ فبراير نتائجها محبطة؛ لذا صار الخوف يحكم التفكير بثورة أخرى لا أحد يدري أين تمضي بهذا البلد الذي زادت انقساماته أكثر.

يحدثني صديقي الصحفي في مناطق الحوثي عن قصص تواجهه شخصيًّا كل يوم:

وهو يستقل الباص في إحدى الجولات وقف رجل نحيل؛ ممسكًا بإطار نافذة الباص يستجدي السائق أن يقله مجانًا هامسًا بصوت متحشرج كيلا يسمعه من في الباص:

_ أشعر بالإغماء لشدة الجوع؛ هل يمكنك أخذي في طريقك ليس لدي أجرة ركوب.

رفع السائق صوته كي يسمعه كل الزبائن حتى المفترض مرورهم على الرصيف قائلًا: «حتى أنا أشعر بالإغماء من سعر الوقود؛ كيف أحمل الناس دون أجرة وهل سيعطونني وقودًا دون ثمن. ابتعد الرجل عن نافذة الحافلة وقد علته صفرة الجوع وكآبة المهانة. لم يتحرك فدائي واحد داخل الباص لإقالة عثرة الرجل؛ تعثرت نظراتهم في فراغات أحدثتها اللحظة. ذات الموقف الأليم حدث حين اصطدمت دراجة نارية بأحد الأطقم الحوثية. ظهر الخطأ جليًّا في استهتار الطقم وسرعته الجنونية؛ لكن أفراده أشبعوا الشاب صاحب الدراجة ضربًا ببنادقهم وأرجلهم في شارع رئيسي. لم يتحرك أيضًا أي فدائي حتى

بالصوت فقط. أصبح الناس أكثر خوفًا.

الفتيات والشباب الذين خرجوا أواخر ٢٠١٨ في ثورة الجياع وتم قمعهم وضربوا واختطفوا من جامعة صنعاء كانوا بحاجة لمساندة صنعاء كلها؛ بحاجة إلى خروج كبير وليس مجموعة قليلة من الفتية تمثل عصيًّا صغيرة يوقد بها الخوف أكثر في نفوس الناس من المليشيا المسلحة بالوحشية؛ لكنهم الجياع الذين شبعوا ضربًا دون مساعدة من أحد. للأسف ملامح الرحمة والتعاطف اختفت؛ الخوف على الآخر والوجود الجمعي والحق المسلوب كلها اختفت.. نتحول إلى غابة دون أن نشعر.

الثورة لا تأتي بالكلام والأطروحات المنمقة التي ينظّر لها أشخاص في بروج مشيدة؛ الذين يطلقون كلمات تحريضية أو ساخرة من وضع الناس ومخاوفهم ثم يذهبون للتنزه في الحدائق. تأتي الثورة من قلب الخطر والخوف لهذا تسمى ثورة؛ لا بد فيها من مجازفة وتضحية جماعية يصعب إخمادها. لا بد من تكاتف ومساندة؛ لا بد من ضمير جمعي يوحد التوجه والمطالبات ويحافظ على أخلاقيات الثورة. لكنه الخوف أن نطعن في الظهر ككل مرة حتى وإن كانت صدورنا عارية.

****

كحبة القمح..

الانتظار ينبت سنابل مثقلة بالشجن..

(عفـــــراء)

تخاطب عفراء نفسها في المرآة:

_ ابتسمي يا عفراء؛ لا قلق من تلك الخطوط الرفيعة التي تظهر حول فمك حين تبتسمين. لا تبدو مخيفة كتلك التي تزداد قتامة حين يلوكك الوجع؛ الابتسامة لا تحفر في وجهك تجاعيد. بل طبقات من الغمام تبزغ على إثرها غمازة على خد واحد كهلال يتوارى خلف الغيوم. أحبي نفسك مرة كما تحبين وحيد؛ أنهكت قلب أمك قلقًا عليك؛ لو رأتك الآن تحدثين نفسك فسيعاودها القلق بشأن صحتك العقلية.

ابتسمي؛ ربما يهطل وحيد فجأة وتنسين كل سنوات وشهور البعد والحرمان؛ آه.. ليت الأشياء تحدث بتلك البساطة التي كانت عليها في طفولتنا؛ كأن ننتظر العيد بلهفة ملحة ثم يأتي.. انتظار الأطفال غالبًا ما يحسم بنهاية سهلة؛ إما أن يُنسى أو تأتي أمنية أخرى تستحوذ على ذات اللهفة. ربما لأن آمالهم بسيطة متصلة بالله مباشرة. فقط حين نكبر يصبح كل شيء معقدًا في حياتنا.. نتأرجح بين الأمل واليأس.

تعقيدات حياتنا وقراراتنا الحتمية تحول بيننا وبين أحلامنا الصغيرة!!

هذه المرة أصرت عفراء أن تخرج بمفردها لتشاهد الغروب على النيل؛ تحاول أن تشعر بما حولها فقط؛ قمعت رفض والدتها بإصرار؛ سئمت تصرفات والدتها في وصايتها حول أدق التفاصيل. خرجت مغضبة والدموع في عينيها حين ألحت والدتها:

_ لكنك مريضة يا عفراء أخشى أن تصابي بسوء أو تصابي بالدوار والإغماء لفرط ما تتناولين من مسكنات ومهدئات وتسقطين في النهر؛ أنت لم تتركي عادتك في الجلوس على حافة الجسر كالمراهقين.

_ لست مريضة يا أمي أنا بخير.. بخير فاتركيني أرجوك؛ اتركي عنك هذه الخيالات المضحكة؛ لست طفلة كي أسقط في الماء» واتبعت عبارتها ضحكة متشنجة من شدة الغيظ. وهي تتطلع إلى أمواج النيل الهادئة وأشعة الشمس تنعكس على صفحتها تساءلت ماذا لو سقطت في النهر كما تقول أمي هل أغرق؟

هي ابنة البحر وشواطئ عدن الساحرة لم تجرؤ على تعلم السباحة كل عمرها؛ كانت تخاف البحر وتعشقه؛ وكل محاولات والدها لتعلم السباحة باءت بالفشل. «أحب أن أراه من بعيد يا أبي» هكذا كانت تخبر أباها كلما أغراها بالدخول إلى البحر؛ البحر كم يشبه الحب. يبدو أن قسمتها من الحب مثل علاقتها بالبحر: تراه من بعيد وإن غرقت فيه حتى العمق. غرقت على الشاطئ ذات مساء كان كالحلم؛ وهي ترى البحر من بعيد فقط. «آه يا وحيد أنا ألملم ذكرياتك المتناثرة بعد هذا الانشطار وأضمها إلى صدري في عتاب حزين؛ أشعر الآن بالوهن

في كل روحي؛ تقول أمي لرفيقاتي أنني مريضة جدًا!! وإني أسرف في تناول الأدوية التي لا تعجل بالشفاء!! لكنني لا أشعر بالمرض؛ لا أشعر بشيء.. أنا ضائعة فقط.. من منا أضاع الآخر؟ من منا مزق أشرعة العودة فتاة في يم الاغتراب والوجع؟ من منا باع أحلامنا من أجل الآخرين؟ لا أعرف عن نفسي إلا أني أحببتك حد الاستماتة؛ أحببت قلبك الحاني وأحببتك طبيعتك القاسية؛ أحببتك لي أو لغيري. تشبثت بك ظامئة للأمان فأزهقت روحي بغيابك وإهمالك الذي لا ينتهي..

من منا أضاع الآخر لست أدري؟!! كنت ملاذي وصرت عذابي الأليم. لست نادمة على كل هذا الحب كل هذه السنوات؛ ولو عاد بي العمر لأحببتك أكثر.

حتى إني أعذرك.. نعم أعذر تجاهلك وغيابك وحتى نسيانك.. هذا قدرنا كما تقول دائمًا. صرت أشعر أنها النهاية يا وحيد؛ افترقنا قبلًا والتقينا؛ وتخاصمنا كثيرًا وكنا نعود؛ إنما هذه المرة دب في قلبي يأس الأمل. كل شيء له مرة أخيرة.. لا تحتاج لإرادتك أنت لتنفذها؛ فإرادة الإنسان مهما عزم ضعيفة. هناك إرادة علوية تأتي هكذا بلا حسبان مهما قاومتها أو استبعدت إحلالها؛ تأتي هكذا رحمة بك أو حتى ابتلاء.

****

_ أنوي الرحيل يا وحيد.. باغته حافظ بهذه العبارة فانقبض لها قلبه؛ الرحيل؟!! تبًا لها من كلمة. التفت إليه بهدوء: «لماذا أتى هذا القرار فجأة؛ ألست تقول إن مشروع زواجك يسير بشكل حسن؟ كما أن لديك عملًا هنا لا يتأتى لغيرك؟ ماذا حدث لك يا صديقي؟ رفع حافظ يده يخلل بها شعره بعصبية وهو يهرب بعينيه عن نظرات وحيد؛ لكن هذه الحركة كافية ليفهم ما يعانيه صديقه من اضطراب رغم قوله:

_ من الشجاعة أن نكون صادقين مع أنفسنا أنهكت هذه الحرب أرواحنا.. أعترف أن الذين يحبون الوطن عن بعد على صواب وأن الحظ حالفهم في النجاة من حالة الموات التي نحياها كل يوم. سأهاجر؛ ولنقرّ أننا شعب مهاجر بالنية وأن بقيت أجسادنا حبيسة الحدود؛ أرواحنا طارت في أرجاء الأرض تحلم بالانعتاق من هذا الحال المزري. نحن شعب مهاجر بالوراثة غلبتنا القوارض للأسف أطاحت بسدود وطنيتنا مع أول قضمة. أؤمن أن الوطن هو تلك الأرض التي تحترم إنسانيتنا وكرامتنا وأمننا؛ ألم يقال «حيث تكون الحرية يكون الوطن» أريد وطنًا حقيقيًّا حتى على المريخ.

ابتسم وحيد لحديث صديقه المنفعل وقال مداعبًا: تريد أن تذهب إلى المريخ بسبب خلافات عاطفية مع حبيبة عانت كثيرًا في حياتها؟ لماذا نفذ صبرك الذي زعمت يا صديقي؟

احتقن وجه حافظ خجلًا أو غضبًا لدعابة وحيد التي أفسدت جدية اللحظة التي اجتهد من أجلها ورضخ متعبًا منهكًا:

_ لا فائدة من صبري يا صديقي مهما كان جبالًا؛ إنها لن تحبني أبدًا ولا تحتاج لي؛ أليس الحب احتياجًا؟ هي لا تحتاج إلى وجودي؛ للأسف أكثر من يتعرضون لصدمات الألم هم أشخاص لا يعرفون متى يتوقفون عن تقديم التنازلات. حين نبذل الحب نقطع نصف المسافة تلتقي القلوب إذا بادلك الطرف الآخر بقطع النصف الثاني؛ لكنها لا تحاول ولا تريد حتى المحاولة. جذبه وحيد من كتفه وهزه برقة:

_ ليس دائمًا يكون احتياجًا؛ أحيانًا يكون اختيارًا بمحض الإرادة. فكرة الهجرة تبدو لي مناسبة؛ سنجربها كي نساعدها على الاختيار.

_ لم أفهم يا وحيد؟!!

_ ستفهم غدًا؛ ما أريد قوله لك إني أيضًا فكرت مرتين في الهجرة ليس هروبًا من الحب لوطني أو من امرأة ترفضني؛ في الهجرة الأولى إلى هنا كنت أنشد وطنًا وفي حلم الهجرة الآخر من أجل امرأة أحببتها وجبنت كثيرًا أن اختارها. أتذكرُ حين سافرت إلى عدن قبيل استشهاد شائف؟ كنت يومها ذاهبًا لاختطافها عروسًا لي على شاطئ البحر؛ لم أخبر أحدًا حينها حتى شائف_ فلا تفغر فاهك هكذا_ حرصت أن يكون الأمر سريًّا مراعاة لمشاعر سميرة؛ لكن القدر اختار قبلنا وافترقنا.

_ وأين هي الآن؟

_ سافرت مع والدتها المريضة إلى مصر بعد أن يأست من عجزي عن التقدم خطوة؛ منذ شهور طويلة لم أسمع عنها شيئًا أو ترسل لي

حرفًا؛ لا أظن أن هناك أشقى من شعور العجز؛ عن فعل شيء.. عن قول شيء.. عن رفض شيء.

_ حسنًا وأنت هل أرسلت؟

_ لا.. لا أعرف لها طريقًا ولم أبحث؛ أحلم فقط بالسفر إليها؛ ويتشبث بي كل شيء هنا.

خذلتها قبلًا حين هاجرت إلى مأرب؛ حينها كنت مثلك أريد وطنًا لا أستيقظ فيه على أخبار القتل والخطف والقصف؛ ولا أنام فيه على رعب النهار وقلق الغد الذي يحتل ليلي كوابيس. أردت وطنًا لا تملؤني الحسرة كلما رأيت جماله البهي وأنا أدرك أن كل خير فيه قسمة بين أعدائه وخونته ولا حظ لي منه سوى القبر.

أردت وطنًا لا تنسخ فيه المليشيا بعضها كالمحلل والمحلل له؛ وطنًا يكون لأبنائي الأب والأم إذا غيبني عن الحياة الموت. وطنًا لا أمطره بالدموع كلما استحال إلى صحراء قاحلة بلا زاد أو مأوى؛ نريد وطنًا كلما أردنا أن نزرع بين جنباته الوعي لم يبادلنا مرجفوه بالحقد والعداوة. لكنني لم أجد الوطن الذي أحلم به ولا استطعت الحصول على الحب الذي أريده.

أطرق حافظ يشاطر صديقه حزن الخيبة؛ شعر بأن هناك حبًا أكبر وجعًا من حبه لسماح؛ إنه حب الوطن بلا أمل في حياة كريمة فيه.

_ كل يوم يقطع المجرمون عروقنا المتصلة بتراب الوطن؛ جذورنا التي تربطنا به؛ صرنا نراه كابوسًا ونتمنى الهروب منه إلى أقصى الأرض حيث لا حزن ولا دم.. نتركه للضباع لأننا لا نملك

منه وفيه شيئًا إلا حق العاشق المحروم في التمسك بالوهم أن تحدث معجزة ويعود لنا هذا الوطن..

_ غلبت عليه النجاسة واستولى عليه الأنجاس فماذا تفيده أرواحنا الطاهرة التي يدفنها في جوفه فداء له يومًا إثر يوم ولا يرتوي من تضحياتنا. هدنا حبه بلا أمل في نجاته أو نجاتنا؛ صارت أمنيتنا أن يعود سعيدًا ضربًا من المستحيل.

****

_ أخبرني حافظ اليوم أنه يفكر بالهجرة.. ربما أصابه صدك باليأس يا سماح؛ أشعر أحيانًا أني والدك الذي ينبغي عليه أن يهتم لك ويعينك إذا انتابتك الحيرة.

تعرفين؟ يستميت العقل كي يجد يقينًا يؤمن به؛ يظل ينقض الحقائق كلما توغل في فلسفة ما حوله؛ تتفتح أبواب العقل للمعرفة بلا نهاية بعكس القلب الذي يستميت كي يجد حبًا يكتفي به؛ يغلق أبوابه كطفل ما إن تصدمه أول حقائق الحياة من حوله؛ هذا ما يحدث لك يا سماح أغلقت أبواب قلبك بإحكام لم تتركي له فرصة كي يجرب الحب مرة أخرى؛ اسألي قلبك هل يريد أن يبقى حافظ معه؟ اسأليه قبل أن يلومك أنك أضعت هذا الحب الصادق عليه. اتسعت عينا سماح بدهشة:

_ هل يمكنه فعل ذلك حقًا؟ تمنى وحيد أن نظرة عينيها خوفا من رحيل حافظ؛ لكنها قالت بثبات: «سبق وتركني عمار وذهب. فقد وحيد أعصابه وصرخ فيها:

_ ما بالك تصرين على اجترار الماضي بمناسبة وغير مناسبة؟!! عمار ذهب للقيام بواجبه وليس تركًا لك؛ يجب أن تتخلصي من ماضيك كي تبدأي حياة جديدة؛ فكري يا سماح قبل أن تندمي لضياع حافظ. أنا ذاهب الآن لوداعه؛ سيسافر غدًا الرياض؛ ومنها لا أدري أين؟ ما زال الوقت كافيًا لتفكري بهدوء.

تركها على ثقة أن غدًا سيكون هناك شأن آخر. خبرته في ردود أفعال النساء اشعرته أن انتظار حافظ لن يطول؛ لطالما تنبأ بردود أفعال عفراء لتقوم بما يظنها ستفعله.

لم تخذله سوى مرة حين أرسلت رسالتها الأخيرة وأقفلت كل الأبواب إليها ولم تعد. أنتظر كثيرًا رسالة أو مهاتفة أو حتى خبراً عنها؛ ربما أصابها اليأس أو موجوعة أكثر مما تخيل. لعلها في المقابل تنتظر الخطوة الأخيرة منه هو؛ أما أن يسافر إليها ويرتبطان أو يتجاهلها ويصبح ما كان بينهما حقًا. خيطًا من دخان.

كان حافظ قد سبقه إلى المكتب؛ ملامح وجهه تقول الكثير؛ مط شفتيه برضا وهو يهتف

_ يا للنساء!! ظننتها ستفكر حتى الغد؛ يبدو أنها أرسلت لك ما أفرحك.

_ ماذا قلت لها لتغير رأيها هكذا وتريد أن نحدد يومًا للزفاف؟

_ قلت لها إنك ستهاجر وأتيت الآن لوداعك؛ لكن عوضًا عن ذلك سنرتب لحفل الزفاف فسماح تستحق أن نفرحها بزفاف جميل. وأردف مغتبطًا:

_ أتدري يا صديقي؟ الحب الأول تقع فيه على وجهك فعلًا. لا تختار أن تقع أو مكان غرقك ولا عمق الوقعة التي تأسرك؛ إنما الحب الثاني فتختار الحفرة التي تسير إليها بقدميك؛ تختارها وفق مقاييس أحلامك وخيالك تنتقي حجم شغفك ووجعك في ذات الوقت؛ الحب الأول يختاره قدرك والحب الثاني يختاره قلبك وسماح اختارتك.

****

لم يعاود ماهر الحديث عن الذهاب إلى جبهة القتال منذ عودة أبيه إلى مأرب.

لكن نظراته التي يوجهها موازية لعيني أبيه في عناد تقول أكثر مما يمكن أن يقوله.

على مائدة الطعام أو في جلوسهم مساء ما إن يتحدث وحيد حول الحرب حتى يطيل ماهر النظر إلى أبيه عن قصد كأنما يقول له بتلك النظرات الغاضبة: أنت تقول ما لا تفعل يا أبي. أدرك وحيد أن زوجته سميرة هي من ألجمت رغبة ولده الجامحة في خوض قتال حقيقي لا يشبه ألعاب الفيديو التي أدمنها وهو صغير. وهذا من محاسن سميرة الكثيرة فلولاها لخاض صراعًا مع ولده لا يعرف نهايته.

إنه سلطان قلب الأم الذي يلين له الصخر؛ أما علاقة الديكة التي تربط الآباء مع أبنائهم فتستهلك حِلمه وصبره وتنتهي بما لا يريد. مرات كثيرة حاول أن يتحدث بشكل عارض غير مقصود عن كفاح الكاتب والقلم الذي يحمله كسلاح موازٍ للبندقية والرصاصة؛ حاول

أن يشعر أولاده أنه ينزف حبره من روحه وعروقه أيضًا؛ لكن خبرة ماهر في هذه الحياة لا تتجاوز بطولات قصص النضال المسلح الحماسية التي تدغدغ قلوب الشباب في أوضح صور التضحية والبطولة.

تعود أن يتغاضى عن نظرات ولده الغاضبة أحيانًا والساخرة أحيانًا كثيرة؛ عن عباراته الهازئة في تلميح إلى تناقض أبيه أو تخاذله؛ عندما يلقيها في البيت في براءة ماكرة؛ يبتلع ألمه بصمت وهو يحدث نفسه: «ستكبر يا ولدي وتفهم هذه الحياة؛ وستعذر أباك وتتمنى أنك لم ترسل رصاصات عينيك وكلماتك إليه.

في لحظة ضعف شكا حاله مع ولده إلى حافظ؛ فحافظ يصغر وحيد بما يزيد عن العشر سنوات؛ يقع في منتصف المسافة العمرية بين وحيد وولده؛ حدثه عن استخفاف ماهر بما يقول ويكتب بعد أن رفض ذهابه إلى القتال وتمنى عليه مرافقته ومحاولة فهم كيف يفكر فقط؟ ربما يستطيع أن يصل به إلى قناعة لم يستطع وحيد أن يصل إليها معه. ابتسم حافظ مواسيًا وهو يقول:

_ أنت أكبر من هذا الشعور يا وحيد؛ ما زال ماهر مراهقًا ولن يصل إلى قناعات واعية في سن كهذه؟ نحن نساعده على التفكير لكن من الصعوبة توجيه هذا الجيل المتأزم نفسيًّا. أتدري يا وحيد؟ أنت بحاجة إلى سفر بعيد يجدد روحك ويواسي جراحك الكثيرة؛ متى ستسافر القاهرة لرؤية عفراء؟ غامت عينا وحيد بحنين عاصف وهو يقول: «عقب زواجك أنت وسماح سيكون ذلك؛ أحتاج أن أجد نفسي فعلًا.

****

أسعى إلى الحب والسلام..

كعيسى ابـــن مريـــم؛

إلا إني صلبتُ وهو نجا..

(زينب)

وهي تقوم بدورتها المعتادة من تفقد المرضى علمت زينب من أحاديثهم بعودة دفعة الجرحى التي فيها شوقي التعزي إلى مطار سيئون؛ لأسابيع طويلة منذ سافر لاستكمال العلاج وهي تخوض صراعًا وحيرة فاقت كل مراحل الحيرة في حياتها. «كم خاض هذا القلب من ألم وأمل؛ من خوف وتردد؛ من حيرة وضياع؟!!

منذ اعتقال زوجها الشهيد لم يسكن قلبها بين ضلوعها أبدًا؛ لم تعد تعرف راحة الأنثى بوجود السند الذي ترمي على كتفيه أحمالها وهي مطمئنة أنه ظهرها وراعيها. لأسابيع طويلة والحيرة تنهش قلبها: ماذا لو عاد شوقي خاطبًا لها هي الأرملة أم الطفلين هل تقبل به هو العازب الذي فقد ذراعه وربما ساقه؟ تذكرت أنه أخبرها إذا عاد دون ساقه فلن تراه مجددًا؛ سيسلك طريق عدن قافلًا إلى مدينته تعز؛ هكذا أخبرها وصارت تدرك تلك الأنفة والكبرياء التي تميزه. لن يقبل أن يعود بتلك الصورة المؤلمة..

«إنما لو عاد يا زينب وتقدم لك خاطبًا؟ هل تقبلين به؟ وزوجك أبو ولديك حبيب قلبك الذي عانيتي من أجل انتظاره كثيرًا؛ هل تخلفين وعدك في انتظاره حتى تلقينه ولو في حياة أخرى؟ هل تحتاجين حقًا لوجود رجل في حياتك؟ من أجلك أم من أجل طفليك؟

يا لهذه الحيرة والخوف من القرار الأخير والندم!!!

كامرأة ما زالت صغيرة تطاردها العيون والكلمات؛ لكن هنا في مأرب ما أكثر الأرامل الصغيرات!! وكم تحزن لمصيرهن وقدرهن من الحرمان والعجز مع أطفالهن؛ أحيانًا يقتل الزوج في الشهور الأولى للزواج. ما أكثر الأمهات الأرامل اللاتي عجزن عن العمل لعدم التعليم أو عدم وجود إمكانات لأعمال ملائمة لقدراتهن. أمام عينيها رفضت إحدى الجهات التي تقدم سلالاً غذائية تسليم سلة غذائية لزوجة أحد الشهداء بحجة أن اسمه سقط من الكشف. يومها خرجت الأرملة دامعة العينين وهي تقول: لقد سقطت حقوقنا في الحياة يوم سقط شهيدًا. وزوجة شهيد آخر قدمت مع طفليها وأخيها إلى مأرب، بحثًا عن راتب زوجها، لتجد أن أخوة الشهيد يتسلمون الراتب دون أن يتذكروا طفليه بأي مبلغ مالي بل هددوا أخيها بالحبس إن طالب به، وعادت إلى مدينتها بطفليها وعجزها وحاجتها. أرملة أخرى لجأت إلى العمل سرًا في البيوت؛ خوفًا من العيب بعد أن ذاقت الجوع هي وأطفالها، وتناساها المجتمع المثقل بالمعاناة، قالت لها بقناعة: لن يرى الناس الوضع المادي الذي أعيشه، لكنهم سيفتحون عيونهم جيدًا حين أتنقل بين بيوت الأغنياء كي أقوم بخدمة عوائلهم.

المرأة هي الجانب المسكوت عنه من ضحايا الحرب، وجع من تلك الأوجاع التي يمرون عليها مرورًا سريعًا بلا استفاضة حديث؛ ليس لأنه أقل أوجاع الحرب صدمة؛ بل لأنه يخص المرأة في مجتمع قبلي محافظ، لا أحد فيه يحب أن تذكر المرأة إلا بإشارة مبهمة وبتلميح لا يعري خصوصيتها أبدًا. نالت منها الحرب من كل جانب، وهي الأم وهي الزوجة وهي الضحية المباشرة لمجتمع يرى المرأة عورة.

هذه العورة تترك في مواجهة شظف الحياة بلا ستر من رجل ينفق عليها وعلى أطفالها أو دخل أو عمل يقيها الحاجة، ربما تكون في مقتبل العمر وفي أول درجات الشقاء في حياتها. على امتداد اليمن آلاف الأرامل الصغيرات الآتي تزوجن مشروع قتيل. كثيرات من هؤلاء النساء؛ إما أن يرتبطن بكبار السن أو يبقين عالة على أهاليهن أو يقضين حياتهن أرامل يعانين فقرًا ووحدة وعجز، يحدث أن تتخلى الفتاة عن طفل أو طفلين بطلب من أسرتها الذين يرفضون أو يعجزون عن كفالة أطفال الشهيد؛ تتركهم للضياع دون أب أو أم؛ الكثيرات بلا مصدر رزق أو إعانة مجتمع تأكل الحرب الأخضر واليابس فيه ويصبح الغلاء قاتلًا آخر ينتهك البيوت، وتعجز فيه الدولة عن القيام بواجبها لأهالي الشهداء. لكل هذا تخاف من مصيرها وحيدة هنا؛ تنهشها الحيرة بين القبول بزوج يساندها أم تخوض غمار الحياة كمعركة وهي حيدة.

هذه الحيرة التي تعصف بحياتها جعلتها تتمنى بكل شعورها

بالذنب ألا يعود شوقي كي لا يضعها في هذا الخيار الصعب؛ فعدم عودته لا تعني إلا أنه فقد ساقه. تخاف أن تأتي هذه اللحظة إلا أنها أتت كصعقة جعلتها تنتفض في وقفتها وشوقي التعزي يظهر من باب الطارود الممتلئ بأسرة الجرحى ليشير إليها بيده الوحيدة أن تأتي ليحدثها إليه ليحدثها. تجمدت أطرافها من رهبة الموقف وشكرت الله كثيرًا أن هذا النقاب الذي عايشته كمصير محتوم يحجب ملامح وجهها التي غافلتها سعادة رغمًا عنها.

****

(عفـــراء)

كان يومًا شاقًا قررت فيه الخروج من المنزل في قلب الظهيرة لأول مرة منذ وصولها إلى القاهرة؛ أشعرتها معرفتها أنها لم تر شروق الشمس منذ شهور بالصدمة!!

وصولها مع والدتها إلى القاهرة كان في نهاية النهار والشمس الغاربة تبدو من نافذة الطائرة كموج أحمر موشى بخيوط الذهب. ما إن غادرتا صالة الانتظار حتى تلقفهما ليل القاهرة بأضوائه الساطعة وزحام الحياة فيه. كان إيذانًا أن تكون كائنًا ليليًّا سيحرم من شروق الشمس الذي يبعث التفاؤل والأمل في القلوب. وتصبح بعدها من مدمني جمال الغروب.

خرجت أولًا بصحبة والدتها إلى أقرب بقالة تبضعت منها والدتها ما تحتاجه للبيت؛ فرحتها غامرة وهي ترى عفراء تستيقظ مبكرة؛ منتعشة بصورة افتقدتها منذ جاءت إلى القاهرة. لم ترفض الخروج لشراء الحاجيات ولم تتعلل بالصداع أو رغبتها بالكتابة؛ استيقظت مبتسمة تغني بصوت عالٍ على غير عادتها مؤخرًا. سألتها والدتها وهي تخفي سعادتها كي لا ينقلب مزاج ابنتها:

_ تبدين مختلفة هذا الصباح يا حبيبتي؛ أخبري أمك هل أرتاح قلبك حول أمر ما؟ ابتسمت عفراء برضا قائلة: «نعم يا أمي ارتحت

فعلًا فقد أرسلت ديواني الأخير إلى المطبعة وأشعر أني أنجزت فعلًا. استدركت بحرج وهي تلقي نظرها أرضًا:

ـ أمي.. كنت أود أن أهدي لك أنت وأبي هذا العمل الأخير لكنني أهديته لشخص آخر. ابتسمت أمها بحنو قائلة: «هل هو صاحب الابتسامة الجميلة في هاتفك؟

ارتفع حاجبا عفراء بدهشة: يبدو أنك تشعرين بي أكثر مني يا أمي وأضاف بغمغمة حزينة: إنه وحيد الأمير كاتب صحفي يقيم في مأرب؛ كان أجمل ما حدث في حياتي..

احتضنتها والدتها بشفقة وحنو قائلة:

ـ حبيبتي لا تقولي كان؛ ولا تقولي عملك الأخير؛ ستكتبين أجمل قصائد اللقاء به كما كتبت أجمل قصائد الفراق عنه. ورفعت صوتها وهي تقول بحماسة:

ـ يجب أن نحتفل إذًا؛ سنخرج إلى التبضع وسنصنع معًا ما تحبين من طعام وحلوى وادعى صديقاتك التي تحبين لهذه المناسبة العظيمة. ابتسمت عفراء قائلة:

ـ ماذا لو دعوتك أنت يا أمي إلى الغداء خارجًا عقب التبضع للبيت؛ هذا إنجاز يستحق يوم راحة من الطبخ لنا أو لغيرنا. امتد يومًا شاقًا لعفراء التي اعتادت الجلوس في البيت فرارًا من زحام وحرارة القاهرة؛ أخذت والدتها إلى الغداء في مطعم مطل على النيل؛ ثم اصطحبتها مساء إلى دار السينما؛ سعيدة بما أنجزت ولم يكن هناك

أحد يمكن أن يشاركها سعادتها سوى والدتها. حين عادتا ليلًا ظهرت سعادة والدتها كما لم تكن قبلًا؛ استعادت طفلتها الكبيرة كما كانت. تبادلتا حديثًا قصيرًا ثم أوت أمها إلى فراشها وهي تدعو لها بسعادة أبديه لا ترى بعدها حزنًا أبدًا. أما عفراء فقد رتبت مكتبتها الصغيرة مفسحة مكانًا لديوانها الجديد الذي سيأتي قريبًا. على الرف سبقته رواية وثلاثة دواوين صغيرة الحجم؛ الرواية التي كانت سببًا للقائها بوحيد ذات صباح في مكتبه في صنعاء. زارته يومها للاتفاق بشأن قيام شركة التوزيع خاصته بتوزيع روايتها تلك التي لم تكتب سواها بل عايشت قصة حب معه أقرب إلى الرواية منها إلى الحقيقة.

تمددت على فراشها منهكة تسترجع ذكريات أول لقاء بينهما قبل خمس سنوات؛ تلك الدهشة والشغف الذي اعتراهما معًا. غرامها به الذي جعلها تغازله بجرأة فاقت شجاعته؛ قبلتهما الأولى والأخيرة؛ عقب دعوته لها إلى الغداء؛ ريفيته الساحرة ونظراته التي أسرتها؛ ابتسامته الفاتنة التي لا يشبهها شيء. يومها أرادت أن تعلق في ذاكرتها رائحته؛ أن تتشرب ابتسامته المرتعشة عن قرب وأنفاسه تصطدم بوجهها وتملأ صدرها؛ غادرتها السكينة والنوم مع سيل الذكريات الذي انسكب كشلال هادر من الحنين كم حاولت لشهور طويلة حجبه عن مخيلتها. _على سرير من الجمر_ هذا التوصيف لن يفقد مصداقيته مهما صار مبتذلًا؛ هي تتقلب على جمر في سهر ودرجة حرارة خانقة رغم المكيف؛ أشعلتها الذكريات والحنين.

يبدو أن كل الحبوب المهدئة والمنومة انقلب مفعولها إلى العكس

تمامًا؛ ليت أمها التي تخشى إغماءها فجأة إذا خرجت بمفردها تعلم ما تعاني من أرق وسهر وقلق مبهم مع تناول الحبوب المنومة. هل اعتاد جسدها وخلايا مخها تأثير تلك الحبوب أم أن عليها مضاعفة الكمية فقط؟ أعطاها الطبيب أدوية قليلة وأخبرها أنها مجرد أدوية مساعدة لإفراز هرمون السيروتونين الذي يخفف من القلق والاكتئاب؛ لكن ماذا عن أدويتها الخاصة بالصداع والنوم؟!! ضاعفت كمية المنوم في محاولة لجلب النعاس ونهضت من فراشها لأخذ دوش بارد كمحاولة أخيرة لطرد الأرق؛ تذكرت حالة النعاس التي تغشاها حين تأخذ حمامًا لطرد الجو الحار في عدن؛ كانت تستلقي بشعرها المبلول وتغيب في نوم عميق بعد أن يتسلل الخدر إلى جسدها المنتعش؛ أين هي من تلك الأيام الهانئة؟!! ملأت الحوض بالماء البارد ونزعت ثيابها وغطست في ارتجافه منعشة؛ كأنها تطفئ كل الجمر الذي علق بها من سهرها وأرقها؛ انزلقت في الماء وأغمضت عينيها تراود النعاس أن يأتي؛ وتصرف ذكرياتها بعيدًا.

ستقفز إلى سريرها وتنام قبل أن يعرف بعودتها كل السهر والحنين الذي ينتظرها.

****

ليس الموجع في الحياة تلقي الصدمات بقسوة،

الموجع ألا تجد ركنًا تنزوي فيه وحيدًا تبكي

وجعك بصمت وحرية.. وكبرياء.

(وحيـــد)

تحدد موعد واحد لزفاف سماح وزينب على حافظ وشوقي التعزي. أصرت سماح أن يكون زفافها مع صديقتها المقربة؛ بعد أن حصل شوقي على ما يكفي من هدايا الأصدقاء لشراء «كونتيرة» ستكون بيت الزوجية. هذه البيوت المتنقلة التي انتشرت في مأرب من أجل النازحين؛ كانت مناسبة مع تلك المساحات من الأرض الصحراوية التي منحت لهم كأماكن للسكن.

انشغل وحيد بصديقيه كأم للعروس وأب لها بعد أن منحه أخوة سماح توكيلًا بعقد قرانها لغيابهم خارج البلد. لحسن الحظ حماسة الأصدقاء تجعل كل الأمور سهلة التكاليف؛ تيسر أمر الزفاف بشكل أدهش الجميع؛ الحصول على شقة وتأثيثها وتوفير كل متطلبات الزفاف جعل حافظ يقول لوحيد ممازحًا: «هذا هو تحالف الأصدقاء والأخوة وليس تحالف السياسات. تبسم وحيد قائلًا:

_ هؤلاء الأصدقاء هم من يتناقصون استشهادًا أيضًا بسبب تلك السياسات.

صرت على ثقة أنه لو اقتصر الحسم علينا كيمنيين لاختلف الأمر؛ لكنها لعبة كبرى لاعبوها بلا ضمير إنساني؛ اليمن أحد ضحايا الأطماع لاستغلال مواردها أو بشكل أصح سرقتها؛ الحرب الباردة للتحالفات الكبيرة ما هي إلا حرب زائفة لإخضاع الآخر سلميًّا فالضحايا الذين يسقطون فيها هم هامش نقاشات الدول الكبرى.

ضحك حافظ وهو يشيح بيديه رافضًا:

_ ما رأيك أن ننسى اليوم كل الحديث عن الحرب والخراب الذي حولنا؛ اليوم عرس وغدًا أمر آخر.

_ حسنًا يا صديقي سنخبر العالم القلق أن تموز لعام ٢٠١٩ خاص بزواج صديقي حافظ وصديقتي سماح ولا ينبغي أن يتحدثوا عن حرب باردة يخشى أن تزداد سخونة توقعها مع الأيام. لا خشية من فكرة تقسيم اليمن التي تنهش أكبادنا ما دام الزواج فكرة لجمعك أنت وسماح بعد يأس طويل.

ضم مجلس العرس حافظ وشوقي التعزي معًا وعشرات المهنئين من رفاقهما وتعالت أغاني الزفاف اليمنية بأصوات رخيمة. هذا هو الشعب الذي ينتزع مسراته في فم الحرب والحزن. ووحيد يهم بدخول «المجلس» تصل رسالة إلى هاتفه لا يدري كيف التقطت أذناه نغمتها وسط الضجيج. يطالعها وهو يهم بوضع أوراق القات في فمه؛ لكنه ما لبث أن ردها بشهقة انتزعت جوفه كله. تلوت الأرض تحت قدميه مثلما هي أحشائه.

****

استيقظت والدة عفراء متأخرة للصلاة وهي تغمغم بالدعاء لولديها؛ نامت باستغراق ولم تدرك صلاتها أو موعد يقظتها. توجهت إلى حجرة عفراء لتيقظها فوجدتها خالية؛ طرقت باب الحمام لتنبيهها قبل أن تعود إلى حجرتها لتصلي. لم تخرج عفراء فعاودت الطرق ومناداتها؛ انقلبت أحشاءها قلقًا وعفراء لا ترد. أعادت الطرق والنداء بعصبية وهلع.. لا صوت بالداخل رغم أن الباب مقفل بالمفتاح. لم تكن ترحب بعادة ابنتها في إغلاق الحمام وهي وحيدة في البيت. لم تدرِ ما تفعل؛ خارت قواها تمامًا وبدأت بالنشيج رغمًا عنها؛ خرجت لتطرق شقة جيرانهم المصريين من خلال صوتها الباكي فهمت جارتها وحضرت مع زوجها الضخم؛ حاول فتح الباب بالحيلة ولجأ إلى كسره في آخر المطاف. أمسك بمقبض الباب قائلًا: «تراجعي أرجوك يا أم عفراء ستدخل زوجتي.

لم يكن بحاجة إلى قول ذلك فساقاها عجزتا عن الحركة؛ ما إن دخلت جارتهم حتى صاحت بشهقة: لا حول ولا قوة إلا بالله. وهوت أم عفراء أرضًا.

كانت عفراء تستلقي في حوض الاستحمام غارقة في الموت وشعرها يطفو حول وجهها الهادئ بسكينة وراحة.

****

«ولدي العزيز وحيد..

عانيت كثيرًا منذ وصولي إلى عدن قبل شهر في السؤال عنك والبحث عن رقمك.

لا أدري ما السبب في فراقك عن ابنتي عفراء وهل ما زلت تحمل لها شعورًا ما. ما أعرفه أنه لزامًا عليّ أن أخبرك بشأنها؛ لأنك كما قالت لي أجمل حدث في حياتها لذا أبلغك أن عفراء ابنتي توفت غرقًا وهي نائمة كالملاك؛ ربما كانت تفكر بك حينها فقد كنت آخر حديثها لي قبل نومنا تلك الليلة.. لمحت صورتك مرارًا في هاتفها قبل أن تحدثني عنك وتخبرني باسمك وعملك. أهدتك ديوانها الأخير وماتت وهي تتمنى أن تأتي إلى القاهرة وتلتقيان من جديد؛ انتظرتك حتى آخر لحظة قبل أن يسرقها الموت وهي نائمة. سأرسل الكتاب في أقرب وقت إليك في مأرب؛ أثق أن عفراء لم يكن يهمها أن يقرأه أحد مثلك. إذا فكرت في زيارة عدن سأصحبك لزيارة قبرها إن كنتُ ما زلت على قيد الحياة. والدة عفراء

****

في تلك اللحظة ووحيد يهم بالدخول إلى مجلس الزفاف طالعته رسالة والدة عفراء.

انفجرت الدماء في أذنيه وعينيه؛ بل انفجرت أحشاؤه وقلبه لوقع الكلمات.

عفراء.. ماتت.

عاد متراجعًا إلى أقرب حمام صادفه وأغلقه عليه وقتًا مستقطعًا من وعيه لا يدري كم هو؛ لم يكن واعيًا لشيء سوى ألا يرى أحدًا. خرج بعد وقت لا يعلمه وطلب من أول صديق قابله أن يعتذر لحافظ فقد وصله خبر مهم وسيغيب لساعات؛ ما زال مفتاح السيارة التي زفّ بها حافظ معه؛ استقلها مبتعدًا خارج مأرب.

الصحراء فقط يمكنها ابتلاع صرخاته ودموعه وصدمته. ليل الصحراء الهامد جزء صغير من حزنه الكبير؛ ارتمى على الرمال الساخنة يبكي كالأطفال؛ يبكي ويصيح ويلعن نفسه التي خذلتها. بكى كل سعادته وحياته التي دفنت في أرض الوطن.

عفراء الحبيبة ماتت احتواها التراب وليس أحضانه هو..

ظل يبكي طوال الليل مستلقيًا على الرمال وعند بزوغ أول توهج للضوء قاد السيارة إلى سد مأرب؛ سيقفز بنفسه في السد الذي يغرق فيه الناس بكثرة؛ سيجرب كيف هو شعور الغرق المريح بدلًا من غرقه في هذا الحزن المضني.

وصل السد ودون أن يخلع حتى حذاءه سبح حتى أبعد نقطة يستطيعها. سبح مطولًا ينتظر الغرق؛ حاول أن يغرق لكنه يطفو كقشة لا قيمة لها.

فجأة انتشلته ذراعا رجل وسحبتاه خارجًا؛ أدرك أنه أحد الغواصين الذين يراقبون السد لإنقاذ من تسول له نفسه السباحة في مياه السد الخطرة.

انسحب إلى السيارة وهو يلعن الغواص الذي أتى عندما لم يحتاجه أحد؛ جلس في السيارة حتى انتصفت الشمس كبد السماء زائغ النظرات؛ نضبت دموعه وصار حزنه أخرس حتى من الأنين.. غادر السيارة وجلس على الرمال حتى الغروب..

الشمس المتوهجة بحرارة لاهبة تغوص في مياه السد؛ فتبدو أجمل مما توصف؛ غروب ملكي لأشعة ذهبية ساحرة كم يشبه الغروب موتها وهي تغرق!! حينها فقط قاد السيارة عائدًا إلى بيته.

****

استقبلته زوجته وأولاده عند الباب ما إن سمعوا حركة المفتاح فيه؛ كان القلق يلتهم وجوههم في ترقب وتوجس مذ سمعوا بمغادرته الزفاف ليلة أمس؛ بادرته سميرة:

ـ أين كنت يا وحيد؟ رد بصوت واهن:

ـ لا بأس؛ كنت خارج مأرب أحدهم قتل وذهبت لوداعه.

مظهره المرهق والمحطم كافٍ عن قول أي شيء آخر لكن ماهر استغل الموقف كعادته قائلًا: «هؤلاء هم الرجال الحقيقيون يفعلون ما يقولون» التفت وحيد إلى ولده في شرود وهو يقول بخضوع:

ـ نعم هؤلاء رجال حقيقيون يفون بعهدهم؛ أنا فقط ذلك الوغد الحقير الذي لا يفي بوعدٍ ويقول ما لا يفعل. امتقع وجه ماهر لكمية الحزن في صوت أبيه؛ قبل أن ينزوي جانبًا قد صعقه منظر أبيه وصوته وكلماته تلك؛ يبدو كمن بعث من قبر وليس عائدًا من دفن أحدهم.

لأول مرة يشعر بالندم لوقاحته المقصودة؛ لكنه يعجز عن الاعتذار لأبيه الذي جر قدميه المتسخة إلى حجرة مكتبه وتمدد على الأرض كالقتيل.

فتح وحيد هاتفه؛ لم يكن قد أكمل الرسالة بالأمس؛ ما قرأه كان كافيًا لقتله؛ فلم يحتمل ما تبقى. هناك صورة لعفراء بغطاء شعرها الأزرق تبتسم بحزن وشرود وقد غافلتها كاميرا المصور؛ وتقرير الطبيب الشرعي الذي ذكر أنها ماتت غرقًا بعد أن غلبها النوم في حوض الاستحمام لتناولها كمية أكثر من المعتاد من أقراص المنوم وصورة أخيرة لقبرها مكللًا بالزهور.

_ أهذا كل ما تبقى منك يا عفراء كومة تراب كشاهد على جمالك ودفئك وحبك الكبير؟!!! تبًا لهذه الحياة التي توجد فيها دون إرادتك؛ ويحدث فيها ما لا تريد وتفقد من تحب؛ وتشتهي ما لا تملك؛ وتموت انتظارًا لشيء سعيد. ماتت عفراء!!

كيف نزعتها مني أيها الظلام وطويتها في قبر؟!! لم أكن لأصدق أن يأتي هذا اليوم الذي تخلو منك الحياة.. بل خلت الحياة بفقدك؛ نزعتي الحياة من أحشائي وروحي برحيلك المباغت يا عفراء.. وداعًا يا عفرائي؛ وداعًا يا ضوء الشمس الذي يدفئني ويضيء طريقي وأنسج من خلاله غلالة أحلامي.. وداعًا يا حبيبة الروح ورفيقة شجني وأشواقي.

****

كعادته كلما قصفته الحياة بفقد يزلزل كيانه يعتزل الحياة والناس ورغبة العيش كلها. أغلق هاتفه تمامًا؛ وشكر الله أن حافظ مشغول بعروسه ولن يزعجه أو يبحث عنه. ممتنًا لزوجته سميرة انصرافها عنه ومراعاتها لحالته التي ألفتها من قبل فهي تنتابه مع رحيل كل صديق. أيامًا طويلة ينفصل فيها عما يدور خارج حجرته؛ ربما يقرأ كثيرًا أو يكتب أكثر؛ يكتب شاعرًا أن ماضيه يحتاج أن ينتهي ككتاب وصل إلى صفحته الأخيرة.

ربما يبكي دون دموع كل أحزانه السابقة ثم يتركها بين صفحات أوراقه ويخرج منها صفحة بيضاء محتها الدموع. يحتاج التصالح مع فجائعه المتوالية؛ يريد أن يتقبل كل هذا الحاصل فقط. في صباح من تلك الصباحات المعتمة دخل أصغر أطفاله ممسكًا بظرف أصفر متوسط الحجم قائلًا له:

ـ رجل أتى به؛ سألني وأنا ألعب مع رفاقي أمام البيت عن منزل الصحفي وحيد الأمير وأنا أخبرته أنك أبي فناولني هذا الظرف. قبّل صغيره قبل أن ينطلق الصغير خارجًا لمعاودة اللعب. تحسس الظرف الأصفر بقلق؛ يجزم أنه ديوان عفراء كما قالت والدتها؛ كان اسمه مكتوبًا فقط بخط واضح؛ غرس أصابعه في شعره المبعثر وهو يحدث نفسه: «هل تملك القدرة على قراءة سطر منه يا وحيد؟ هل يمكنك أن تقرأ كلماتها الناطقة بالألم والخذلان دون أن يتحطم داخلك الذي تحاول ترميمه طيلة هذه الأيام؟ لكن أصابعه امتدت تلامس كلماتها برجفة لوعة صامتة؛ يتذكر ملمس كتفيها حين شدها إليه ذلك اليوم

على الشاطئ؛ ولا يصدق أنها حقًا تلاشت. فتح وحيد أولى صفحات ديوانها وقرأ هذه العبارة:

«عندما خلقنا الله لم يسألنا ماذا نريد؟ طفق يرتب الكون كله بإرادته ونحن جزء يسير من هذا الكون. لو أن الله سألني ماذا أريد من كل هذا الكون؟ كنت سأقول له: أنت فقط».

كلماتها هذه كافية كي يغلق الكتاب لا يدري إلى متى؟ لكنه عاجز عن قراءته!!

إنه ذات العجز الذي يصفعه دائمًا في قراراته الخاصة. ذات العجز الذي أفقده عفراء وكل شيء خسره وسيخسره طيلة حياته.

****

أخيرًا هو بحاجة إلى تحدي نفسه فقط..

سيكسر عجزه الأزلي؛ هو على قناعة أن الكلام_ كل الكلام_ لم يعد يجدي شيئًا.

خرج من عزلته أشد صلابة؛ مات ضعفه وتلاشى الأمل الخادع من حياته ومستقبله. إنه بحاجة إلى الرحيل في إجازة طويلة؛ ليس إلى القاهرة كما كان يخطط فعفراء قد ماتت؛ بل إلى مواجهة الموت شخصيًّا.

الموت الذي نزع عفراء؛ الموت الذي قابله من قبل؛ قابله أكثر من مرة؛ في الصحراء في ذلك الحادث وفي شقته بتسمم غذائي وعاطفي؛ في وجوه رفاقه وهو يودعهم. سيذهب إلى مقابلته هناك حيث يختبر صدق كلامه من عدمه كما يقترح ولده ماهر.

لن يخشى على أحبته أن يحتل الحزن قلوبهم من بعده؛ فهو كما يبدو لم يمت بعد عفراء ولا ينوي أن يموت حزنًا. سيموت وفيًّا لكلماته وفيًّا لوعده المتبقي في سبيل الوطن؛ لم يعد في حياته عشق يعادل عشق الوطن فمعشوقته ماتت.

«عفراء المشمسة كشواطئ عدن ماتت؛ ماتت في الغربة والحنين ماتت لأني خيبت أملها كثيرًا. سامحيني يا عفرائي لقد مات الكثيرون هنا أيضًا.. ماتوا حربًا وليس حبًا..

ماتوا جوعًا وفقرًا وقتلًا »

****

كان لخروج وحيد من عزلته فعل العيد في عائلته؛ ذهب إلى الحلاق ورتب مظهره فبدا مختلفًا بعد أسابيع من الفوضى العارمة. أخبر سميرة عن نيته؛ وكعادتها فاجأته برصانتها وتقبلها لقراره؛ ماهر من عارض بشدة. غادره لونه وارتجفت شفتاه وهو يخاطب والده بحزن:

_ أرجوك يا أبي؛ أنا سأذهب إلى القتال؛ ابق أنت من أجل أمي وأخوتي. نشج بصوت مكتوم وهو يشعر بالذنب؛ هو السبب في قرار أبيه. احتضنه وحيد برفق وهو يهمس في أذنه: «لن أقاتل.. على الأقل حتى أتعلم كيف يقاتلون_ وابتسم رافعًا حاجبيه بدهشة. هو لم يحمل سلاحًا في حياته.. لم يقتل أحدًا أو شيئًا باستثناء أحلام عفراء البريئة.. لكنه سيقاتل تلك الأحلام الشيطانية التي تزرعها المليشيا ضد وطنه

وأبناء شعبه. سيقاتل فهو الخيار الأخير المتاح لهذا الشعب كي ينال حريته وكرامته:

ـ لم يعد يجدي قتال الكلمات؛ فأصواتنا تضيع بجوار كل هذا الزيف والدجل في الإعلام. أردف وهو يطلق ماهر من عقال احتضانه:

ـ أنت المستقبل أنت وأخوتك.. هذا الذي لن أفرط فيه أبدًا.

****

يوم رحيل وحيد إلى المعسكر لينضم إلى كتيبة المقاتلين الذين سيرحلون إلى مواقع الاشتباك كان الرضا يملأ نفسه. ستقود مأرب حروب الشمس ضد ظلام الإمامة هذا قدرها.. خطر في باله وهو يودع رفاقه كلهم؛ يودع حافظ وسماح.. يودع زوجته وأولاده.

ـ ما أجمل أن تودع أحباءك وهم على قيد الحياة على أمل اللقاء.

أخيرًا ودع وحيد أحباءً لقلبه وهم أحياء..

تمت بحمد الله

السيرة الذاتية

الكاتبة : **فكرية أحمد علي شحرة**

من مواليد : **ناحية بعدان مدينة إب / المناطق الوسطى في اليمن.**

صدر لها

- «**نصف روح**» مجموعة قصصية صادرة عن الدار العربية للعلوم ناشرون.
- «**عبير أنثى**» رواية صادرة عن دار نينوى / دمشق عام / ٢٠١٥م
- «**قلب حاف**» رواية صادرة عن دار نينوى / عام / ٢٠١٦ م طبعة ثانية صادرة عن دار الشواهين ٢٠٢٢
- «**ثلاثية**» صاحب الابتسامة ـ صادرة عن الدار العربية للعلوم ناشرون .
- «**الثجة**» رواية صادرة عن دار أروقة القاهرة عام ٢٠٢٠م الطبعة الثانية صادرة عن دار الشواهين ٢٠٢٢
- «**هكذا يموتون**» مجموعة قصصية عن دار العهد ٢٠٢١
- «**فتيات الغربة**» مجموعة قصصية.
- «**الرجل بعيون أنثى**» مقالات أدبية (نافذة وأربعون جدارا) مجموعة قصصية صادرة عن دار العربية للعلوم ناشرون.
- صدرت رواية «**شمس أوام**» في طبعتها الأولى تحت عنوان صاحب الابتسامة صادرة عن دار العربية للعلوم ناشرون على ثلاثة أجزاء تم جمعها وتنقيحها في كتاب واحد لتصدر طبعة ثانية عبر دار الشواهين ديسمبر ٢٠٢٢م

فكـرية شحـرة

شمس أوام (صاحب الابتسامة)

الرواية سرد على لسان الصحفي اليمني "وحيد الامير" تدور أحداثها عن حرب اليمن منذ اجتياح مليشيا الحوثيين لمدن اليمن كالطوفان.

عن تدخل دول التحالف وامتداد الحرب لسنوات.

بطل الرواية الصحفي "وحيد" الذي كتب مقالا يرحب بتدخل التحالف لإنقاذ اليمن ودحر الانقلاب فصار مطاردا مشردا داخل وطنه رافضا الهجرة أسوة بمئات من الصحفيين المشردين خارج البلد وظل عرضة للاعتقال كمئات من الصحفيين الذين اعتقلوا أو قتلوا تحت التعذيب .

يحاول الصمود في وطن كل شيء فيه يتلاشى..

الحب والأمان والأصدقاء وأخيرا الوطن الذي لم يعد وطنا؛ تتلاحق الخسارات والمفاجأت في حياته حتى يقرر النهاية التي يرضاها.

شخصيات الرواية خليط من شخصيات حقيقية وافتراضية معبرة عن الواقع تماما.